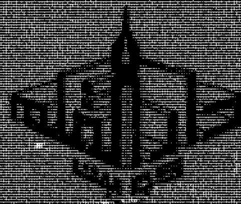
د. أحمد فتحي عثمان



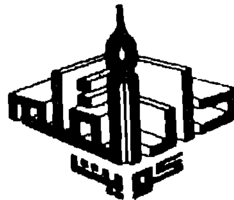
السلفية
في المجتمعات المعاصرة



السّلفية

في المجتمعات المعاصرة

د. محمد فتحي عثمان
كلية العلوم الاجتماعية



١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



دار القلم للنشر والتوزيع

شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقياً توزيعكو
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

« السلفية » في المجتمعات الاسلامية المعاصرة

« ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل اتنبئون الله بمالا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون ٠ وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » (يونس / ١٨-١٩) ٠

قال ابن كثير (المتوفى فى ٧٧٤ هـ) فى تفسير الآيتين من سورة يونس : « ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين ان تلك الآلهة تنفعهم شفاعتهم عند الله ، فاخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئا ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا ابدا ٠٠٠ ثم اخبر تعالى ان هذا الشرك حادث فى الناس ، كائن بعد ان لم يكن ، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الاسلام ٠ قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والانداد والأوثان فبعث الله الرسل باياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) ٠٠٠ وقوله (ولولا كلمة سبقت من ربك) — الآية : أى لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب احد الا بعد قيام الحجة عليه، وانه اجل الخلق الى اجل معدود ، لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين » (جـ ٢ من تفسير ابن كثير دار احياء الكتب العربية بالقاهرة ٠ ص ٤١١) ٠

وقد نزل القران الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم الذى أرسل الى البشر كافة يذكر الناس بالتوحيد الخالص والحنيفية الصافية ووجوب نبذ الشركاء والشفعاء وكل ما اتخذوا من دون الله من أولياء «اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون» (الأعراف/٣) ، « انا انزلنا اليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصا له الدين ٠ الا لله الدين الخالص، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار » (الزمر/٢-٣) ٠٠٠ قال ابن كثير فى تفسير الآية السابقة من سورة الزمر : « ٠٠٠ (الا ليقربونا الى الله زلفى) : أى ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ،

ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم اذا حجــوا فى جاهليتهم (لبيك لا شريك لك ـ الا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك) . وهذه الشبهة هي التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه ، وجاءتهم الرسل صلوات الله وســلامه عليهم أجمعين بردها والنهى عنها ، والدعوة الى افراد العبـــادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفســهم لم يأذن الله فيه ولا رضى به بل ابغضه ونهى عنه : (ولقد بعثنا فى كل أمة رســـولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (وما أرسلنا من قبلك من رســـول الا نوحى اليه أنه لا اله الا انا فاعبدون) . وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده الا باذنه لمن ارتضى ، وليسوا عنــده كالأمراء عند ملوكهم يشـــفعون عنهم بغير اذنهم فيما أحبه الملوك وأحبــوه ، (فلا تضربوا لله الأمثال) ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ... (سبحانه هو الله الواحد القهار) : أى تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد فانه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى كل شيء عبد لديه فقير اليه ، وهو الغنى عما سواه ، قد قهر الأشـــياء فدانت وذلت وخضعت ، تبارك وتعالى عما يقـــول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا » (جـ ٤ ص ٤٥) .

حقيقــة الســـلفية

لقد استجاب ســـلف هذه الأمة لدعوة القرآن الى التوحيد الخالص فى عبادة الله والاستعانة به ، وجددوا ما كان عليه رســل الله وأنبياؤه أجمعون وكل أتباعهم المؤمنون ... فكانت عقيدة الســـلف فى أيسر تعريف لها وبيان لمضمونها هى هذا التوحيد الخالص الذى جاء به رســل الله وأنبياؤه جميعا ، توحيدا كاملا محكما لا يتعارض فيه قول مع قول ، ولا قول مع فعل ، ولا فعــل مع فعل « فان الاخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة ، كما أمرنا أن نقول في صلاتنا : (اياك نعبد واياك نستعين) ـ فهاتان الكلمتان قد قيل أنهما تجمعان معانى الكتب المنزلة من السماء ، وقد أمر الله بعبادته والتــوكل عليه فى مواضع عدة من كتابه منها قوله تعالى فى الفاتحة : (اياك نعبــد واياك نستعين) «وعلم القرآن جمع فىالفاتحة ، وعلم الفاتحة فىهذين الأصلين:عبادة الله والتوكل عليه »(١) « وجماع الدين اصــلان : لا نعبد الا الله ، والا نعبده

---

(١) ابن تيمية : جامع الرسائل بتحقيق محمد رشـــاد سالم ـ المجموعة الأولى ـ القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ـ ص ٨٢ ، ٩١ .

الا بما شرع لا نعبده بالبدع كما قال تعالى (فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) · وذلك تحقيق الشهادتين : شـهادة أن لا اله الا الله وشهادة أن محمدا رسول الله ، ففى الأولى الا نعبد الا اياه ، وفى الثانية أن محمدا هو رسوله المبلغ عنه فعلينا ان تصدق خبره ونطيع أمره · وقد بين لنا ما نعبد الله به ، ونهانا عن محدثات الأمور وأخبر أنها ضـلالة · قال تعالى (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خـوف عليهم ولا هم يحزنون) · وكمـا اننـا مأمورون أن لا نخاف الا الله ولا نتوكل الا على الله ولا نرغب الا الى الله وان لا نستعين الا بالله وان لا تكون عبادتنا الا لله ، فكذلك نحن مأمورون ان نتبع الرسـول ونطيعه ونتأسى به فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه · قال تعالى : (ولو انهم رضـوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) ، فجعل الايتاء لله وللرسول كما قال (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ، وجعل التوكل على الله وحده بقوله (وقالوا حسبنا الله) ولم يقل ورسوله ، كما قال فى وصف الصحابة رضى الله عنهم فى الآية الأخرى (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشـوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ··· ثم قال : (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) ـ فجعل الاتياء لله وللرسول وقدم ذكر الفضل لله لأن الفضل بيـد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وله الفضل على رسـوله وعلى المؤمنين · وقال (انا الى الله راغبون) فجعل الرغبة الى الله وحده ، كما فى قوله (فاذا فرغت فانصب · والى ربك فارغب) · وقال النبى صلى الله عليـه وسـلم لابن عباس (اذا سـألت فاسـأل الله واذا استعنت فاسـتعن بالله) والقرآن يدل على مثل هذا فى غير موضع · فجعل العبادة والخشـية والتقوى لله وجعل الطاعة والمحبة لله ورسوله ، كما فى قول نوح عليه السـلام : (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) ، وقوله (ومن يطع الله ورسـوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) وأمثال ذلك · فالرسل أمروا بعبادته وحده والرغبة اليه والتوكل عليه ، وطاعته والطاعة لهم · فاضل الشيطان النصارى وأشباههم فاشركوا بالله وعصوا الرسـول ، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم ، فجعلوا يرغبون اليهم ويتوكلون عليهم ويسـألونهم مع معصيتهم لأمرهم ومخالفتهم لسـنتهم ، وهدى الله المؤمنين المخلصين لله أهل الصراط المستقيم ، الذين عرفوا الحق واتبعوه فلم يكونوا من المغضوب عليهم

ولا الضالين ، فاخلصوا دينهم لله واسـلموا وجوههم لله وانابوا الى ربهم ، واحبوه ورجوه وخافوه وسـألوه ورغبوا اليه وفوضوا امورهم اليه وتوكلوا عليه واطاعوا رسله وعزروهم ووقروهم واحبوهم ووالوهم واتبعوهم واقتفوا آثارهم واهتدوا بمنارهم · وذلك هو دين الاسـلام الذى بعث الله به الاولين والآخرين من الرسـل ، وهو الدين الذى لا يقبل من احد دينا الا اياه ، وهو حقيقة العبادة لرب العالمين · فنسـأل الله العظيم ان يثبتنا عليه ويكمله لنا ويميتنا عليه وسائر اخواننا المسلمين » (١) ·

معنى السلفية :

فليست عقيدة السلف رضى الله عنهم الا ما أمر الله به من توحيـده وافراده بالربوبية والالوهية ، والاتجاه اليه وحده سبحانه فى النية والعمل ، وهو التوحيد الذى بعث به الله كل نبى ورسول وانزله فى كل كتاب ··· فهى « السـلفية » وهى « الحنيفية » وهى « فطرة الله التى فطر الناس عليهـا » « ضرب لكم مثلا من انفسكم ، هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيمـا رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون · بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم ، فمن يهدى من اضل الله ، وما لهم من نصرين ، فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر النـاس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمـون · منيبين اليه واتقوه واقيموا الصـلاة ولا تكونوا من المشركين · من الـذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون » (الروم/٢٨ ــ ٣٢) ، « قل يا أيها الناس ان كنتم فى شك من دينى فلا أعبـد الذين تدعون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ، وامرت أن اكون من المؤمنين ، وأن اقـم وجهـك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين · ولا تدع من دون الله ما ينفعك ولا يضرك ، فان فعلت فانك اذن من الظالمين · وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا رد لفضله ، يصيب به من يشـاء من عبـاده وهو الغفور الرحيم ، قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتـدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليهـا وما انا عليكم بوكيـل » (يونس / ١٠٤ ــ ١٠٨) « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيمـا

---

(١) ابن تيمية : العبودية ــ تقـديم وتعليق عبـد الرحمن البانى ــ ط ٤ بيروت ١٣٩٧ هـ ص ١٧٠ ــ ١٧٤

ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ٠ قل ان صـلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ٠ لا شريك له ، وبذلك امرت وانا اول المسلمين ٠ قـل اغير الله ابغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس الا عليهـا ولا تزر وازرة وزر اخرى ، ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيـه تختلفون » (الأنعام / ١٦١ ـ ١٦٤) ٠ يقول شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن تيميـة رحمه الله (المتوفى سنة ٧٢٨هـ) ، « وراس الاسلام مطلقا شهادة ان لا اله الا الله وبها بعث جميع الرسل كما قال تعالى (ولقد بعثنا في كل امة رسـولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى (وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون) ، وقال عن الخليل (واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه انني براء مما تعبدون ٠ الا الذي فطرني فانه سيهدين ٠ وجعلهـا كلمة باقية في عقبه لعلهم يُرجعون) ٠٠٠٠ وذكر عن رسله كنوح وهـود وصالح وغيرهم انهم قالوا لقومهم (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) ، وقال عن اهل الكهف (انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ٠ وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنـا اذن شططا) الى قوله (فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا) وقد قال سبحانه (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـاء) ـ ذكر ذلك في موضعين من كتابه ٠ وقد بين في كتـابه الشرك بالملائكة والشرك بالأنبياء والشرك بالكواكب والشرك بالأصنام ، واصل الشرك الشرك بالشيطان ٠٠٠٠ فبين ان اتخاذ الملائكة والنبيين اربابا كفـر ٠ ومعلوم ان احـدا من الخلق لم يزعم ان الأنبياء والأحبار والرهبان والمسيح بن مريم شـاركوا الله في خلق السموات والأرض ، بل ولا زعم احد من الناس ان العالم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال ، بل ولا اثبت احد من بني آدم الها مساويا لله في جميع صفاته ، بل عامة المشركين بالله مقرون بانه ليس شريكه مثله ، بل عامتهـم يقرون ان الشريك مملوك له : سواء اكان ملكا او نبيا او كوكبا او صنما ، كما كان مشركو العرب يقولون في تلبيتهم : (لبيك لا شريك لك ٠ الا شريكا هـو لك ، تملكه وما ملك) فاهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوحيد وقال : (لبيك اللهم لبيك ، لبيـك لا شريك لك لبيـك ، ان الحمـد والنعمـة لك والملك ، لا شريك لك) ٠٠٠ وقد اخبر سبحانه عن المشركين من اقرارهم بان الله خالق المخلوقات ما بينه في كتابه (ولئن سالتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ٠٠٠) ، وقال تعالى (قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ٠ سيقولون لله ، قل افلا تذكرون) ـ الى قوله (فانى تسحرون) ، ثم قوله (ما اتخذ الله من

ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) وقال (وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون) ··· ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث اليهم محمد صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يخالفونه فى هذا ، بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شىء ، حتى انهم كانوا يقرون بالقدر ايضـــا ، وهم مع هذا مشركون · فقد تبين أن ليس فى العالم من ينازع فى اصل هذا الشرك ··· والـــكلام الآن مع المشركين بالله المقرين بوجوده ، فان هذا التوحيد الذى قرروه (اى المتكلمون) لا ينازعهـم فيه هؤلاء المشركون ، بل يقرون به مع انهم مشركون وكما ثبت بالكتاب والسنة والاجماع ، وكما علم بالاضطرار من دين الاســـلام ··· **وليس المراد بالاله هو القادر على الاختراع** كما ظنه من ظنه من ائمـــة المتكلمين ، حيث ظن أن الالهية هى القدرة على الاختراع دون غيره وأن من اقر بان الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا اله الا هو ، فان المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون كما تقدم بيانه · **بل الاله الحق هو الذى يســـتحق ان يعبـــد** فهو اله بمعنى مالوه ··· والتوحيد أن يعبـــد الله وحـــــده لا شريك له ، والاشراك أن تجعل مع الله الها آخر ، **وإذن تبين ان غاية ما يقـرره هـؤلاء النظار (اى المتكلمون) اهل الاثبات للقدر المتنسبون الى السنة انما هو توحيد الربوبية وان الله رب كل شىء ، ومع هذا فالمشركون كانوا مقـرين بذلك مع انهم مشركون ، وكذلك طوائف من اهل التصوف والمتسبين للمعرفة والتحقيق والتوحيد غاية ما عندهم من التوحيد هو شهود هذا التوحيد** ، وأن يشـــهد أن الله رب كل شىء ومليكه وخالقه لاسيما اذا غاب العارف بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده وبمعروفه عن معرفته ، ودخل فى فناء توحيد الربوبية بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ، فهذا عندهم هو الغاية التى لا غاية وراءها ، ومعلوم أن هذا هو تحقيق ما أقر به المشركون من التوحيـــد ، **ولا يصير الرجل بمجرد هذا التوحيد مسلما فضـــلا عن أن يكون وليا لله او من سادات الأولياء** ··· وكلما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة ! فهؤلاء المتصوفون الذين يشهدون الحقيقة الكونية مع اعراضهم عن الأمر والنهى شر من القدرية والمعتزلة ونحوهم ، أولئك يشبهون المجوس وهؤلاء يشـــــبهون المشركين الذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء) والمشركين أشر من المجوس · فهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه ، فانه أصل الاسلام الذى يتميز به أصل الايمان من أصل الكفر : **وهو الايمان بالوحدانية والرسالة** ــ شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رســـول الله ، وقد وقع كثير

من الناس فى الاخلال بحقيقة هذين الأصلين او احدهما مع ظنه انه فى غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة ، فاقرار المشرك بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه ، لا ينجيه من عذاب الله ان لم يقرون به اقراره بانه لا اله الا الله فلا يستحق العبادة احد الا هو ، وان محمدا رسول الله فيجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر ٠ فلابد من الكلام فى هذين الأصلين :

الأصل الأول توحيد الالهية فانه سبحانه أخبر عن المشركين بأنهم اثبتوا وسائط بينهم وبين الله يدعونهم ويتخذونهم شفعاء بدون اذن الله ، قال تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات والأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ـ فأخبر ان هؤلاء الذين اتخذوا هؤلاء شفعاء مشركون ٠٠٠٠ ومن تحقيق التوحيد أن يعلم ان الله تعالى اثبت له حقا لا يشركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى ٠٠٠

الأصل الثانى : حق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعلينا ان نؤمن به ونطيعه ونتبعه ونرضيه ونحبه ونسلم لحكمه ٠٠٠٠ قال تعالى (من يطع الرسول فقد اطاع الله) ٠٠٠٠ وقال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ٠٠٠٠ **ولابد فى عبادته من اصلين : أحدهما اخلاص الدين له ، والثانى: موافقة أمره الذى بعث به رسله** ، ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا ، وقال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى (ليبلوكم أيكم احسن عملا) : اخلصه واصوبه ، قالوا يا ابا على ما اخلصه واصوبه ؟ قال : اذا كان العمل خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ـ والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة ٠ ولهذا ذم الله المشركين فى القرآن على اتباع ما شرع لهم شركاؤهم من الدين مالم يأذن به الله من عبادة غيره ، وفعل مالم يشرعه من الدين ، كما قال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) ، كما ذمهم على انهم حرموا مالم يحرمه الله ، **والدين الحق انه لا حرام الا ما حرمه الله ولا دين الا ما شرعه ، ثم ان الناس فى عبادته واستعانته على أربعة اقسام** : فالمؤمنون المتقون هم له وبه يعبدونه ويستعينونه ، وطائفة تعبده من غير استعانة ولا صبر فتجده عند احدهم تحريا للطاعة والورع ولزوم

السنة لكن ليس لهم توكل واستعانة وصبر بل فيهم عجز وجزع ، وطائفة فيهم استعانة وتوكل وصبر من غير استقامة على الأمر ولا متابعة للسنة فقد يمكن احدهم ويكون له نوع من الحال باطنا وظاهرا ويعطى من المكاشفات والتاثيرات مالم يعطه الصنف (السابق) ولكن لا عاقبة له فانه ليس من المتقين والعاقبة للتقوى ٠٠٠٠ وشر الأقسام من لا يعبده ولا يستعينه ، فهو لا يشهد أن علمه لله ولا أنه بالله ٠ **فالمعتزلة** ونحوهم – من القدرية الذين انكروا القدر – هم فى تعظيم الأمر والنهى والوعد والوعيد خير من هؤلاء الجبرية القدرية الذين يعرضون عن الشرع والأمر والنهى ، **والصوفية** هم فى القدر ومشاهدة توحيد الربوبية خير من المعتزلة ، لكن فيهم من فيه نوع بدع مع اعراض عن بعض الأمر والنهى والوعد والوعيد حتى يجعلوا الغاية هى مشاهدة توحيد الربوبية والفناء فى ذلك ويصيرون أيضا معتزلين لجماعة المسلمين وسنتهم فهم معتزلة من هذا الوجه وقد يكون ما وقعوا فيه من البدعة شرا من بدعة أولئك المعتزلة وكلتا الطائفتين نشأت من البصرة ، **وانما دين الله ما بعث به رسله وانزل به كتبه وهو الصراط المستقيم ، وهو طريقة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير القرون** وافضل الأمة واكرم الخلق على الله تعالى بعد النبيين قال تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) ٠٠٠٠ وكان عبد الله بن مسعود يقول ٠ من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات فان الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : **ابر هذه الأمة قلوبا واعمقها علما واقلها تكلفا** ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم واقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بدينهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم ٠٠٠ وقد قال عبد الله بن مسعود : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا وخط حوله خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال : **هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه** ثم قرأ (وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) ٠ وقد أمرنا سبحانه أن نقول فى صلاتنا (اهدنا الصراط المستقيم ٠ صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم (اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون) ، وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه والنصارى عبدوا الله بغير علم ٠ ولهذا كان يقال : تعوذا بالله من **فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل** فان فتنتهما فتنة لكل مفتون ٠٠٠٠ فنسال الله العظيم أن يهدينا وسائر اخواننا صراطه المستقيم ، صراط الذين انعم الله

عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » (١).

السلفية ··· دعوة موافقة لكل عصر ، (ومعاصرة) دائما :

تلكم هى عقيدة السلف رضوان الله عليهم ، أو هى عقيدة التوحيد كما جاء بها رسل الله وأنبياؤه ونزلت بها كتبه ، تنزع عن النـــــاس اصرارهم والأغلال التى كانت عليهم ، فلا عبودية الا لله ، ولا طاعة الا لأمره وفقـا لما جاء به رسوله صلوات الله عليه « الذين يتبعون الرســـول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه أولئك هم المفلحون » (الأعراف / ١٥٧) ·

ولا غرو ان تكون **الدعوة الى الاقتداء بالسلف هى دعوة متجددة دوما ، وهى على ذلك دعوة ملائمة لعصرنا ولكل عصر** ، لأنها تربط المؤمنين بالينابيع الصافية ، وتسقط عنهم رواسب القرون والأجيال من ابتداع البشر ، وتعيدهم الى كتاب الله المحكم المبين وسنة رسوله البيضاء النقية « قل اطيعـــوا الله واطيعوا الرسول ، فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتـــــم ، وان تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين » (النور / ٥٤) ·

فالدعوة السلفية موافقة لكل زمان على الدوام ، لأنها تهدر كل ما لـــم يأت به رب الناس الذى برأ النفوس ويعلم خفاياها ومكنون نزعاتها وأنـــزل ما يزكيها ويهديها للتى هى أقوم ، وكل انسان يؤخذ من قوله ويترك الا المعصوم صلوات الله عليه ···· وهكذا يتحرر المؤمنون فى كل عصر من ركام جمعـــه الهوى والتقليد عبر القرون ، وخيم على القلوب والعقول جيلا بعد جيل ·

ومن ثم كانت كل دعوة مخلصـــة الى تجديد أمر هذا الدين ، تلح على توثيق عرى المؤمنين بمصدريه الخالدين : كتاب الله وسنة رسوله ···· ولا تحاول بحال من أن توهن هذه العروة الوثقى التى لا انفصــام لهـــا ، مما قد يتصوره البعض من لفظ (تجديد) وبخاصة اتباع الديانات الأخرى والـــذين

---

(١) ابن تيمية : الرسالة التدمرية ــ طبعة كلية الشريعة بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ــ الرياض ١٣٩٦ هـ ص ١١٣ ــ ١٢٩ ، ١٤٣ ــ ١٤٧

الفوا الاصلاح والتجديد على منهج ما لدى هؤلاء الأتباع ٠٠٠ ان فى العبودية الخالصة لله ، والرجوع الى الكتاب والسنة وحدهما لمعـــرفة ما امر به الله وما نهى عنه ، تحريرا للعقل والنفس ، للفرد والجماعة : « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله ، كالـــذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا ، قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين » (الأنعام / ٧١) ٠

وماذا يريد المعاصرون اكثر من هذا التحرر الفكرى النفسى ، الفـردى الجماعى ، الذى ياتى به افراد الله بالالوهية والربوبية ٠ يقول سبحانه فى النعى على اليهود والنصارى واتخاذهم من دون الله أولياء يطيعونهم طاعتهم ربهم او اكثر « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحـــدا لا اله الا هو ســـبحانه عما يشركون » (التوبة / ٣١) ٠

نقل ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية من سورة التوبة ما رواه الامـام احمد والترمذى وابن جرير من طريق عدى بن حاتم انه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فر الى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت اخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله صلوات الله عليه وسلامه على أخته وأعطاها فرجعت الى أخيها فرغبته فى الاسلام وفى القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم عدى الى المدينة وكان رئيسا فى قومه طىء وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله عليه الصلاة والسلام عدى وفى عنقه صليب من فضة وهو يقرأ الآية (اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال : « فقلت انهم لم يعبدوهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى انهم حرموا عليهم الحلال واحلوا لهم الحرام فاتبعوهم ـ فتلك عبادتهم اياهم » (جـ ٢ ص ٣٤٨) ٠

فبالتوحيد الصحيح يتحرر المؤمن من متابعة كل ذى سطوة من البشر ، يقول تعالى « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرســـــول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » (النســـاء / ٥٩) ويذكر ابن القيـم رحمه الله فى بيان معنى هذه الآية « فأمر الله بطاعته وطاعة رسوله ، وأعاد الفعل (أطيعوا) اعلاما بأن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر

به على الكتاب ٠٠٠٠ ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالا ، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم ضمن طاعة الرســـول ايذانا بأنهم انما يطاعــون تبعا لطاعة الرســـول » (١) ٠

يقول ابن تيمية رحمه الله : « كل محبـــة لا تكون لله فهى باطلة ، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل ، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيهـــا الا ما كان لله ، ولا يكون لله الا ما أحبه الله ورســـوله وهـــو المشروع ٠٠٠ وقال النبى صلى الله عليه وسلم (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) وقال (انمـــا الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى) ٠٠٠٠ وهذا الأصل هو أصـــل الدين ، وبه أرسل الله الرسل وانزل الكتب واليه دعا الرسول وعليه جاهد ٠ والشرك غالب على النفوس ، وهو كما جاء فى الحـــديث (هو فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل) ٠٠٠ وكثيرا ما يخالط النفوس عن الشهوات الخفيـــة ما يفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له واخلاص دينها له ٠٠٠ وعن كعب بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال (ماذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينـــــه) ـ قال الترمذى : حديث حسن صحيح ٠ فبين صلى الله عليه وسلم أن الحرص على المال والشرف فى افساد الدين لا ينقص عن افساد الذئبين الجائعين لزريبـــة الغنم ٠ وذلك بين فان الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص ، وذلك أن القلب اذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له لم يكن شىء أحب اليـــه من ذلك حتى يقدمه عليه ، وبذلك يصرف عن أهل الاخلاص لله السوء والفحشاء كما قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) ٠٠٠٠ بخلاف القلب الذى لم يخلص لله فان فيه طلبا وارادة وحبا مطلقا ، فيهـــوى كل ما يسنح له ويتشبث بما يهواه ٠٠٠٠ فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى أسيرا عبدا ٠٠٠ وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة ، فترضـــيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثنى عليه بالباطل ويعادى من يذمه ولو بالحق ٠ وتارة يستعبده الدرهم والدينار ، وأمثـــــال ذلك من الأمور التى تستعبد القلوب والقلوب تهواها ، فيتخذ الهه هواه ويتبع هواه بغير هدى من اللـــه ، ومن لم يكن خالصا لله بحيث يكون الله أحب اليه من كل ما ســـواه ويكون ذليلا له خاضعا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشياطين وكان من الغاوين اخوان الشياطين وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه الا

---

(١) ابن القيم : اعلام الموقعين ـ المطبعة المنيرية بالقاهرة ـ جـ ١ ص ٣٩

الله ۰ وهذا أمر ضروری لا حيلة فيه ، فالقلب ان لم يكن حنيفا مقبلا على الله معرضا عما سواه كان مشركا ۰۰۰۰ » وينقل ابن تيمية حديث رســـول الله صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبـــد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ۰۰۰ ان أعطى رضى واذا منع سخط » ثم يقول « وهكذا حال من كان متعلقا برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه ، ان حصل له رضى وان لم يحصل له سخط ۰ فهذا عبد ما يهواه من ذلك ، وهو رقيق له ، **اذ الرق والعبودية فى الحقيقـــة هو رق القـلب وعبوديته فمـــا** استرق القلب واستعبده فالقلب عبده ۰۰۰۰ فالعبد لابد له من رزق وهـــو محتاج الى ذلك ، فاذا طلب رزقه من الله صار عبدا لله فقيرا اليه واذا طلبه من مخلوق صار عبدا لذلك المخلوق فقيرا اليه ، ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة فى الأصل وانما أبيحت للضرورة ۰۰۰۰ وكلما قوى طمع العبـــد فى فضل الله ورحمته لقضـــاء حاجته ودفع ضرورته **قويت عبوديته له وحريته مما سواه** ، فكما أن طمعه فى المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه ۰۰۰۰ واعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله ، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق بحيث يكون قلبه معتمدا اما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه واما على أهله وأصدقائه واما على أمواله وذخائره واما على ساداته وكبريائه كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت ، وقد قال تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا) ۰ **وكـل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه لهـــم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك** ، وان كان فى الظاهر أميرا لهـــم مدبرا لأمورهم متصرفا بهم ۰۰۰۰ وأما اذا كان القلب ــ الذى هو ملك الجســـم ــ رقيقا مستعبدا متيما لغير الله ، **فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية الذليلة لما استعبد القلب ۰۰۰۰ فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب كما أن الغنى غنى النفس** ، قال النبى صلى الله عليه وســـلم (ليس الغنى عن كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس ۰۰۰۰ قال تعالى (ان الصـــــلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر) ، فان الصلاة فيها دفع مكروه وهـــو الفحشاء والمنكر وفيها تحصيل محبوب وهو ذكر الله ، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه ۰۰۰۰ **وكذلك طالب الرئاسة والعلو فى الارض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان فى الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم فهو فى الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عما يجترحونه ليطيعوه**

ويعينوه ٠٠٠٠ والتحقيق أن كلاهما فيه عبودية للآخر ، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله ٠ واذ كان تعاونهما على العلو فى الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق ، فكل واحد من الشخصين ، لهواه الذى استعبده واسترقه مستعبد للآخر ٠ وهكذا أيضا طالب المال ، فان ذلك المال يستعبده ويسترقه » (١) ٠

فماذا ينشد دعاة الاصلاح فى كل زمان ومكان ، أقوى من هذا التحرير للنفس من داخلها وأعماقها عن طريق تصحيح الاعتقاد والايمان ؟؟ ان التحرير بكلمات تقال وفكر يصاغ وقوانين يكتبها البشر للبشر هيهات أن يبلغ ما تبلغه العقيدة الصحيحة التى تنفث العبودية لله فى أعمق الأعماق ، فتنفث معها التحرر من كل الأغيار والشركاء والأنداد ، وتقتل جراثيم الانقياد لشىء من هؤلاء ٠٠٠٠ وهذه نقطة البدء وحجر الأساس لكل دعوة للاصلاح والتصحيح ٠

لهذا كانت العقيدة الصحيحة التى يقتدى فيها بالسلف الصالح هى رأس الأمر وعموده فى كل دعوة لتجديد أمر هذا الدين وانهاض أمته ، فليس كل رجوع الى الأصل رجعية مذمومة مثلما يدين الفكر الغربى الذى يحذر الرجوع الى سلطة الكهنوت والكنيسة ٠٠٠٠ ان الأمر على العكس تماما فى دين الاسلام ، فالرجوع الى الأصل ينفى ما أفرخته الأهواء والأوهام والتقاليد على مر الأجيال وفى مختلف البيئات ، ويعيد الدين غضا طريا مستمدا من ينبوعه النقى الصافى من الأكدار !

وهكذا اتخذت كل دعوة معاصرة مخلصة للاصلاح « السلفية » أساسا ومنطلقا ٠٠٠٠ فالعقيدة السلفية الصحيحة تطلق القوى والطاقات وتخلص الانسان من العبودية للانسان ٠٠٠٠ وما أصدق ربعى بن عامر حين دخل على رستم قائد الفرس ـ كما روى الطبرى فى خبر ابتداء أمر (القادسية)(٢) سنة ١٤ هـ « فسأله ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا والله جاء بنا ، لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ٠ فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم اليه ٠٠٠٠ » ٠

---

(١) ابن تيمية : العبودية ص ٨٧ ـ ١٠١ ، ١٣٧ ـ ١٤٢

(٢) تاريخ الطبرى ـ أخبار سنة ١٤ هـ (ابتداء أمر القادسية)

والعقيدة السلفية الصحيحة كما تنفى الاستسلام والانقياد والخضوع بغير حق ، تنفى السلبية والتواكل وهجر الدنيا واعتزال الخلق ٠٠٠٠ فالتوكل المشروع غير التواكل المذموم ، وانما يعبد الله بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومخالطة الناس وتحمل أذاهم ، ويتقى الله فى التعامل مع خلقه ، وتبتغى الآخرة فى السعى والعمل بهذه الدنيا « **ومن عبادته وطاعته الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحسب الامكان والجهاد في** سبيله لأهل الكفر والنفاق ، فيجتهدون فى اقامة دينه مستعينين به رافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات دافعين بذلك ما قد يخاف من آثار ذلك ، كما يزيل الانسان الجوع الحاضر بالأكل ويدفع به الجوع المستقبل ، وكذلك اذا آن أوان البرد دفعه باللباس ، وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه ٠ كما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقى نتقى بها : هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : هى من قدر الله ٠ وفى الحديث : ان الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض ٠ فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله ، وكل ذلك من العبادة ٠ **وهؤلاء الذين يشهدون الحقيقة الكونية ــ وهى ربوبيته تعالى لكل شىء ــ ويجعلون ذلك مانعا من اتباع أمره الدينى الشرعى على مراتب من الضلال** فغلاتهم يجعلون ذلك مطلقا عاما فيحتجون بالقدر فى كل ما يخالفون الشريعة ، وقول هؤلاء شر من قول اليهود والنصارى وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء) وقالوا (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) ٠ وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضا ، بل كل من احتج بالقدر فانه متناقض ! فانه لا يمكن أن يقر كل آدمى على ما يفعل ، فلا بد اذا ظلمه ظالم أو ظلم الناس ظالم وسعى فى الأرض بالفساد أن يدفع هذا القدر وأن يعاقب الظالم بما يكف عدوانه وعدوان أمثاله ، فيقال له : ان كان القدر حجة فدع كل واحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك وان لم يكن حجة بطل أصل قولك ٠٠٠٠ وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية لا يطردون هذا القول ولا يلتزمونه ، وانما هم يتبعون آراءهم وأهواءهم : كما قال فيهم بعض العلماء : أنت عند الطاعة قدرى وعند المعصية جبرى ، أى مذهب وافق هواك تمذهبت به !! ٠٠٠٠ وقد يقولون : من شهد الارادة سقط عنه التكليف ، ويزعمون أن الخضر سقط عنه التكليف لشهوده الارادة ، فهؤلاء يفرقون بين العامة والخاصة الذين شهدوا الحقيقة الكونية فشهدوا أن الله خالق افعال العباد وأنه مريد ومدبر لجميع الكائنات ، وقد يفرقون بين من يعلم ذلك علما وبين

من يراه شهودا فلا يسقطون التكليف عمن يؤمن بذلك ويعلمـــــه فقط ولكن يسقطونه عمن يشهده فلا يرى لنفسه فعلا أصلا ، وهؤلاء يجعلون الجبر واثبات القدر مانعا من التكليف على هذا الوجه ۰۰۰۰ ثم المعتزلة أثبتت الأمر والنهى الشرعيين دون القضـــاء والقدر اللذين هما ارادة الله العامة وخلقة لأفعـــال العباد ، وهؤلاء أثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهى فى حق من شـــهد القدر اذ لم يمكنهم نفى ذلك مطلقا ۰ وقول هؤلاء شر من قول المعتزلة ، لهـذا لم يكن فى السلف من هؤلاء أحد ۰ وهؤلاء يجعلون الأمر والنهى للمحجوبين الذين لم يشهدوا هذه الحقيقة الكونية ، ولهذا يجعلون من وصل الى شهود هذه الحقيقة يسقط عنه الأمر والنهى ويقولون انه صار من الخاصة ، وربما تأولوا على ذلك قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ـ فاليقين عندهم هـو معرفة هذه الحقيقة ۰ وقول هؤلاء كفر صريح ، وان وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر ، فانه قد علم بالاضطرار من دين الاسلام أن الأمر والنهى لازمان لكل عبد ما دام عقله حاضرا الى أن يموت لا يسقطان عنه لا بشهوده القدر ولا بغير ذلك ۰ فمن لم يعرف ذلك عرفه وبين له ۰۰۰ وقد كثرت مثل هــذه المقالات فى المستأخرين ، وأما المتقدمون من هذه الأمة فلم تكن هذه المقالات معروفة فيهم وهذه المقالات هى محادة لله ورسوله ومعاداة له وصد عن سبيله ومشـــاقة له وتكذيب لرسله ومضاده له فى حكمه ، وان كان من يقول هذه المقالات قد يجهل ذلك ويعتقد أن هذا الذى هو عليه هو طريق الرسول وطريق أولياء الله المحققين فهو فى ذلك بمنزلة من يعتقد ان الصلاة لاتجب عليه لاستغنائه عنها بما حصل له من الأحوال القلبية أو أن الخمر حلال له لكونه من الخواص الذين لايضرهم شرب الخمر أو أن الفاحشة حلال له لأنه صـــار كالبحر لا تكدره الذنوب ـ ونحـــو ذلك !! ۰۰۰ وهؤلاء قد يسمون ما أحدثوه من البدع حقيقة ، كما يســمون ما يشهدون من القدر حقيقة ، وطريق الحقيقة عندهم هو الســلوك الذى لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه ولكن بما يراه ويذوقه ويجده فى قلبه مع ما فيه من غفلة عن الله جل وعلا ۰۰۰ وأصل ضلال من ضل هو بتقديم قياسه على النص المنزل من عند الله وتقديم اتباع الهوى على اتباع أمر الله ، فان الذوق والوجد ونحو ذلك هو بحسب ما يحبه العبد ويهواه ، فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته وهواه ۰ فأهل الايمان لهم من الذوق والوجد مثل ما بينه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله فى الحديث الصحيح : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب اليه مما ســواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعـد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى

للنار) ... وأما أهل الكفر والبدع والشهوات فكل بحسبه . قيل لسفيان ابن عيينة : ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم ؟ فقال : انسيت قوله تعالى (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) ـ أو نحو هذا من الكلام ... ولهذا يميل هؤلاء ويغرمون بسماع الشعر والأصوات التى تهيج المحبة المطلقة التى لا تختص بأهل الايمان بل يشترك فيها محب الرحمن ومحب الأوثان ومحب الصلبان ومحب الأوطان ومحب الاخوان ومحب المردان ومحب النسوان ، وهؤلاء الذين يتبعون أذواقهم ومواجيدهم من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة . فالمخالف لما بعث الله به رسوله من عبادته وحده وطاعته وطاعة رسوله لا يكون متبعا لدين شرعه الله أبدا .. بل يكون متبعا لهواه بغير هدى من الله ، قال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) ... ومن هؤلاء طائفة هم أعلاهم عندهم قدرا مستمسكون بما اختاروا بهواهم من الدين فى أداء الفرائض المشهورة ، واجتناب المحرمات المشهورة ، لكن يضلون بترك ما أمروا به من الأسباب التى هى عبادة ، ظانين ان العارف اذا شهد القدر أعرض عن ذلك ، مثل من يجعل التوكل منهم أو الدعاء منهم من مقامات العامة دون الخاصة بناء على أن من شهد القدر علم أن ما قدر سيكون فلا حاجة به الى ذلك ، وهذا ضلال مبين . فان الله قدر الأشياء بأسبابها كما قدر السعادة والشقاوة بأسبابهما ... فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة ، والتوكل مقرون بالعبادة كما فى قوله تعالى (فاعبده وتوكل عليه) ... ومعهم طائفة قد تترك المستحبات من الأعمال دون الواجبات فتنقص بقدر ذلك . ومنهم ومعهم طائفة يغترون بما يحصل لهم من خرق عادة ، مثل مكاشفة ، واستجابة دعوة مخالفة للعادة ونحو ذلك ، فيشتغل أحدهم بهذه الأمور عما أمر به من العبادة والشكر ونحو ذلك . فهذه الأمور ونحوها كثيرا ما تعرض لأهل السلوك والتوجه وانما ينجو العبد منها بملازمة أمر الله الذى بعث به رسوله فى كل وقت ، كما قال الزهرى : كان من مضى من سلفنا يقول (الاعتصام بالسنة نجاة) ، وذلك أن السنة كما قال مالك رحمه الله : مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق ! ... فما كان من البدع فى الدين التى ليست فى الكتاب ولا فى صحيح السنة ، فانها ـ وان قالها وعمل بها من عمل ـ ليست مشروعة ، فان الله لا يحبها ولا رسوله فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح » (١) .

---

(١) ابن تيمية : العبودية ص ٦١ ـ ٧٥ .

هذه عقيدة السـلف فى حقيقتها الصافية وآثارها الايجابية النافعة فى صلاح النفس واصـلاح الخلق ، تطلق طاقات العقل والنفس والبدن وفقا لأمر الله وابتغاء مرضاته ورجاء مثوبته ، ولا تقتطع الانسان من الدنيا ولا تعزله عن الناس ، وانما تقيم التوازن الرشيد باقامة ميزان القسط بين الغاية والوسيلة ، كما يقول تعالى « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصـبة أولى القوة ، اذ قال له قومه لا تفرح ، ان الله لا يحب الفرحين · وابتغ فيا آتاك الله الدار الآخرة ، ولاتنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسـن الله اليك ولا تبغ الفسـاد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسـدين ، قال : انما أوتيه على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قلبه من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسئل من ذنوبهم المجرمون» (القصص / ٧٦ـ٧٨) : يقول ابن خلدون « واعلم أن الدنيا كلها واحوالها عند الشارع مطية للآخرة ، ومن فقد المطية فقد الوصول · وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من افعال البشر أو يندب الى تركه اهماله بالكليـة أو اقتلاعه من أصله وتعطيل القوى التى ينشأ عليها بالكلية ، انما قصده تصريفها فى أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تعيد المقاصد كلها وتتحد الوجهة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسـوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه) · فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الانسـان فانه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله ، وانما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الذميمة ، فاذا كان الغضب لذلك كان مذموما واذا كان الغضب فى الله ولله كان ممدوحا وهو من شـمائله صلى الله عليـه وسلم · وكذا ذم الشهوات أيضـا ليس المراد ابطالها بالكلية ··· وانما المراد تصريفها فيما أبيح له باشتماله على المصالح ليكون الانسان عبدا متصرفا طوع الأوامر » (١) وهكذا يملك المرء شهواته لكن لا تملكه ولا يفقدها تماما ، انما يوجهها ويعليها ويجعل هواه تبعا لأمر الله ورسوله ·

---

(١) ابن خلدون : المقدمة (وهى الجزء الأول من تاريخه) ـ ط ٢ بيروت ١٩٦٧ م ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ ·

السلفية : رجوع ـ الى هدى السلف منذ عهد الرسالة :

واعتقاد السلف وعملهم اللذان ينبغي أن نهتدى بهديهما قائم منذ بلغ رسول الله صلوات الله عليه دعوته وتبعه عليها صحابته « خير القرون وأفضل الأمة وأكرم الخلق على الله تعالى بعد النبيين » كما تقدم من . قول ابن تيمية فى رسالته التدمرية « وأبر هذه الأمة قلوبا وأعمقهم علما وأقلهم تكلفا » ـ كما نقل ابن تيمية عن عبد الله بن مسعود . وقد تتابع على اعتقاد السلف وعملهم الصالحون من هذه الأمة خاصتهم وعامتهم ، فعرف عنهم التوحيد فى العلم والقول ، والتوحيد فى القصد والارادة والعمل ، فكان توحيدهم مكتملا فيه الهدى والاسوة والقدوة لكل من جاء بعدهم ، ولم يبتدع ذلك أو يخترعه ابن تيمية أو ابن عبد الوهاب ، وانما التزموا ما تعاقب عليهم السلف الصالح فى القرون المتوالية « وقد علم أن طريقة سلف الأمة وائمتها اثبات ما أثبته ـ الله ـ من الصفات غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل ... ولهذا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) قالوا : الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب وعلى الرسول البلاغ وعلينا الايمان » (١).
يقول ابن كثير عن قوله تعالى « ثم استوى على العرش » الذى تضمنه الآية « ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (الأعراف / ٥٤) : « فاللناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها ، وانما نسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعى والثورى والليث بن سعد والشافعى وأحمد واسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا ـ وهو امرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل . والظاهر المتبادر الى أذهان المشبهين منفى عن الله فان الله لا يشبهه شىء من خلقه (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) ، بل الأمر كما قال الأئمة : منهم نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى قال : (من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر) . وليس فيما وصف الله نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه

---

(١) ابن تيمية : الرسالة التدمرية ص ٧ ، ٦٢ .

الذى يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى »
(جـ ٢ ص ٢٢٠) ٠

وقبل ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨هـ) بقرون وبالتالى قبل محمد بن عبد الوهاب بقرون اكثر وزمن أبعد ـ كتب ابو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى المصرى الحنفى المنسوب الى قرية (طحا) من صعيد مصر والمتوفى سنة ٣٢١ هـ كتابه فى العقيدة السلفية المعروف « **بالطحاوية** » ، وصاحبه كان **شافعيا** وهو ابن اخت المزنى صاحب الشافعى ، ثم تحول الطحاوى الى **الحنفية** ٠ وقد شرح كتابه فى العقيدة السلفية صدر الدين على بن محمد بن ابى العز ـ وهو **حنفى أيضا** كان قاضى القضاة بدمشق والقاهرة وتوفى سنة ٧٩٢ هـ ٠ وشرح الطحاوى مصدر جليل فى العقيدة السلفية ومرجع أساسى لطلاب العلم وان كان الكاتب والشارح من اتباع مذهب أبى حنيفة ، فقد كان اعتقاد السلف نهج الأئمة جميعا وتابعيهم باحسان وقد طبع الكتاب أولا على نفقة عبد العزيز آل سعود مؤسس هذه الدولة ، ثم طبعته اخيرا كلية الشريعة بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ٠ وقد اجمل الكتاب مباحث التوحيد « **أحدها : الكلام فى الصفات ، والثانى : توحيد الربوبية** وبيان أن الله وحده خالق كل شىء ، **والثالث توحيد الالهية** وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له » ثم يذكر أن « التوحيد الذى دعت اليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان : **توحيد فى الاثبات والمعرفة** ـ أى اثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله واسمائه ليس كمثله شىء كما اخبر عن نفسه ، **وتوحيد الطلب والقصد** ٠٠٠٠ **وغالب سور القرآن متضمن لنوعى التوحيد ، بل كل سورة فى القرآن** » ٠ وأوضح الكتاب أن « **التوحيد الذى دعت اليه الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الالهية المتضمن توحيد الربوبية وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، فان المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية وان خالق السموات والأرض واحد** ٠٠٠ ولم يكونوا يعتقدون فى الأصنام انها مشاركة لله فى خلق العالم ، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركى الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم ، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين ويتخذونهم شفعاء ويتوسلون بهم الى الله ٠٠٠ وفى الصحيحين انه صلوات الله وسلامه عليه ذكر فى مرض موته كنيسة بأرض الحبشة وذكر من حسنها وتصاوير فيها قال (ان أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة) وفى صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يموت بخمس

(ان كان قبلكم يتخذون قبور انبيائهم وصالحيهم مساجد ، فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك) ومن أسباب الشرك عبادة الكواكب ... وكذلك الشرك بالملائكة والجن واتخاذ الأصنام لهم . وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع وانه ليس للعالم صانعان ... فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الالهية الذى يتضمن توحيد الربوبية » (١) .

صور من انحراف الاعتقاد والسلوك :

وهذا الكتاب الجليل كما يجلى الحق يبرز الباطل ، وكما يأمر بالمعروف ينهى عن المنكر ، فهو يكشف أصحاب الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة ويصورهم للعيان صورا فاضحة معبرة ، فهم أنواع « نوع منهم اهل تلبيس وكذب وخداع الذين يظهر أحدهم طاعة الجن له أو يدعى الحال من اهل المحال من المشائخ النصابين والفقراء الكذابين والطرقية المكارين ، فهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة التى تردعهم وأمثالهم . وقد يكون فى هؤلاء من يستحق القتل كمن يدعى النبوة بمثل هذه الخزعبلات أو يطلب تغيير شىء من الشريعة ونحو ذلك ... ونوع منهم بالأحوال الشيطانية والتصوف ومخاطبته رجال الغيب وأن لهم خوارق تقتضى أنهم أولياء الله ، وكان من هؤلاء من يعين المشركين على المسلمين ويقول أن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين لكون المسلمين قد عصوا ! ، وهؤلاء فى الحقيقة اخوان المشركين ... ويقول بعض الناس : الفقراء يسلم اليهم حالهم ، وهذا كلام باطل بل الواجب عرض أفعالهم وأحوالهم على الشريعة المحمدية فما وافقها قبل وما خالفها رد كما قال النبى صلى الله عليه وسلم (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) وفى رواية (من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) . فلا طريقة الا طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا حقيقة الا حقيقته ولا شريعة الا شريعته ولا عقيدة ال عقيدته ، ولا يصل أحد من الخلق بعده الى الله ورضوانه وجنته وكرامته

---

(١) « شرح الطحاوية » وهو شرح صدر الدين على بن على بن محمد ابن أبى العز الحنفى لكتاب ابى جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى المصرى وكان شافعيا وتحول للحنفية ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ طبعة كلية الشريعة بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ الرياض سنة ١٣٥٦ هـ ص ٢٣ ، ٢٦ ـ ٢٨ ، ٣٥ .

الا بمتابعته باطنا وظاهرا ، ومن لم يكن له مصـدقا فيما اخبر ملتزما لطاعته فيما أمر في الأمور الباطنة التي في القلوب والأعمال الظاهرة التي على الأبدان، لم يكن مؤمنا فضلا عن ان يكون وليا لله تعالى ، ولو طار في الهواء ومشى على الماء وأنفق من الغيب وأخرج الذهب من الخشب ، ولو حصل له من الخوارق ما عسى أن يحصـل فانه لا يكون مع تركه الفعل المأمور وعمل المحظور الا من أهل الأحوال الشيطانية ··· فمن اعتقد في بعض البله مع تركه لمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله انه من أولياء الله ويفضله على متبعي طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو ضـال مبتدع مخطيء في اعتقاده ··· قال موسى ابن عبد الأعلى الصوفي : قلت للشافعي : ان صاحبنا الليث يقول : اذ رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة · فقال الشافعي : ··· بل اذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهـواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب ··· والطائفة الملامية وهم الذين يفعلون ما يلامون عليه ويقولون نحن متبعون في الباطن ·· ردوا باطلهم بباطل آخر ! ··· وأما الذين يتعبـدون بالرياضـات والخلوات ويتركون الجمع والجماعات فهم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ··· وأما من يتعلق بقصة موسى مع الخضر في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني الذي يدعيه بعض من عدم التوفيق فهو ملحد زنديق ·»(١)

وانما تهدف كل نهضة حاضرة أو ماضية أو مستقبله أن تخلص الأمة من (البلة) واتباعهم ، ومن البلاهة والضلالة ، وأن تحرر العقول والنفوس وتطلق طاقات الانسان في الفكر الرشيد الايجابي والعمل الصالح البناء ··· فلا غرو أن تكون الدعوة السلفية في كل عصر هي أمل الشفاء من الأسـقام والأوهام ، والسـبيل لتحطيم الآصـار والأغلال ، والنهوض والمسـير قدما نحو الأمام الرجوع الى الكتاب والسـنة والاهتداء بسلف الأمة هو ضمان المسـير الى مستقبل أفضل ··· وهكذا تكون السلفية دعوة معاصرة دائما ··· وكما قيل بحق : ان أصدق العبودية (لله) هو أعلى درجات الحرية (بالنسبة للانسان) !

واذا كان التقليد في أحكام الفروع بغير دليل اكتفـاء بورودها في كتب المذهب ابطال للعقل وانحراف عن المصـدر الأصيل للشرع ، فكيف بالتقليد في أصول الدين وعقيدته ؟ ··· واذا كان زيغ (الخاصة) من المتكلمين والفلاسفة

---

(١) شرح الطحاوية ص ٤٥٧ ــ ٤٦٣

محدود الأثر والنطاق ، فكيف يزيغ المتصوفة وسدنة الأضرحة وهم منتشرون بين العامة ويجتذبون الكثيرين من مختلف المستويات الاجتماعية والثقافية ؟؟ ٠٠
لا عجب أن اختص دعاة السلفية هؤلاء بالانكار ، وحرصوا على بيان حقيقة بدعهم الفكرية والسلوكية أمام الناس ، وبراءة الاسلام الصحيح من أوهامهم وأهوائهم وضلالتهم وأباطيلهم ٠٠٠

ان المؤمن يعبد الله ، وتجمع لله وتوحيده له سبحانه بالربوبية والالهية الاتجاه اليه جل وعلا بمشاعر الرجاء والخوف والمحبة معا لا ينفصل احدها عن الآخر . « ولهذا قيل : (من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجيء ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري (أى من الخوارج اذ كان أول تجمع لهم بحروراء قرب الكوفة) ، ومن عبده بالحب فهو زنديق ، **ومن عبده بالخوف والرجاء والحب فهو مؤمن موحد)** ٠ وذلك أن الحب الذى ليس معه رجاء ولا خوف يبعث النفس على اتباع هواها ، وصاحبه انما يحب فى الحقيقة نفسه وقد اتخذ الهه هواه ـ فلهذا كان زنديقا ٠ ومن هنا دخلت الملاحدة الباطنية كالقائلين بوحدة الوجود . فان هؤلاء سلوكهم عن هوى ومحبة فقط ليس معه رجاء ولا خوف ، ولهذا يتنوعون ٠٠٠ (كل حزب بما لديهم فرحون) ٠ وهم (أى بعضهم) فى الحقيقة ينكرون محبة الله ، ولكن يقولون : الحكمة هى التشبه به ، ولهذا كان ابن عربى (أبو بكر محى الدين محمد بن على بن محمد الحاتمى الطائى ٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ) يجعل الولى لله هو المتشبه به فى التخلق بأسمائه وينكر اللذة بالمشاهدة والخطاب ٠٠٠ لأنها على صلة مشاهدة وجود مطلق ولا لذة فيها ٠ ووقع بينه وبينها شهاب الدين السهروردى (أبى حفص عمر بن محمد بن عبدالله ابن عموية من شيوخ الصوفية وفقهاء الشافعية وصاحب كتاب (عوارف المعارف ٥٣٩ ـ ٦٣٢ هـ وهو غير السهروردى المقتول) منازعة : هل حين يتجلى لهم يخاطبهم ؟ فاثبت شهاب الدين ذلك كما جاءت به الآثار ، وانكر ذلك ابن عربى وقال : مسكين هذا السهروردى ، نحن نقول نه عن تجلى الذات وهو يقول عن تجلى الصفات ! » (١) ٠

---

(١) ابن تيمية ـ جامع الرسائل بتحقيق محمد رشاد سالم ـ المجموعة الأولى ص ١١٢ ـ ١١٣ ٠

ومن أصدق من الله قيلا اذ يقـول فى محكم تنزيله « فماذا بعد الحـــق الا الضلال ، فأنى تصرفون » ! (يونس /٣٢) ويجيب ابن تيمية عن حال الحلاج الحسين بن منصور (قتل سنة بضـع وثلاثمائة للهجرة) : هل كان صـــديقا أو زنديقا ؟ وهو الذى غلا وغلا فيه اناس افتتنـوا به فكريا ، منهـم معاصرون غربيون قد يكونون ارتاوا فى قولة بالحلول مسـمه من زعمهم تجســد الله فى المسيح ــ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، وارتأوا فى قتله وصلبه تكرارا لما حدث للمسيح بزعمهم ايضا ، وعلى راســـهم المستشرق الفرنسى المعروف لويس ما ســينيون ٠٠٠ يقول ابن تيمية فى جلاء وهو الذى اســـتقر فى يقينه صراط الله المستقيم لاعوج فيه ، وعقيدة السلف بيضاء نقية « ٠٠٠ لم يكن من أولياء الله المتقين ، بل كان له عبادات ورياضات ومجاهدات بعضها شيطانى وبعضها نفسانى ، وبعضها مرافق للشريعة من وجه دون وجه ــ فلبس الحــق بالباطل ٠٠٠ وذكر أبو عبد الرحمن السلمى فى (طبقات الصوفية) أن كثيرا من المشايخ ذموه وانكروا عليه ولم يعدوه من مشـــايخ الطريق واكثرهم حط عليه ، وممن ذمه وحط عليه ابو القاسم الجنيد ، ولم يقتل فى حياة الجنيد ٠٠ فان الجنيد توفى سنة ثمان وتسعين ومائتين والحلاج قتل سنة بضع وثلاثمائة ٠٠٠ وأولياء الله العالمون بحال الحلاج فليس واحد منهم يعظمه ، ولهـــذا لم يذكره القشيرى فى مشـــايخ رســـالته وان كان قد ذكر من كلامه كلمـــات استحسنها ٠٠٠ وكان عمرو بن عثمان (المكى) يذكر أنه كافر ويقـــول : كنت معه فسمع قارئا يقرأ القرآن فقال : اقدر أن أصنف مثل هذا القرآن أو نحو هذا الكلام ! وكان يظهر عند كل قوم ما يستجلبهم الى تعظيمه فيظهر عن أهل السنة أنه سنى وعند أهل الشيعة أنه شيعى ، ويلبس لباس الزهاد تارة ولباس الاجناد تارة ٠٠ فكل من خرج عن الكتاب والسنة كان له حال من مكاشفة أو تاثير فانه صاحب حال نفسانى أو شيطانى ، وان لم يكن له حال بل هو يتشبه بأصحاب الأحوال فهو صـاحب حال بهتانى ٠٠٠ ومن اعتمد على مكاشـــفته التى هى من أخبار الجن كان كذبه اكثر من صدقه ٠٠٠ وكلما بعدوا عن الله ورســوله صلى الله عليه وسلم قربوا من الشيطان ٠٠٠ ولم يميز بين الأحوال الرحمانية والنفسانية اشتبه عليه الحق بالباطل » (١) ٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٧ ــ ١٩٩ ٠ وانظر كيف ميز ابن تيمية رحمه الله واجزل مثوبته بين اصحاب الحال (النفسانى) وأصحاب الحال (الشيطانى)، فللنفس طاقة تؤدى رياضتها وتنميتها الى تقويتها كما تؤدى رياضة البدن الى قوته ، ولو لم تتبع صاحبها الشيطان أو يعبده ٠٠ ومثل هذه الرياضة وثمارها

وابن تيمية يكشف الاعتقاد فى (الحلول) أو (الاتحاد) الذى يؤمن به بعض المتصوفة ويستهوى آخرين وان لم يدركوا أبعاده ونتائجه ، وهو يهتك ستره ويجلى حقيقته لمن حجبت عنهم ، ويبرز كفر العارفين به المصرين عليه ٠ فالاتحادية « **يقولون ان وجود الخالق هو وجود الخلق** ، وحتى يصرحون بأن يغوث ويعوق ونسرا وغيرها من الأصنام هو وجودها وجود الله وأنها عبدت بحق ، وكذلك (العجل) عبد بحق ، وأن موسى انكر على هارون من نهيه عن عبادة العجل ، وأن فرعون كان صادقا فى قوله انا ربكم الأعلى ـ وأنه عين الحق ، **وأن العبد اذا دعا الله تعالى فعين الداعى عين المجيب** ، وأن العالم هويته ليس وراء العالم وجود أصلا ٠٠٠ وهم مع هذا الكفر والتعطيل الذى هو شر من قول اليهود والنصارى ، **يدعون أن هذا العلم ليس الا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء الذى يدعونه ، وأن خاتم الانبياء انما يرى هذا العالم من مشكاة خاتم الأولياء ، وأن خاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به الى خاتم الأنبياء** ، وهو فى الشرع مع موافقته له فى الظاهر مشكاة فى الباطن ، **ولا يحتاج أن يكون متبعا للرسول لا فى الظاهر ولا فى الباطن** ٠٠ ولم يعلموا أن أفضل الأولياء من هذه الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ـ وهم السالفون من الأولياء لا الآخرون ، **اذ فضل الأولياء على قدر اتباعهم للأنبياء واستفادتهم منهم علما وعملا ٠ وهؤلاء الملاحدة يدعون ان الولى يأخذ من الله بلا واسطة والنبى يأخذ بواسطة ـ وهذا جهل منهم ، فان الولى عليه أن يتبع النبى ، ويعرض كل ماله من محادثة والهام على ما جاء به النبى فان وافقه والا رده اذ ليس هو بمعصوم فيما يقضى له** ٠ وقد يلبسون على بعض الناس بدعواهم أن ولاية النبى أفضل من نبوته ، وهذا مع أنه ضلال فليس هو مقصودهم ، فهو مع ضلالهم فيما ظنوه من خاتم الأولياء ومرتبته يختلفون فى عينه بحسب الظن وما تهوى الأنفس لتنازعهم فى **تعيين القطب الفرد الغوث**

غير ما تتجه اليه العقيدة القويمة والدين الصحيح ، فالاسلام ينمى طاقات الانسان متكاملة متوازنة متساندة ، ويوجهها الوجهة الصحيحة بعبادة الله عز وجل وطاعته ، ومن ثم تستثمر هذه الطاقات وتتفق لصالح الفرد والجماعة ، ولا تكون مجرد (لذة) أو (متعة) ذهنية أو نفسية للفرد ، لا ينتفع منها فى حياته العملية ولا تساير طاقات الانسان الأخرى وتتفاعل وتتعاون معها ويشد بعضها بعضا ، كما لا ينتفع بهذه الرياضة النفسية الفردية المجتمع ولا تؤثر فيه ولا توجه لصالحه ٠

الجامع ونحو ذلك من المراتب التى يدعونها – وهى معلومة البطلان بالشرع والعقل . ثم يتنازعون فى عين الموصوف بها ۰۰۰۰ » (١) .

فهل يقبل عقل تظهر فيه نعمة الله بحقيقة فمعنى العقل الذى كرم رب العالمين الانسان به ، مثل هذا التخليط والضلال والكفر ؟؟ وهل يرفض العقل والنقل تأليه المسيح – وهو نبى مرسل عليه السلام ، ليقبل تأليه أى انسان من البشر ؟؟ ۰۰۰۰ الحق أن ذلك مرفوض من ذوى الألبـــــاب الذى يتفكرون ويعقلون ويفقهون فى كل زمان ، وهو مرفوض من العقل المعاصر بطبيعة الحال الذى يزعم لنفسه اتباع آفاق المعرفة واستبانة مناهجها وتضاعف أدواتهـــا ووسائلها ۰۰۰۰ **فعقيدة السلف رضوان الله عليهم هى المقبولة عقلا ، المتفقة مع الكتاب والسنة نقلا ۰۰۰۰ وعقيدة الســـلف الصحيحة هى الكفيلة باقناع المعاصرين مثلما اقنعت السالفين السابقين باحسان** ، وهى التى تنقض أباطيل الطرقيين القبوريين فتأتى عليها وتخلص العقول والنفوس من أغلالها وكابوسها وظلماتها ، وتكشف كيف التبس الحق بالباطل فادى الى الضلال البعيد والكفر « ۰۰۰ **طائفة من النساك والعباد يزعمون فى بعض المشـــايخ أو فيمن يقولون أنه ولى الله أنه لا يذنب** ، وربما عينوا بعض المشـــايخ وزعمـــوا أنه لم يكن لأحدهم ذنب ، **وربما قال بعضهم : النبى معصوم والولى محفوظ** ! ومن غالية هؤلاء من **يعتقد فى بعض المشـــايخ من الالهية والنبوة ما اعتقدته الغالية فى على ، ويزعم أن الشيخ يخلق ويرزق ويدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار ، ويعبده ويدعوه كما يعبد الله** ، ويقول : كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان فانى لا أريده ، ويذبح الذبائح باسمه ، ويصلى ويسجد الى جهة قبره ، ويستغيث به فى الحاجات كما يستغاث بالله تعالى ۰۰۰۰ وقد اتفق سلف الأمة وأئمتهـــا ومن اتبعهم على ما أخبر الله به فى كتابه وما ثبت عن رسوله من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التى تابوا منها ، وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم فان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، **وعصمتهم هى من أن يقـــروا على الذنوب والخطأ** ، فان من ســـوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب والخطأ من غير توبة ، والأنبياء عليهم السلام يستدركهم الله فيتوب عليهم ويبين لهم ۰۰۰۰ وهذه البدع هى وغيرها من البدع لابد أن تنافى كمال الايمان وتقدح فى بعض

(١) المصدر السابق ص ٢٠٤ – ٢٠٥ وانظر (نصوص الحكم لابن عربى فى معنى ما ورد عن خاتم الأولياء وما توالى من عبارات منقولة فى حواشى المحقق بالمرجع نفسه : رقم ٢ ص ٢٠٥ ، رقم ١ – ٢ ص ٢٠٦ ، رقم ١ ص ٢٠٧ .

حقائقه ، فان رأس الاسلام شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فلابد من اخلاص الدين لله حتى لا يكون فى القلب تأله لغير الله ، فمتى كان فى القلب تأله لغير الله فذاك شرك يقدح فى تحقيق شهادة أن لا اله الا الله ، ولابد من الشهادة بأن محمدا رسول الله وذلك يتضمن تصـــــديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر به ، ومن ذلك الايمان بأنه خاتم النبيين وأنه لا نبى بعــــده فمتى جعل لغيره نصيبا من خصائص الرسالة والنبوة كان فى ذلك نصيب من الايمان بنبى بعده ورسول بعده .... **فمن أوجب طاعة أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما يامر به وأوجب تصـــديقه فى كل ما يخبر به وأثبت عصمته أو حفظه فى كل ما يامر به ويخبر من الدين ـ فقد جعل فيه من المكافأة لرسول الله والمضاهاة له فى خصائص الرسالة بحسب ذلك** ، ســـواء جعل ذلك المضاهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة أو بعض القرابة أو بعض الأئمة والمشايخ أو الأمراء من الملوك وغيرهم » (١) .

اللهم ان هذه هى حقيقة التوحيد الذى جاء به كتابك ، وبعث به رسولك صلوات الله عليه .... وان هذا هو ما يتفق مع النقل ويرضى به العقل ... ويتقبله المعاصرون كما فهمه وارتضاه سلف هذه الأمة الصالحون « رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئـــــك حزب الله ، الا ان حزب الله هم المفلحـــون » (المجادلة / ٢٢) .

ولا يرفض التوحيد الحق كما اعتقده السلف الا ما يرفضه العقـــــل السوى .... « .... جعلوا الميت بمنزلة الاله والشيخ الحى المتعـــلق به كالنبى ، فمن الميت يطلب قضاء الحاجات وكشف الكربات . وأما الحى فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه .... يطلب من الشيخ الميت اما دفع ظلم ملك يريد أن يظلمه أو غير ذلك فيدخل السادن فيقول قد قلت للشيخ والشيخ يقول للنبى والنبى يقول لله والله قد بعث رسولا الى السلطان فلان ـ فهل هذا الا محض دين المشركين والنصارى ، وفيه من الكذب والجهل ما لا يستجيزه كل مشرك ونصرانى ولا يروج عليه ، ويأكلون من النذور ما يؤتى به الى قبورهم .... وطائفة من هؤلاء يصلون الى الميت ، ويدعو أحدهم الميت فيقول أغفـــر لى وارحمنى ـ ونحو ذلك ، ويسجد لقبره ، ومنهم من يستقبل القبر ويصلى اليه مستدبرا الكعبة ويقول : القبر قبلة الخاصة والكعبة قبلة العامة ، وهذا يقوله

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ـ ٢٧٣

من هو اكثر الناس عبادة وزهدا وهو شيخ متبوع ـ يقوله فى شيخه • وآخر من أعيان الشيوخ المتبوعين اصحاب الصدق والاجتهاد فى العبـــادة والزهد يأمر المريد أول ما يتوب أن يذهب الى قبر الشيخ فيعكف عليه عكوف اهــــل التماثيل ! وجمهور هؤلاء المشركين بالقبور يجدون عند عبادة القبور من الرقة والخشوع والدعاء وحضور القلب مالا يجد احدهم فى مساجد الله تعالى التى اذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه •••• حتى أن طائفة من أصحاب الكبائر الذين لا يتحاشون فيما يفعلونه من القبائح كان اذا رأى قبة الميت أو الهــــلال على رأس القبة خشى من فعل الفواحش ، فيخشون المدفون تحت الهلال ولا يخشون الذى خلق السموات والأرض وجعل أهلة السماء مواقيت للناس والحج ••• وهؤلاء اذا نوظروا خوفوا مناظرهم كما صنع المشركون بابراهيم عليـــــه السـلام قال تعالى (وحاجه قومه قال اتحاجونى فى الله وقد هدان ولا اخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما افلا تتذكرون • وكيف اخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليـــكم سلطانا فأى الفريقين احق بالأمن ان كنتم تعلمون • الذين آمنوا ولم يلبســــوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) •••• وهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثانا تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله تعالى وعبـــــادته ويعظمون ما اتخذوه من دون الله شفعاء ، حتى أن طوائف منهم يستخفون بحـــج البيت وبمن يحج البيت ويرون أن زيارة ائمتهم وشـيوخهم افضــل من حج البيت ، وهذا موجود فى الشيعة والمنتسبين الى السنة ، وآخرون يستخفون بالمساجد وبالصلوات الخمس فيها ويرون أن دعاء شيخهم افضل من هذا ••• ويحلف احدهم اليمين الغموس كاذبا ولا يجترىء ان يحلف بشـيخه اليمين الغموس كاذبا ، ومنهم من يقول كل رزق لا يرزقه اياه شيخه لا يريده ، ومنهم من يذبح الشاة ويقول باسم سيدى ، ومنهم من يقول ان شيخه افضـــــل من الانبيـاء والمرسلين ، ومنهم من يعتقد فيه الالهية كما يعتقده النصـــارى فى المســـيح ••• وهؤلاء يجعلون الرسل والمشايخ يدبرون العالم بالخلق والرزق وقضاء الحاجات وكشف الكربات ، وهذا ليس من دين المسلمين ، بل النصارى تقول هذا فى المسيح وحده ولم يقولوا ذلك فى ابراهيم وموسى وغيرهما من الرسل مع انهم فى غاية الجهل فى ذلك » • « ومن هؤلاء من يظن أن القبر اذا كان فى مدينة أو قرية فانهم ببركته يرزقون وينصرون ، وانه يندفع عنهم الأعداء والبلاء بسـببه ، ويقولون عمن يعظمونه : انه خفير البلد !! •••• حتى أن العـــدو

الخارج عن شريعة الاسلام لما قدم دمشق خرجوا يستغيثون بالموتى عنـد القبور التى يرجون عندها كشف ضرهم .... » !! (١) . ترى كيف انحط المسلمون فى اعتقادهم الى هذا الدرك الأسفل ؟؟

يقول أبو الحسن الندوى فى تعليل ذلك وتحليل العوامل التى أدت الى تلك الحال « كانت الجماهير المسلمة فريسة العقائد الباطلة واعمال الشرك بضغط عوامل عديدة : منها اختلاطهم بغير المسلمين ، وتاثير العجم . وتهاون العلماء . وقد أصبح الدين الخالص والتوحيد النقى وراء حجاب بعد حجاب ، ونشأ الغلو والافراط فى الاعتقاد فى الأولياء والصالحين شأن اليهود والنصارى حتى بدأت عقيدة التوسط والتقرب بالأولياء ترسخ وينطبق عليهم ما حكاه القرآن من قول مشركى العرب الأولين (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) . وننتشر هذه الفكرة الجاهلية فى أوساط المسلمين واصبح كثير من العلماء لا يرون بأسا فى الاستغاثة بغير الله والاستعانة بغير الله . واتخذت قبور الأنبياء والصالحين مساجد وتحقق الخطر الذى كان قد أنذر به النبى صلى الله عليه وسلم وشدد النهى عنه ، ولم يكن المسلمون يشعرون بأى غضاضة فى التخلق بأخلاق الذميين والكافرين واتخاذ شعائرهم وخصائصهم والحضور فى أعيادهم الدينية ومهرجاناتهم واصطناع تقاليدهم وعاداتهم . فكانت الحاجة ماسة الى عالم مجاهد يتصدى لمحاربة هذه الجاهلية المشركة والدعوة الى التوحيد الخالص بكل قوة وايضاح ... ويكون قد حصل على حقيقة التوحيد مباشرة من الكتاب والسنة وحياة الصحابة الكرام لا من كتب المتأخرين وتعامل المسلمين الجهلاء وتقاليد الزمان وعادات الناس ، ولا يبالى فى الجهر بالعقيدة الصحيحة بمعارضة الحاكمين وعدوان الناس ومخالفة العلماء ولا يخاف فى ذلك لومة لائم ... » . كما يقول أبو الحسن كانت النتيجة الحتمية لهذا الاجلال والتعظيم تزايد أهمية المشاهد بازاء المساجد ، وتتحول المشاهد الى مزارات للجهلة ومراكز لقضاء الحاجات والاستغاثة بها . فقد انتشرت هذه المشاهد والمزارات

لقد كانت العقيدة الصحيحة تستند الى القرآن والسنة ، وتؤيدها الروايات الصادقة عن فهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم باحسان ، وقد تعاقب على بيانها وايضاحها ودحض الضلالات والأباطيل علماء

---

(١) نقول عن ابن تيمية فى رده على البكرى ورده على الاخنائى .... أوردها أبو الحسن الندوى فى كتابه : الحافظ أحمد بن تيمية (وهو الجزء الثانى من كتابه : رجال الفكر والدعوة فى الاسلام) ـ دار القلم بالكويت ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ص ١٧٢ ـ ١٧٦ .

فى كل ركن من اركان العالم الاســلامى ، ووجدت آلاف مؤلفة من القبــور المزورة ، وتصدى الأمراء والسـلاطين لوقف الممتلكات والأراضى الواســعة عليها ، وأقيمت عمارات ضخمة وقباب فخمة فى امكنة هذه القبور ومشــاهد المشايخ ، كما وجدت امة باسرها من العاكفين والكناسين والخدم لهذه القبور، ونالت الرحلة اليها كل اهتمام حتى وصلت قوافل الحجاج اليها من مســافات بعيدة تفوق قوافل حجاج بيت الله احيانا فى الشـوكة والزينة ، وتحول اقبال عامة المسلمين من المساجد الى هذه المشاهد ··· ومن الأسباب التى ادت دورا هاما فى توسيع هذه الفتن وتأصــلها ان الدولة الباطنية حكمت قرونا طويلة فى رقعة تمتد من المغرب الأقصى الى مصر والشام ، وما يعرفه الجميع ان أهل الرفض والتشيع كانوا يتصلون بالمشاهد اكثر منهم بالمساجد وبالنجف وكربلاء والمشـهد اكثر منهم بالحرمين الشريفين ··· كما ان التصـوف الدخيل الذى ابتعد عن تعاليم الاسلام فى العصر الأخير سبب ازدهار المشاهد والضرائح »(١)

الدعــوة الســلفية

على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب

لكن اقتلاع ضلالات النســك الأعجمى والعقائد الباطنيــة والانحرافات الفكرية والخلقية لم يكن يغنى فيه تاليف الكتب والرســائل ، والنقاش العلمى بالدليل لمن يقرأون ويســتطيعون ان يفهموا مثل هذا النقاش والاحتجاج ··· كان يحتاج الى (دعوة) عامة و (حركة) شعبية تهز المجتمع هزا شديدا من الأعماق ، لا الى مجرد خطاب لأهل العلم ··· كان يحتاج الى حركة تستوعب القاعدة العريضة لعامة الناس ، وتبلغ قمة الحكم للاستعانة بالسلطان عـلى التصحيح وعلى مجابهة أعداء العقيدة الســوية وأولياء الضلال بين العامة والخاصة علماء وأمراء على السواء ، فلا ينبغى أنّ يترك الحكم قوة ســلبية ازاء المنكرات ، بل ربما ظاهرت اشياخ الطرق وســدنة القبور ، وعادت دعاة التوحيد الصحيح !!

---

(١)أبو الحسن الندوى : الحافظ أحمد بن تيمية ص١٢ـ١٤ ، ١٧١ـ١٧٢ و ١٧٦ ـ ١٧٧ ·

هذه الأمة قرنا بعد قرن ، وقد تقدم أن من أعلام العلماء الذين اعتبرت كتابتهم مرجعا لفهم عقيدة السلف الطحاوى الذى عاش فى القرنين الثالث والرابع الهجرى ، وشارح الطحاوية ابن أبى العز الذى عاش فى القرن الثامن ... ثم كان البلاء المبين لشيخ الاسلام ابن تيمية فى القرن الثامن (ت ٧٢٨ هـ) ، وقد قطعت كتاباته البينة وحججه الدافعة السنة المبطلين ، وفتح الله عليه البيان الفياض ما ملأ المجلدات ، ولم يترك رحمه الله فرصة الا انتهزها لبيان الحق وكشف الزيغ وتبديد الشبهة وافحام أهل الضلالة والأهواء !

ومع هذا الجهاد المحمود بالقلم والحجة والبيان ، فقد كان وضع المسلمين المتردى وعقائدهم الضالة وما يخيم على عقولهم من أوهام وأباطيل فى حاجة الى (حركة) قوية واسعة شاملة ، تعم جماهير المسلمين وتجابه خاصتهم من العلماء والحكام بمسئوليتهم ازاء الضلالات المتراكمة خلال القرون ، وتلزم السلطان بأن يزع الناس بسلطانه عن الشرك الجلى والخفى ويعزز القرآن والموعظة والمجادلة بالقلم واللسان فى مجال الدعوة الى سبيل الله واحقاق الحق وابطال الباطل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ...

دعوة ... وحركة :

وقيض الله للانتصار لعقيدة **التوحيد الصحيحة** (دعوة) و (حركة) تهز عامة الناس وعلماءهم وحكامهم جميعا على يد **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** رحمه الله (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ ـ ١٧٩١ م) ... وكانت هذه (الحركية) الواسعة العميقة الفعالة هى خصيصة الرجل وميزته بين الدعاة الى عقيدة السلف من علماء الحق ومعلمى الخير الذين طالما نادوا باصلاح العقائد والأقوال والأعمال « كم من المصلحين دعوا مثل هذه الدعوة ... فما السبب فى نجاح الدعوة الوهابية دون الأخرى ؟ السبب فى هذا ما احاط بالدعوة الوهابية من ظروف لم تتهيأ لغيرها . فقد اضطهد فى بلده (العيينة) واضطر أن يخرج منها الى (الدرعية مقر آل سعود ، وهناك عرض دعوته على أميرها محمد بن سعود (١) فقبلها ، وتعاهدا على الدفاع عن الدين الصحيح ومحاربة البدع ونشر الدعوة فى شبه جزيرة العرب باللسان عند من يقبلها وبالسيف عند من لم يقبلها ،

---

(١) توفى سنة ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م .

واذ ذاك دخلت الدعوة فى دور خطير : وهـــو اجتماع السـيف واللسـان ، وزاد الأمر خطورة نجاح الدعوة شيئا فشيئا ودخول الناس افواجا فيها واخضاع بعض الأمراء بالقـــوة لحكمها ، وكلمـا دخلـــوا بلدة أزالوا البدع وأقاموا تعاليمهم (!) حتى هددت الحركة كل جزيرة العـــرب · ولما مات الأمير ومات الشيخ تعاقد أبناء الأمير أبناء الشيخ على أن يسيروا سيرة أبويهم فى نصرة الدعوة متكاتفين ، وظلوا يعملون حتى غلبوا على مكة والمدينة وشعرت الدولة العثمانية بالخطر يهـــددها بخروج الحجاز من يدها وهـــو موطن الحرمين الشريفين ··· فأرسل السلطان محمود (١) الى محمد على فى مصر (٢) أن يسير جيوشه لمقاتلة الوهابيين ، كما أرسلت الجيوش لقاتلتهم أرسلت الدعاية من جميع الأقطار الاســـلامية للنيل من هذه الدعوة وحمل (العلماء) عليهـا حملات منكرة ··· وهكذا حدثت الحرب بالســـيف والحرب بالكلام ، كل هذا خدم الدعوة الوهابية بلغت الأنظار اليها ودورانها على كل لســان · وزاد فى شـــأنها أن الوهابيين انتصروا على حملة محمد على الأولى بقيـادة (ابنه) طوسون · ثم أعد محمد على العدة القوية الكبيرة وسار بنفسه وحاربهم بخير سلاحه فانتصر عليهم وأتم النصر ابنه ابراهيم ··· ولكن بقيت الدعوة » (٣)

هذا ما قرره باحث مسـلم ، يبدو تجاوبه مع دعـوة الشـــيخ محمـد ابن عبد الوهاب وحركته هو أحمد أمين (ت ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م) ·

ومن قبله قال شكيب أرســلان (ت ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٦ م) عن الشـــيخ ودعوته : « ··· فصحت عزيمته على القيام بدعوة الاصلاح ، فقضى ســـنين عديدة راحلا من بلاد الى بلاد فى شبه الجزيرة ، فبشر بالدعوة موقظا النفوس، حتى استطاع بعد جهاد طويل أن يجعل محمد بن ســعود أكبر أمراء نجد يقبل الدعوة ويدخل فيها فاكتسب بذلك مكانه ومنزله وقوة حربية لا يســتهان بها ، فاستفاد من ذلك استفادة جليلة ·· فتكونت على التوالى وحدة دينية سياسية فى جميع الصحراء العربية شبيهة بتلك الوحدة التى انشاها صاحب الرسالة ، وفى الواقع فان النهج الذى نهجه ابن عبد الوهاب (وحليفة الامام محمد بن سعود)

---

(٢) هو الســلطان محمود الثانى من ســـلاطين آل عثمان وقد حكم بين سنتى ١٢٢٣ ـ ١٢٥٥ هـ / ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ م ·

(٢) حكم مصر بين العامين ١٢٢٠ ـ ١٢٦٥ هـ / ١٨٠٥ ـ ١٨٤٩ م

(٣) احمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ـ القاهرة ســـنة ١٩٦٥ م ص ١٨ ـ ١٩ ··

ليشبه شـــبها كبيرا ذاك الذى نهجه الخلفاء الراشدون كأبى بكر وعمر ٠٠٠ واقتضى الوهابيون آثار خلافة الراشدين ، وعلى ما كان فى يد ابن سعود من القوى الحربية العظيمة ، فان ذلك ما كان ليصرفه عن أن يكـــون على الدوام نازلا على رأى الجماعة وشـوراها ٠٠٠ وكانت حكومتها مكتنية عادلة فانقطع التعدى وانتشر الأمن ٠٠٠ وعكف على العلم والتهـــذيب فكان فى كل واحـة مدرسة وفى كل قبيلة بدوية عدد من المعلمين » ٠ ثم يذكر ارسـلان ما كان من دخول الدعوة السـلفية ودولتها مكة والمدينة ثم يقـول ٠٠٠ « كان يخيل الى العالم أن الوهابيين متدفقون على الشرق تدفقا وصانعون ما شـــاءه الله من الاصلاح ٠٠٠ » (١) ٠

أما الكاتب السعودى المعاصر عبد الرحمن بن سليمان الروشـــيد (٢) فيقول : « ليس الامام الشيخ فيلسوفا قابعا فى غرفة مكتبه ، أو صوفيا منزويا فى خلوته ، أو كاتبا نظريا يعتصر شـوارد أفكاره ويستوحى سـوانح أخيلته المنطلقة ليمتع نفسه بتحقيق رغائبه المادية أو أشـــواقه الروحية ، وانما كان رائد منهج وخطه عمل مترجمة الى عقد جلسات وندوات للحديث والمناقشـــة حول المعتقد وأحوال المجتمع ، يصـحب ذلك امر بالمعـروف ونهى عن المنكـر ودعوة دائبة الى الله بالحسنى تتمثل فى بعث رسائل وقورة مهذبة الى العلماء والزعماء والرؤسـاء ٠٠٠ » ٠ والكاتب ينقل عن المؤرخ النصرانى المعاصر ـ اللبنانى الأصل الأمريكى الجنســية ـ فيليب حتى قوله : « ان تاريخ الجزيرة العربية الحديث يبتـدىء منذ منتصـف القرن الثانى عشر الهجرى حين ظهور (حركة الموحدين) فى الجزيرة العربية وحين شاركت قوة الدين سلطة الحكم » ٠

ويذكر المؤرخ اليهودى البريطانى المعاصر برنارد لويس أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب للأمير محمد بن ســعود واقتناعه بها وتحالف الرجلين على العمـل بهـذه الدعوة قد أعطاها « محـورا ســياسيا حربيـا » وهكذا استطاعت أن تغلب على معظم أرجاء شـــبه الجزيرة ـ ويسمى المؤلف الذى لا يتجاوز مع تلك الدعوة قط انتصارها فتحا كما يسمى انتصارها طائفة أو فرقة دينية Sect ، كما استطاعت كذلك كما يقول لويس أن تنتزع مكة والمدينة

---

(١) حاضر العالم الاسلامى : تأليف لوثروب ستودارد وترجمة عجـاج نويهض وتعليق شكيب أرســلان ـ دار الفكر فى بيروت ـ ط ٤ ـ ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٣ م ـ جـ ١ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ ٠

(٢) عبد الرحمن بن سليمان الروشيد : الوهابية حركة الفـكر والدولة الاسلامية ٠ القاهرة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ٠

من حكم الاشراف الذين كانوا يعترفون بالسلطة العثمانية ، بل وصلت الى حد تهديد الولايات العثمانية فى الشام والعراق (١) ٠

* * *

وهكذا نميز الشيخ ابن عبد الوهاب بحركته الدائقة الدافعة ٠٠٠ تنقل مستمر بين انحاء شبه الجزيرة (أو شبه القارة) العربية ، واتصال دائب بعامتها وخاصتها ، وابلاغ للدعوة بالحديث والكتابة ، ثم مطالبة لكل من يتبع الدعوة السلفية أن يدعو غيره ، وتأكيد لمسئولية الأمراء والعلماء حتى اذا ما اجتمع معه على العروة الوثقى الأمير محمد بن سعود قامت تلك (الدولة) المحدودة القوة سياسيا وعسكريا الغنية بالايمان المنطلقة فى الحركة واخذت على عاتقها الفتى الجهاد فى سبيل الله لأجل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠٠٠ استمع الى الشيخ فى باب من كتابه « مفيد المستفيد فى كفر تارك التوحيد » يسميه « باب وجوب عداوة أعداء الله من الكفار والمرتدين والمنافقين » ، فهو لا يكتفى رحمه الله بالموقف السلبى للرفض العقلى بل ينفث فى النفس العاطفة الايجابية التى تدفع الى العمل الايجابى ٠ وهو يصدر بابه بما يصوغ هذا الموقف الايجابى فى روح المسلم من كتاب الله ، فيورد قوله تعالى : « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، انكم اذن مثلهم » (النساء / ١٤٠) ، وقوله تعالى « ومن يتولهم منكم فانه منهم » (المائدة / ٥١) ، وقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » الى قوله تعالى « كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده » (الممتحنة / ١ـ٤) ، وقوله تعالى « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم» (المجادلة/٢٢)٠ ثم ينقل عن الحافظ محمد بن وضاح ما كتب به أسد بن موسى الى أسد بن الفرات (٢) « اعلم يا أخى أن ما حملنى على الكتاب اليك ما ذكر أهل بلدك من صالح ما أعطاك الله من انصافك الناس ، وحسن حالك مما أظهرت من

---

(١) Bernard Lewis : The Arabs in History, Harper Torchbooks, New York 1967, P. 161.

● وانظر شكيب أرسلان فى « حاضر العالم الاسلامى » جـ ١ ص ٢٦٢ =

= (٢) الحافظ محمد بن وضاح بن بزيع القرطبى ابو عبد الله (ت ٢٨٦هـ/ ٨٩٨ م) محدث فقيه رحل الى المشرق وأخذ عن يحيى بن معين وغيره وعاد للأندلس فحدث بها مدة طويلة ، ومن تصانيفه (البدع والنهى عنها) ، وعلق =

السنة وعيبك لأهل البدع وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم فقمعهم الله بك وشد بك ظهر أهل السنة وقواك عليهم (أى أهل البدع) باظهار عيبهم فاذلهم الله بيدك وصاروا ببدعهم مستترين ، فابشر يا أخى بثواب الله واعتد به من أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد واين تقع هذه الأعمال من اقامة كتاب الله تعالى واحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحيا شيئا من سنتى كنت وهو فى الجنة كهاتين. وضم بين أصبعيه ...» . فالشيخ ابن عبد الوهاب يريد الا يقنع المؤمن برفض البدع فرديا وسلبيا ، بل لابد أن يكون له موقف ايجابى اجتماعى فى (قمع) أهل البدع ومؤازرة أهل السنة بحيث يظهر أهل الحق ويستتر أهل الباطل ـ مثلما فعل أسد بن الفرات الذى أبرز الحافظ بن وضاح خبره وأورده الشيخ ابن عبدالوهاب ليكون قدوة للناس ويوضح لهم ما يطلب منهم من موقف عملى ايجابى لاينحصر قط فى الرفض العقلى ، وهذا ما تبينه الرسالة الى أسد بن الفرات أجلى بيان. حيث يقول كاتبها : « فاغتنم ذلك وادع الى السنة حتى يكون لك فى ذلك الفة وجماعة يقومون مقامك ان حدث بك حدث فيكونون ائمة بعدك فيكون لك ثواب ذلك يوم القيامة ـ كما جاء فى الأثر . فاعمل على بصيرة ونية وحسبة فيرد الله بك المبتدع المفتون الزائغ الحائر فتكون خلفا من نبيك صلى الله عليه وسلم فانك لن تلقى الله بعمل يشبهه ، واياك أن يكون لك من أهل البدع أخ أو جليس او صاحب فانه جاء فى الأثر : من جالس صاحب بدعة نزعت منه العصمة ووكل الى نفسه ومن مشى الى صاحب بدعة مشى فى هدم الاسلام ... وقد وقعت اللعنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل البدع وأن الله لا يقبل منهم صرفا ولا عدلا ولا فريضة ولا تطوعا وكلما ازدادوا اجتهادا

علامة تونس حسن حسنى عبد الوهاب رحمه الله على مخطوطة من تأليف محمد بن وضاح وهى (النظر الى الله تعالى) وأنه روى قراءة ورش عن عبد الصمد بن القاسم فغدت مقبولة بالأندلس ، وأنه بابن وضاح وبقى بن مخلد صارت الأندلس دار حديث وهو غير على بن محمد بن وضاح الشهراباتى. أبو الحسن كمال الدين نزيل بغداد (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) ومن تصانيفه الأخير (الدليل الواضح فى اقتفاء نهج السلف الصالح (والرد على أهل الالحاد) ، وأسد بن الفرات قاضى القيروان ، المجاهد فاتح صقلية (ت٢١٣هـ/ ٨٢٨ م) صاحب الأسدية) المروية عن الامام مالك بن انس وفيه من اختياره وتعديله ما آثر معه المالكية (المدونة) برواية سحنون «عبد السلام» (ت ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م) وأسد بن موسى بن ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الاموى من حفاظ الحديث ويلقب بأسد السنة اقام بمصر (ت ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) .

وصوما وصلاة ازدادوا من الله بعدا • فارفض مجالسهم وأذلهم وأبعدهم كما أبعدهم الله وأذلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأئمة الهدى من بعده » •

فالشيخ يرغب اذن فيما يرغب فيه الكاتب الى أسد بن الفرات وهو أسد السنة أسد بن موسى من أن يكون للداعية الى السنة « ألفة وجماعة يقومون مقامه ان حدث به حدث فيكونون أئمة بعده » ، فهو يهدف أن تقوم بدعوته « حركة جماعية » ولا تكون مجرد بيان علمي نظرى ••• وهذا ما ميز الشيخ ابن عبد الوهاب فى دعوته السلفية ، ولهذا كتب الله له من التوفيق وامتداد الأثر مالم يمكن لغيره وينقل الشيخ عن بن المبارك (١) ما رواه عن ابن مسعود « ان لله عند كل بدعة كيد بها الاسلام وليا من أوليائه يذب عنه وينطق بعلامتها فاغتنموا حضور تلك المواطن وتوكلوا على الله » •

وهكذا يلح الشيخ على وجوب اتخاذ المؤمن موقفا ايجابيا من «الذب» عن الحق وفضح « علامة » الباطل علانية « والنطق » بذلك على الملأ فى المواطن التى يجب فيها ذلك ، متوكلا على الله وحده فيما يتوقع أن يلقاه فى تلك المواطن »• كذلك روى ابن المبارك عن بعض السلف قال : «لأن أرد رجلا عن رأى سيء أحب الى من اعتكاف شهر » • وروى الأوزاعى عن بعض أهل العلم قولهم « لا يقبل الله من ذى بدعة صلاة ولا صدقة ولا صياما ولا جهادا ولا حجا ولا صرفا ولا عدلا ، وكانت أسلافكم تشتد عليهم ألسنتهم وتشمئز منهم قلوبهم ويحذرون الناس بدعتهم ، ولو كانوا مستترين ببدعتهم دون الناس ما كان لأحد أن يهتك عنهم سترا ولا يظهر منهم عورة الله أولى بالأخذ بها أو بالتوبه عليها ، فأما اذا جاهروا بها فنشر العلم حياة والبلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة يعتصم بها على مصر ملحد » • ثم ينقل الشيخ عن ابن وضاح باسناده عن أبى أمية قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت يا أبا ثعلبة كيف تصنع فى هذه الآية « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم (المائدة / ١٠٥) قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا ،

---

(١) عبد الله بن مبارك ــ أبو عبد الرحمن راوية زاهد « صنف كثيرا كثيرة حملها عنه قوم وكتبها الناس عنهم وقال الشعر فى الزهد والحث على الجهاد ، وقدم العراق والحجاز والشام ومصر واليمن وسمع علما كثيرا ، وكان ثقة مأمونا أماما حجة كثير الحديث ومات بهيت منصرفا من الغزو سنة ١٨١ هـ وله ثلاث وستون سنة (طبقات بن سعد) (دار صادر بيروت) ــ م ٧ ص ٣٧٢ •

سألت عنها رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعـا ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام ، فان من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله ، قيل يا رسول الله اجر خمسين منهم قال أجر خمسين منكم» وروى باسناده عن عبد الله بن عمرو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «طوبى للغرباء ــ ثلاثا ، قالوا يا رسول الله ومن الغرباء ؟ قال : ناس صالحون قليل فى اناس سوء كثير من يبغضهم اكثر مما يحبهم » وعن محمد بن سعيد باسناده عن المعافرى أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال « طوبى للغرباء الذين يتمسكون بكتاب الله حين ينكر ويعلمون بالسنة حين تطفأ » ۰ فلا عجب أن قال ابن القيم (ت ٧٥١هـ) رحمه الله (الاسلام فى زماننا اغرب منه أول ظهوره» ۰ ثم يختم الشيخ محمد بن عبدالوهاب الباب الذى عقده «فى وجوب عداوة أعداء الله» بنقل رسالة للشيخ تقى الدين ابى العباس أحمد بن تيمية « كتبها وهو فى السجن الى بعض اخوانه لما ارسلوا اليه يشيرون عليه بالرفق بخصـومه ليتخلص من السـجن » وكان مما جاء فيها « أما بعد فقد وصلت الورقة التى فيها رسالة الشيخين الناسكين القدوتين أيدهما الله وسـائر الاخوان بروح منه وكتب فى قلوبهم الايمان وأدخلهم مدخل صـدق وأخرجهم مخرج صـدق وجعل لهم من لدنه ما ينصر به من السـلطان : سـلطان العالم والحجة بالبيان والبرهان وسلطان القدرة والنصرة باللسان والأعوان ، وجعلهم من أوليائه المتقين وحزبه الغالبين لمن نوا أهم من الأقران ، ومن الأئمة المتقين الذين جمعوا بين الصـبر والايقان ، والله محقق ذلك ومنجز وعده فى السر والاعلان ، ومنتقم من حزب الشيطان لعباد الرحمن ــ لكن بما اقتضت حكمته ومضت به سنته من الابتلاء والامتحان الذى يميز الله به أهل الصـدق والايمان من أهل النفاق والبهتان ، اذ قد دل كتابه على انه لابد من الفتنة لكل من ادعى الايمـان والعقـوبة لذوى السيئات والطغيان فقال تعالى : (الم ، أحسـب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ۰ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صـدقوا وليعلمن الكاذبين ۰ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسـبقونا ، سـاء ما يحكمون) ، فانكر سبحانه على أن أهل السيئات يفوتون الطالب الغالب وأن مدعى الايمان يتركون بلا فتنة تميز بين الصـادق والكاذب وأخبر فى كتابه أن الصدق فى الايمان لايكون الا فى الجهاد فى سبيله فقال تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسـلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ، وان تطيعوا الله

ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم • انما المؤمنون الذين امنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) • وأخبر سبحانه وتعالى بخسران المنقلب على وجهه عند الفتنة التى يعبد الله فيها على حرف ••• فقال تعالى : (من الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) وقال تعالى (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) •••• وأخبر سبحانه أنه عند وجود المرتدين فلابد من وجود المحبين المحبوبين المجاهدين فقال تعالى (يأيها الذين امنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله لا يخافون لومة لائم) وهؤلاء هم الشاكرون لنعمة الايمان الصابرون على الامتحان ••• فاذا أنعم الله على الانسان بالصبر والشكر كان جميع ما يقضى له من القضاء خيرا كما قال النبى صلى الله عليه وسلم (لا يقضى الله للمؤمن من قضاء الا كان خيرا له ان أصابته سراء فشكر كان خير له وان أصابته ضراء فصبر كان خيرا له) والصبار الشكور هو المؤمن الذى ذكر الله فى غير موضع من كتابه ، ومن لم ينعم الله عليه بالصبر والشكر فهو بشر حال ، كل واحد من السراء والضراء فى حقه يقضى به الى قبيح المال ، **فكيف اذا كان ذلك فى الأمور العظيمة التى هى من محن الأنبياء والصديقين ، وفيها تثبيت اصول الدين وحفظ الايمان والقرآن من كيد أهل النفاق والالحاد والبهتان** • فالحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله . والله المسئول أن يثبتكم وسائر المؤمنين بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويتم نعمه عليكم الظاهرة والباطنة وينصر دينه وكتابه ورسوله وعباده المؤمنين على الكفرين **الذين أمرنا بجهادهم والاغلاظ عليهم فى كتابه المبين » (١) •**

---

(١) « باب فى وجوب عداوة أعداء الله من الكفار والمرتدين والمنافقين » من كتاب «مفيد المستفيد فى كفر تارك التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ تحقيق اسماعيل بن محمد الانصارى ورد فى القسم الأول (العقيدة والآداب الاسلامية) من مؤلفات الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب ـ نشر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ص ٣١٢ ـ ٣٢٩ •

والنقول التى ينقلها الشيخ محمد بن عبد الوهاب تدل على علم وفطنة ، وهى قوية فى دلالتها وحجتها على ما يريد ذكره وبيـــانه ٠٠٠ فهـو يقع على ماينطق بفكره ، ويبدو وكان حججه وبراهينه بين أطراف أنامله يديرها ويستثمرها كيف يشاء ٠٠٠٠ وعمدته وذخيرته الكتاب والسـنة وأقوال السلف الصالح ، استوعبتها ذاكرته وبلغت أعماق قلبه ، فهو يقتبس منها ما يلائم المقام ويقع على القضية المعروضة وقوع الحافر على الحافر ٠٠٠ وأحيانا تأتى رسـالته كلها مقصورة على سرد آيات القرآن وأحاديث الرسول صلوات الله عليه مع ايضاح أو تعليق كلماته معدودة محكمة !! (١) ٠

والشيخ فى نقوله كلها يختار ما يعين على صياغة (الموقف الايجابى) الذى يريده لكل من يؤمن بالدعوة السلفية ٠٠ فليس فى قضية الايمان والفكر مجال لموارية أو مداهنة أو سلبية ٠٠٠ والباطل يصر ويتجمع وينتفخ ويستعلى، فهل يمكن أن يجابه ويغالب بالتردد والتفرق والاستخذاء ؟؟ ٠٠٠ أليس التوكل على الله والاعتزاز به والرجاء فيه والخوف منه وافراده سـبحانه بذلك هى حقيقة الايمان والتوحيد ، وأليس الاجتماع على الحق والجهاد فى سـبيله من فرائض هذا الدين ؟؟ ٠٠٠ يقـول الشـيخ محمد بن عبـد الوهاب فى « ثلاثة الأصـول » : « اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسـائل : **الأولى : العلم ــ وهو معرفة الله ونبيه ودين الاسـلام بالأدلة ، الثانية : العمل به ، الثالثة : الدعوة اليه ، الرابعة : الصبر على الأذى فيه** ٠ والدليل قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم : والعصر ان الانسان لفى خسر ٠ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ، قال الشافعى رحمه الله تعالى : لو ما أنزل حجة على خلقه الا هذه السورة لكفتهم (٢) ٠

متبع غير مبتدع :

واذا كان محمـد عبد الوهاب متميزا فى (حركيته) التى كانت (نهجه) فى العمـل للدعوة السـلفية ، فانه فى (موضـوع) هذه الدعوة سـلفى

---

(١) أنظر مثلا فى المصـدر السابق أبواب « كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العباد » وهو أول ما جاء فى ذلك المجلد تحقيق عبد العزيز السعيد ، أحمد كحيل ، لبيب السعيد ٠

(٢) رسالة « ثلاث أصول » بتحقيق ناصر الطـريم وسـعود البشـر وعبد الكريم اللاحم ــ وردت فى القسـم الأول من مؤلفـات الشـيخ محمد ابن عبد الوهاب (العقيدة والآداب الاسلامية) ص ١٨٣ ــ ١٩٦ ٠

متبع غير مبتدع ، لا يفتأ يلح على ما بينه متبعو السلف الصالح جيلا بعد جيل، ويقتضى اثر السابقين باحسان فى معالجة قضايا الصفات وتوحيد الالهية الربوبية وعبادة الله وحده وفق ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم وانكار البدع وما الى ذلك ، وكتاباته من هذه الوجهة انما تؤكد ما سبق أن قرره الطحاوى وشارح (الطحاوية) من بعده ثم ابن تيمية وابن القيم وغيرهم رحمهم الله وأجزل مثوبتهم ... والشيخ ابن عبد الوهاب يؤكد هذا فى صراحة قاطعة دون أية مواربة ، لأن اعتقاد السلف ماخوذ عن السلف من صحابة وتابعين وتابعيهم باحسان رضى الله عنهم ، وأساس فهمهم جميعا الكتاب والسنة ، فالداعون الى عقيدة السلف هم دائما متبعون لا مبتدعون ، بل هم لا ينفكون عن الانكار على كل ابتداع فى هذا المجال ... يقول الشيخ محمد ابن عبد الوهاب فى رسالته الى السويدى عالم أهل العراق (عبد الرحمن ابن عبد الله) : « **وأخبرك انى ولله الحمد متبع ولست مبتدع ، عقيدتى ودينى الذى ادين الله به مذهب أهل السنة والجماعة الذى عليه ائمة المسلمين مثل الائمة الأربعة واتباعهم الى يوم القيامة** . لكنى بينت للناس اخلاص الدين لله ، ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأموات من الصالحين وغيرهم وعن اشراكهم فيما يعبد الله به من الذبح والنذور والتوكل والسجود وغير ذلك مما هو حق الله الذى لا يشركه فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل ، وهو الذى دعت اليه الرسل من أولهم الى آخرهم وهو الذى عليه أهل السنة والجماعة ... » (١) ويقول فى رسالته الى علماء مكة بشأن هدم الأبنية التى بنيت على قبور الصالحين :

«.. **فنحن ولله الحمد متبعون غير مبتدعين على مذهب الامام احمد بن حنبل** .. ومن البهتان الذى اشاعه الأعداء أنى أدعى الاجتهاد ولا اتبع الأئمة ... وتعلمون اعزكم الله أن فى كثير من البلدان العمل بهاتين المسألتين ـ هدم **البناء على القبور والأمر بترك دعوة الصالحين** ـ تكبر على العامة ... وهذه كتب الحنابلة عندكم بمكة شرفها الله مثل (الاقناع) (وغاية المنتهى) (والانصاف) اللاتى عليها اعتماد المتاخرين وهى عند الحنابلة (كالتحفة) و (النهاية) عند الشافعية ، وهم ذكروا فى باب الجنائز هدم البناء على القبور واستدلوا عليه بما فى صحيح مسلم عن على (بن أبى طالب) رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه بهدم القبور وأنه هدمها ، واستدلوا على وجوب اخلاص الدعوة لله والنهى عما اشتهر فى زمنهم من دعاء الأموات

---

(١) القسم الخامس من مؤلفات الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب نشر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ تحقيق صالح الفوزان ومحمد بن صالح العليقى ص ٣٦ .

بأدلة كثيرة ، وبعضهم يحكى الاجماع على ذلك فان كانت المسألة اجماعا فلا كلام ، وان كانت مسالة اجتهاد فمعلومكم انه لا انكار فى مسائل الاجتهاد. فمن عمل بمذهبه فى محل ولايته لا ينكر عليه » (١) ٠

وكتابات الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى بيان العقيدة الصحيحة كما جاءت فى الكتاب والسنة وكما فهمها السلف الصالح رضوان الله عليهم من كتب ورسائل عامة وخاصة ، تؤكد ما قد بينته سلف الشيخ من هذه العقيدة مثل ما ذكره شرح الطحاوية أو أوضحته كتابات ابن تيمية وما الى ذلك ٠ يقول مثلا فى « القواعد الأربع » : « اعلم ارشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة ابراهيم أن تعبد الله وحده مخلصا له الدين كما قال تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) ٠ فاذا عرفت ان الله خلقك لعبادته فاعلم ان العبادة لا تسمى عبادة الا مع التوحيد كما ان الصلاة لا تسمى صلاة الا مع الطهارة فاذا دخل الشرك فى العبادة فسدت كالحدث اذا دخل فى الطهارة ٠ فاذا عرفت أن الشرك اذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين فى النار عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك ، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة. وهى الشرك بالله الذى قال الله تعالى فيه (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله فى كتابه القاعدة الأولى : أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرون بأن الله تعالى هو الخالق المدبر وان ذلك لم يدخلهم فى الاسلام ، والدليل قوله. تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون) ٠ القاعدة الثانية : انهم يقولون ما دعوناهم وتوجهنا اليهم الا لطلب القربة والشفاعة ٠٠٠ والشفاعة شفاعتان : شفاعة منفية وشفاعة مثبتة ، الشفاعة المنفية ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه الا الله ، والشفاعة المثبتة هى التى تطلب من الله والشافع مكرم بالشفاعة والمشفوع له من رضى الله قوله وعمله بعد الاذن كما قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) ٠ والقاعدة الثالثة : ان النبى صلى الله عليه وسلم ظهر على اناس متفرقين فى عبادتهم : منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين ومنهم من يعبد الشمس ، والقمر وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم. يفرق بينهم ٠٠٠ القاعدة الرابعة : أن مشركى زماننا اغلظ شركا من الأولين ،

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠ ــ ٤١ ٠

لأن الأولين يشركون فى الرخاء ويخلصون فى الشــدة ومشركو زماننا شركهم دائم فى الرخاء والشدة » (١) · والشيخ يستدل فى كل قاعدة بالكتاب والسنة كالعهد به دائما · ونقوله دائما تصيب المحز وتطبق المفصل ، فهو ينقل مثلا عن قتادة بسند صحيح الى عبدالله بن عباس فى تفسير قوله تعالى « فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ··· » (الآية ١٩٠ من ســورة الأعراف)، « شركاء فى طاعته ولم يكن فى عبادته » (٢) ·

وقد اوضح الشيخ ذلك أيضا فى « مســـائل الجاهلية » ، ومما جاء فيه عن أهل الجاهلية « ··· ان دينهم مبنى على اصول اعظمها التقليد فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار اولهم وآخرهم كما قال تعالى (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها : انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) ··· وان من أكبر قواعدهم الاغترار بالأكثر ويحتجون به على صحة الشىء ويســتدلون على بطلان الشىء بغربته وقلة أهله ، فأتاهم بضـــد ذلك وأوضحه فى غير موضع من القرآن ··· (ومن مســائلهم) الاســتدلال على بطلان الشىء بأنه لم يتبعه الا الضعفاء ··· والاقتداء بفسقة العلماء والعباد ··· والغلو فى العلماء والصالحين ··· والتعبد بتحريم الحلال كما تعبــدوا بالشرك والتعبد باتخاذ الأحبار والرهبان ، والالحاد فى الصــفات ، والالحاد فى الأسماء ، والتعطيل ، ونسبه النقائض اليه ســـبحانه ، والشرك فى الملك كقول المجوس ، وجحود القدر ، والاحتجاج على الله به ، ومعارضة شرع الله بقدره ، وسبة الدهر ، والتعصب للمذهب ، وتعبدهم بترك الطيبات من الرزق ، وتعبدهم بترك زينة الله ··· الخ » (٣) ·

رسائل الشيخ للعامة والخاصة :

على ان للشيخ محمد بن عبد الوهاب طابعه فى بيانه وأســلوبه ··· الا ان طبيعته (الحركية) تبدوا فى كتاباته كلها ··· تبدو فى ذلك العــدد الوافر

---

(١) رسالة (القواعد الأربع) تحقيق عبد العزيز السعيد وأحمد كحيل ولبيب السعيد ـ وردت فى القســـم الأول من مؤلفات الشــــيخ الامام محمد ابن عبد الوهاب نشر جامعة الامام محمد بن مسعود الاسلامية ص ١٩٩ـ٢٠٢

(٢) الباب ٤٩ من (كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد) تحقيق عبد العزيز السعيد وأحمد كحيل ولبيب السعيد ـ وردت فى المصدر الســـابق نفســـه ص ١٢٢ ·

(٣) « مسائل الجاهلية » تحقيق اسماعيل بن محمـــد الأنصارى ـ وردت فى المصدر السابق ص ٣٣٣ ـ ٣٥٢ ·

من رسائله العامة والخاصة التى توضح عقيدة السلف ... فالشيخ لا يهدأ ولا يفتر عن الكتابة والبيان والبلاغ ، ولا يكتفى بالكتب بل يكتب الرسائل المبينة لعامة الناس ، ويكتب الرسائل الخاصة الى اناس بذواتهم من المؤمنين بدعوته او الى علماء الاسلام او ذوى الرياسة والوجاهة أو غير المقتنعين بالدعوة يبين فيها عقيدة السلف ويرد على الشبهات والاعتراضات ... وبعض هذه الرسالة توضح العقيدة للعامة وتيسر عليهم معرفتها وتخاطبهم بما يفهمون « فاذا قيل لك ايش الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، فقل توحيد الربوبية : فعل الرب مثل الخلق والرزق والاحياء والاماته وانزال المطر وانبات النبات وتدبير الأمور ، وتوحيد الالهية : فعليك أيها العبد مثل الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والانابة والرغبة والرهبة والنذر والاستغاثة وغير ذلك من انواع العبادة » (١) .

الجهاد :

ومن طبيعة الشيخ (الحركية) ان نجد رسائله تتحدث عن (القتال) فى سبيل الايمان الصحيح والحق ومجاهدة الباطل بالسيف وتبين الحجة فى ذلك . فهو يذكر مثلا فى (مسائل الجاهلية) : « وقال تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وهذه اعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتى بالاخلاص واخبر انه دين الله الذى أرسل به جميع الرسل وانه لا يقبل من الأعمال الا الخالص .. وهذه المسألة التى تفرق الناس لأجلها بين مسلم وكافر وعندها وقعت العداوة ولأجلها شرع الجهاد كما قال تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (٢) . ويقول فى رسالته الى مطوع ثرمداء : « ... قولك : ان المشركين وانما قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن توحيد الألوهية ، ولم يدخل الرجل فى الاسلام بتوحيد الربوبية الا اذا انضم اليه توحيد الألوهية — فهذا كلام من أحسن الكلام وابينة تفصيلا » (٣) . كما يكتب أيضا الى أحد مطاوعه

---

(١) « رسالة تلقين أصول العقيدة للعامة » ضمن « مجموعة رسائل فى التوحيد والايمان » تحقيق اسماعيل بن محمد الأنصارى — وقد وردت فى المصدر السابق ص ٣٧٠ — ٣٧٢ .

(٢) « مسائل الجاهلية » فى المصدر السابق ص ٣٣٤

(٣) القسم الخامس من مؤلفات الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب (الرسائل الشخصية) نشر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ص ١٩ .

ومداء « ٠٠٠ اعلم انى عرفت باربع مسائل : بيان التوحيد ، بيان الشرك ولو كان فى كلام من ينتسب الى العلم ، تكفير من بان له أن التوحيد هو دين الله ورسوله ثم ابغضه ونفر الناس عنه وجاهد من صدق الرسول فيه ، والأمر بقتال هؤلاء خاصة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ٠ فلما اشتهر عن هؤلاء الأربع صدقنى من يدعى انه من العلماء فى جميع البلدان فى التوحيد وفى نفى الشرك وردوا على التكفير والقتال ٠٠٠ فنقول من المعلوم عند الخاص والعام ما عليه البوادى أو اكثرهم ٠٠٠ (وهم) متبعون ما أحدث اباؤهم مما يسمونه الحق ويفضلونه على شريعة الله فان كان للوضوء ثمانية نواقض ففيهم من نواقض الاسلام اكثر من المائة ناقض ، فلما بينت ما صرحت به آيات التنزيل وعلمه الرسول امته واجمع عليه العلماء (أن) من ٠٠٠ سب الشرع أو سب الأذان اذا سمعه او فضل فراضة الطاغوت على حكم الله او سب من زعم ان المرأة ترث أو أن الانسان لا يؤخذ فى القتل بجرية ابيه وابنه ـ انه كافر مرتد ، قال علماؤكم معلوم ان هذا حال البوادى لاتنكره ولكن يقولون لا اله الا الله وهى تحميم من الكفر ولو فعلوا كل ذلك ٠٠٠ اذا كانوا اكثر من عشرين سنة يقرون ليلا ونهارا سرا وجهارا أن التوحيد الذى الذى اظهر هذا الرجل هو دين الله ورسوله لكن الناس لا يعيطوننا وان الذى انكره هو الشرك وهو صادق فى انكاره ولكن لو يسلم من التكفير والقتال كان على حق ، هذا كلامهم على رءوس الأشهاد مع هذا يعادون التوحيد ومن مال اليه العداوة التى تعرف ولو لم يكفر ويقاتل ، وينصرون الشرك نصره الذى تعرف مع اقرارهم بأنه شرك ٠٠٠ واغروهم عن صدق النبى صلى الله عليه وسلم واحلوا دماءنا واموالنا حتى جرى على الناس ما تعرف مع ان كثيرا منهم لم يكفر ولم يقاتل ٠ وقررتم ان من خالف الرسول فى معشار هذا ولو بكلمة او عقيدة قلب او فعل فهو كافر ، فكيف بمن جاهد بنفسه وماله واهله ومن اطاعه فى عداوة التوحيد وتقرير الشرك مع اقراره بمعرفة ما جاء به الرسول ، فان لم تكفروا هؤلاء ومن اتبعهم ممن عرف ان التوحيد حق وأن هذه الشرك فانتم كمن افتى بانتقاض وضوء من بزغ منه مثل راس الابرة من البول وزعم ان من يتغوط ليلا ونهارا وافتى للناس ان ذلك لا ينتقض ٠٠٠ » (١) وقد

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤ـ٢٧ وانظر ايضا ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ٠

سبق ايراد ما ذكره الشـــيخ فى رسالته الى علماء مكة عن هدم البناء على القبور والأمر بترك دعوة الصالحين وكبر ذلك على العامة ، وبيانه الحجة على هدم ما بنى على القبر « وبعضهم يحكى الاجماع فان كانت المســـألة اجماعا فلا كلام ، وان كانت مسألة اجتهاد فمعلومكم انه لا انكار فى مســائل الاجتهاد فمن عمل بمذهبه فى محل ولايته لا ينكر عليه ... » (١) . والشيخ يفرق رحمه الله بين اقامة الحجة باعتبارها شرطا لتكفير المعاند ومجاهدته وبين تسـليم من بلغته الحجة بها « وقيام الحجة نوع وبلوغها نوع وقد قامت عليهم » (٢).

والشيخ محمد بن عبد الوهاب جزاه الله خيرا موفق فى بلاغته عنـــد بلاغه ، وهو يبين الشرك والكفر بيانا جليا لا شبهة فيه ، ويختار له ما سـماه القرآن به من أوصاف جامعة ، تنفر كل من شرح الله صدره لحقيقة الاســلام من أدنى شوائبه ومن طابعه فى بيان هذا الوضوح والايضاح ، وهذا التوفيق فى تسمية الأشياء بأسمائها ، فضـــلا عن تدعيمه كل قول يقوله بآيات الكتاب المبين والأحاديث الصـــحيحة البينـــة الدلالة ... ومن ذلك اختيـــاره لفظ (الطاغوت) الجامع لعبادة غير الله عز وجل على اختلاف ضروبها وصورها ، والمنفـــر لـكل انســـان من الخضـــوع لأى طاغوت . يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى احدى رسائله الشخصية : « ... واعلم أرشـدك الله أن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب لمسألة واحدة هى توحيـــد الله وحده والكفر بالطاغوت كما قال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ... » (٣) وهو ينقل من ابن القيم رحمه الله « الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو مطاع » وهو يعدد الطواغيت « والطواغيت كثيرة » ورءوسهم خمسة : ابليس لعنه الله ، ومن عبد وهو راض ، ومن دعا الناس الى عبادة النفس ، ومن ادعى شيئا من علم الغيب ، ومن حكم بغير ما أنزل الله(٤)

---

(١) المصدر السابق ص ٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٤ .

(٣) القسم الخامس (الرسائل الشخصية) من مؤلفات الشيخ الامـام محمد بن عبد الوهاب نشر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ص ١٤٥ .

(٤) رسالة (ثلاثة أصول) من القسم الأول (العقيدة والآداب الاسلامية) من المصدر السابق ص ١٩٥ .

وقد أفرد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رسـالة فى « معنى الطاغوت ورءوس أنواعه » ، وكان مما جاء فيها « ••• فأما صفة الكفر بالطاغوت فهو أن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها وتبغضـها وتكفر أهلها فأما معنى الايمان بالله فهو أن تعتقد أن الله هو الاله المعبود وحده دون سـواه وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله وتنفيها عن كل معبود سواه **وتحب أهل الاخلاص وتواليهم وتبغض اهل الشرك وتعاديهم** • وهذه ملة ابراهيم التى سـفه نفسه من رغب عنها ، وهذه هى الأسوة التى أخبر الله بها فى قوله (قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العـداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنـوا بالله وحده) • **والطاغوت عام** ، فكل ما عبد من دون الله ورضى بالعبادة من معبود أو مطاع فى غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت » ثم تعدد الرسـالة رءوس الطواغيت وهم الخمسة المذكورون آنفا وانما جاء بدلا ممن « دعا الناس الى عبادة النفس » فى الرسالة الأخيرة « **الحاكم الجائر المغير لأحكام الله تعالى** » والدليل قوله تعالى (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكمـوا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضـلالا بعيدا) » • وقد أوردت هذه الرسـالة دليلا من الكتاب الكريم يدعم اعتبار الخمسة المذكورين رؤسـاء للطواغيت ثم ختمت الرسالة بقول الشيخ : « ••• **واعلم ان الانسان ما يصير مؤمنا بالله الا بالكفر بالطاغوت** ، والدليل قوله تعالى (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقـد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) • الرشد دين محمد صلى الله عليه وسلم والغى دين أبى جهل ، والعروة الوثقى شهادة أن لا اله الا الله وهى متضمنة للنفى والاثبات : تنفى جميع أنواع العبادة عن غير الله تعالى وتثبت جميع أنواع العبادة كلها لله وحده لا شريك له » (١) فهـل بعـد هذا البيان يرتضى مؤمن الغى ويرفض الرشد ويكون كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا فيدع العروة الوثقى الى بيت العنكبوت ويترك عبادة الله الى عبادة الطاغوت « مثل الذين اتخذوا من دون الله أوليـاء كمثل العنكبـوت

---

(١) رسالة (معنى الطاغوت ورءوس أنواعه) وردت ضـمن (مجموعة رسائل فى التوحيد والايمان) ـ المصدر السابق ص ٣٧٦ ـ ٣٧٨ •

اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمـــون · ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم · وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » (العنكبوت / ٤١ـ٤٣) ، « له دعوة الحـــق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغة ، وما دعاء الكافرين الا فى ضلال · ولله يســـجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال · قل رب السموات والأرض قل الله ، قل افاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعـــا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار · انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، **فاما الزبد فيذهب جفـاء واما ما ينفع النـــاس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الامثال** · للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يســتجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد · أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، انما يتذكر أولو الألباب » (الرعد/ ١٤ ـ ١٩) ·

الدعوة السلفية باطل القبوريين والمتصوفة

ولم تكن دعوة الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب الى افراد الله بالعبادة والاخلاص فى توحيده توحيـــد الربوبية والالهيـــة معا لتمر كمقررات نظرية لا تصادم الواقع المنحرف القائم وتهز قواعده ، **ولم تكن (حركية) الشـــيخ لتقنع بالتقرير النظرى العلمى دون التطبيق على الواقع والامر بالمعروف والنهى عن المنكر** ، ومن ثم كان دينه دائما يجابه الباطل على أرضه صراحة بانه عين الباطل الذى يعنيه فى كلامه وينعى عليه ، ولا يترك أمر العقيدة وقضية الايمان والكفر للاستنتاج والظن !

يقول الشيخ رحمه الله فى رسالة « تفسير كلمة التوحيد » : « اعلم رحمك الله أن هذه الكلمة (لا اله الا الله) هى الفارقة بين الكفر والاســلام ، وهى كلمة التقوى ، وهى العروة الوثقى ، وهى التى جعلها ابراهيم عليه الســـلام

كلمة باقية فى عقبة لعلهم يرجعون ، **وليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها** ، فان المنافقين يقولونها وهم تحت الكفار فى الدرك الأسفل من النار مع كونهم يصلون ويتصدقون ٠ ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب ومحبتها ومحبة أهلها وبغض من خالفها ومعاداته ٠٠٠ **فاعلم أن هذه الألوهية هى التى تسميها العامة فى زماننا (السر) و (الولاية)** ، والاله معناه الولى الذى فيه السر ــ وهو ما يسمونه (**الفقير**) و (**الشيخ**) وتسمية العامة (**السيد**) وأشباه هذا ، وذلك أنهم يظنون ان الله جعل لخواص الخلق عنده منزلة يرضى أن يلتجىء الانسان اليهم ويرجوهم ويستغيث بهم ويجعلهم واسطة بينه وبين الله ٠٠٠ فقول الرجل (لا اله الا الله) ابطال للوسائل واذا أردت أن تعرف هذا معرفة تامة فذلك بأمرين ــ الأول : أن تعرف أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلهم وأباح أموالهم واستحل نساءهم كانوا مقرين لله سبحانه بتوحيد الربوبية ــ وهو أنه لا يخلق ولا يرزق ولا يحيى ولا يدبر الأمور الا الله وحده ٠٠٠٠ شاهدون بهذا كله ومقرون به ومع هذا لم يدخلهم فى الاسلام ولم يحرم دماءهم ولا أموالهم ، وكانوا أيضا يتصدقون ويحجون ويعتمرون ويتعبدون ويتركون أشياء من المحرمات خوفا من الله عز وجل ٠ ولكن الأمر الثانى هو الذى كفرهم وأحل دماءهم وأموالهم وهو أنهم لم يشهدوا لله بتوحيد الألوهية وتوحيد الألوهية **هو أن لا يدعى ولا يرجى الا الله وحده لا شريك له ولا يستغاث بغيره ولا يذبح لغيره ولا ينذر لغيره لا لملك مقرب ولا نبى مرسل ، فمن استغاث بغيره فقد كفر ومن ذبح لغيره فقد كفر** ــ وأشباه ذلك ٠ وتمام هذا أن تعرف أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يدعون الصالحين ــ مثل الملائكة وعيسى وأمه وعزير وغيرهم من الأولياء ــ فكفروا بهذا مع اقرارهم بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق المدبر ٠٠٠ فان قال قائل من المشركين : نحن نعرف أن الله هو الخالق الرازق المدبر ، لكن هؤلاء الصالحون مقربون ، ونحن ندعوهم وننذر لهم وندخل عليهم ونستغيث بهم ونريد بذلك الوجاهة والشفاعة ، فقل : كلامك هذا مذهب أبى جهل وأمثاله فانهم يدعون عيسى وعزيرا والملائكة والأولياء يريدون ذلك كما قال تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وقال تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ٠٠٠ فالله الله يا اخوانى ، تمسكوا بأصل دينكم وأوله وآخره وأسه ورأسه شهادة أن لا اله

الا الله واعرفوا معناها وأحبوها وأحبوا أهلها واجعلوهم اخوانكم ولو كانوا بعيدين . اكفروا بالطواغيت وعادوهم وابغضوهم وابغضوا من أحبهم أو جادل هذا على الله وافترى . فقد كلفه الله تعالى بهم وافترض عليهم الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا اخوانهم وأولادهم . فالله الله يا اخوانى تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئا ... وانت ترى المشركين من أهل زماننا - ولعل بعضهم يدعى انه من اهل العلم وفيه زهد واجتهاد وعبادة - اذا مسه الضر قام يستغيث بغير الله - مثل معروف او عبد القادر الجيلانى وأجل من هؤلاء مثل زيد بن الخطاب والزبير واجل من هؤلاء مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله المستعان . وأعظم من ذلك واطم انهم يستغيثون بالطواغيت والكفرة والمردة مثل شمسان وادريس (ويقال له الأشقر) ويوسف وامثالهم ، والله سبحانه وتعالى اعلم » (١) . ويؤكد الشيخ رحمه الله ذلك فى رسائله الخاصة مثلما يؤكدها فى رسائله وكتاباته العامة « ... فالطاغوت هو الذى يسمى السيد الذى ينخى (أى يدعى) وينذر له ويطلب منه تفريج الكربات غير الله تعالى .... وقد ذكر فى (الاقناع) فى باب حكم المرتد اجماع المذاهب كلهم على أن من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم انه كافر مرتد حلال المال والدم ... فكذلك الذين يدعون شمسان وأمثاله وأجناسه لاشك فى كفرهم »(٢) .

ويقول الشيخ فى رسالة لأهل المغرب « فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التى أعظمها الاشراك بالله والتوجه الى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات التى لا يقدر عليها الا رب الأرض والسموات ، وكذلك التقرب اليهم بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد وجلب الفوائد - الى غير ذلك من انواع العبادة التى لاتصلح الا لله . وصرف شىء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصا ... وأخبر (سبحانه) أنه من جعل بينه وبين الله وسائط فسألهم الشفاعة فقد عبدهم وأشرك

---

(١) رسالة « تفسير كلمة التوحيد » ضمن (مجموعة رسائل فى التوحيد والايمان) ص ٣٦٣ - ٣٦٩ .

(٢) القسم الخامس من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الرسائل الشخصية) ص ١٤٥ - ١٤٨ .

بهم ، وذلك ان الشفاعة كلها لله ··· فلا يشفع عنـــده أحد الا باذنه ··· والشـــفاعة حق ولا تطلب فى دار الدنيا الا من الله تعالى ··· وهـذا الذى ذكرناه لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين ، بل قد أجمع عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين والائمة الاربعة وغيرهم ممن سـلك سبيلهم ودرج على منهجهم · وأما ما صدر من سؤال الأنبياء والأولياء الشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها والسرج والصلاة عندها واتخاذها اعيادا وجعل السدنة والنذور لها فكل ذلك من حوادث الأمور التى أخبر بوقوعها النبى صلى الله عليه وسلم وحذر منها ··· » (١) · ويقول الشـــيخ فى رســالته لمطوع ثرمداء « ··· كتبوا ، علماء سدير ، مكاتبة وبعثها لنا (ابراهيم الذى وجهه الشـــيخ اليهم) وهى عندنا الآن ولم يذكروا فيها الا توحيد الربوبية ··· ان هؤلاء ما عرفوا التوحيد وهم منكرون دين الاســـلام ، وكذلك أحمد بن يحيى راعى رغبه عداوته لتوحيد الألوهية والاستهزاء بأهل العارض لما عرفوه ··· وكذلك ابن اســـماعيل ، انه نقض ما ابرمت فى التوحيد ، وتعرف أن عنـده الكتاب الذى صـــنفه رجل من أهل البصرة : كله من أوله الى آخره فى انكار توحيد الألوهية وأتاكم به ولد محمد بن ســـليمان راعى وثيثيه وقرأه عندكم وجادل به جماعتنا ، وهذا الكتاب مشهور عند المويس واتباعه مثل ابن سحيم وابن عبيد يحتجون به علينا ويدعون الناس اليـــه ويقولون هذا كلام العلماء ! فاذا كنت تعرف أن النبى صلى الله عليه وسلم ما قاتل الناس الا عند توحيـد الألوهية ، وتعلم أن هؤلاء قاموا وقعدوا ودخلوا وخرجوا وجاهدوا ليلا ونهارا فى صدر الناس عن التوحيد يقراون عليهـم مصنفات أهل الشرك ··· » (٢) « ···فصار ناس من الضالين يدعون أناسا من الصالحين فى الشدة والرخاء مثل عبدالقادر الجيلانى وأحمد البدوى (٣) وعدى بن مسافر وأمثالهم من أهل

---

(١) المصدر السابق ص ١١١ ـ ١١٣

(٢) المصدر السابق ص ١٩ ـ ٢٠ ·

(٣) عبد القادر الجيلانى (ت ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م) من شـيوخ الصوفية وتتبعه الطريقة القادرية ، وقد فتح له زاوية فى بغداد ، وهناك قرارات باسمه فى فاس وغيرها · وأحمد البدوى شهاب أبو العباس (ت ٦٥٧ هـ / ١٢٧٦ م) الشيخ الصوفى المعروف ، ولد فى فاس وتوفى فى طنطا من أعمال مصر ومدفنه مقصود ولأتباعه طريقة تنسب اليه · وعدى بن مسافر شرف الدين أبو الفضائل (ت ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م) هـو صاحب الطريقة العـدوية ، ولد بناحيـة بعلبك وأقام زمنا بالمدينة ثم انتقل الى ناحية الموصل فبنى زاوية تعبد فيها وتوفى بها وغالى فيه اتباعه غلوا شنيعا ·

العبادة والصـــلاح ، فانكر عليهـم أهل العلم غاية الانكار وزجروهم عن ذلك وحذروهم غاية التحذير والانذار من جميع المذاهب الأربعة فى ســائر الأقطار والأمصار ، فلم يحصل منهم ازدجار بل استمروا على ذلك غاية الاستمرار » ٠
ولما كان بعض أعداء الدعوة الى التوحيـــد الخالص قد اعتمـدوا على بعض الكتب فى المراء والجدال بغير حق، فقد اقبل الشيخ محمد بن عبدالوهاب يمحص مقالتهم ويرد عليها ويقيم الحجة مؤيدا دعوته باقوال السلف والكتب المعتمدة عند أهل المذاهب ليؤكد أنه متبع وليس مبتدع فى فهمه لعقيدة التوحيد كما جاء بها الكتاب والسنة ٠

يقول الشيخ فى رســـالته التى نقلنا منها ما ســـبق مباشرة قبل هذه السطور : « ٠٠٠ وأنا اقول كلام أهل العلم رضى ، وانا انقله اليك وانبهك عليه فتفكر فيه وقم لله ساعة ناظرا ومناظرا معنفسك ومع غيرك ٠٠٠ قالالشيختقى الدين فى (الرسالة السنية) التى ارسلها الى طائفة من أهل العبادة ينتسبون الى بعض الصالحين ويغلون فيه ، فذكر حديث الخوارج ثم قال : فاذا كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ممن ينتسب الى الاســلام من مرق منه مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب الى الاسلام قد يمرق من الدين ، وذلك بأمور منها : الغلو الذىذمه الله ــ مثل الغلو فى عدى بن مسافر أو غيره بل الغلو فى على بن أبى طالب بل الغلو فى المسيح ونحوه ، فكل من غلا فى نبى او صحابى او رجل صالح وجعل فيه نوعا من الالوهية مثــل أن يقول يا سيدى فلان اغثنى او انا فى حسبك ونحو هذا فهذا كافر يستتاب فان تاب والا قتل ، فان الله سبحانه انما أرسل الرسل وانزل الكتب ليعبد ولا يدعى معه اله آخر والذين يدعون مع الله الهة اخرى مثل الشمس والقمر والصالحين والتماثيل المصـــورة على صورهم لم يكونوا يعتقدون أنها تنزل المطر وتنبت النبات وانما كانوا يعبدون الملائكة والصالحين ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عنــد الله ، فبعث الله الرسل وأنزل الكتب تنهى أن يدعى احد من دونه لادعاء عبادة ولا دعاء استغاثه ٠٠٠ وقال فى (الاقناع) فى باب حكم المرتد فى أوله : فمن اشرك بالله أو جحد ربوبيته أو وحدانيتــه ــ الى أن قال : أو اســـتهزأ بالله ورسله ، قال الشيخ : أو كان مبغضا لرسوله أو لما جاء به اتفاقا أو جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم كفر اجماعا ٠٠٠ وأما الحنفية فقال الشيخ قاسم فى شرح (درر البحار) النذر الذى يقع من اكثر العوام وهو أن يأتى الى قبر بعض الصلحاء قائلا : يا ســيدى فلان ان رد غائبى أو عوفى

مريضى أو قضيت حاجتى فلك كذا وكذا ـ باطل اجماعا لوجوه ، منها أن النذر للمخلوق لا يجوز ، ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف فى الأمور واعتقـاد هـذا كفر ، الى أن قال : اذا عرف هذا فما يؤخـذ من الدراهم والشـمع والزيت ونحوها وينقل الى ضرائح الأولياء فحرام باجماع المسلمين ، وقد ابتلى الناس بهذا لا سـيما فى مولد أحمد البـدوى ... أما المالكية فقال الطرطوشى فى كتاب (الحوادث والبدع) بعد أن نقل ما رواه البخارى فى شـأنه ذات انواط وهى سدرة كان المشركون يعكفون حولها وينوطون بها أسـلحتهم : فانظروا رحمكم الله اينما وجدتم سدرة يقصدها الناس وينوطون بها الخرق فهى ذات انواط فاقطعوها ... وأما كلام الشافعية ، فقال الامام محدث الشام ابو شامة فى كتاب (الباعث على انكار البدع والحوادث) ... وقد وقع من جماعة من النابذين لشريعة الاسلام المنتمين الى الفقر الذى حقيقته الافتقار من الايمان من اعتقادهم فى مشايخ لهم ضالين مضلين فهم داخلون تحت قوله تعالى(أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) ـ الآية . وبهذه الطرق وأمثالها كان مبادىء ظهور الكفر من عبادة الأصنام وغيرها ، ومن هذا القسم ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد واسراج مواضع فى كل بلد يحكى لهم حاك انه رأى فى منامه احد ممن شهر بالصلاح فيفعلون ذلك ويظنون انها يتقربون الى الله ثم يجـاوزون ذلك الى أن يعظهـم وقع تلك الأماكن فى قلوبهم ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم وهى بين عيون وشـجر وحائط وحجر ، وفى دمشق صانها الله من ذلك مواضـع متعددة ... ثم ذكر كلاما طويلا الى أن قال أسأل الله الكريم معافاته من كل ما يخالف رضاه ولا يجعلنا ممن أضله فاتخذ الهه هواه ... وقد قرر الشيخ محمد بن عبدالوهاب هذه النقول فى رسالة أخرى وجهها الى علماء الاسلام(١).

والشيخ محمد بن عبد الوهاب يبين عقيدة التوحيد الصحيحة فى رسائله الخاصة لأنصاره ، ولعلماء الاسـلام فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرهم فى شـبه الجزيرة وخارجها من المشرق والمغرب (٢) ، وللوجهاء المبرزين فى اقوامهم ، كما لا يغفل فى رسـائله عن أعداء دعوته ، فيحاورهم ويقيم عليهم الحجة . ومن ذلك رسالة كتبها الشيخ رحمه الله الىسليمان بنسحيم الذىكان قد شنع على الشيخ ودعوته ، وكان مما جاء فيه فى تعداد ما سـقط فيه

---

(١) المصدر السابق ص ٦٦ ـ ٧٢ وانظر أيضا ص ١٧٧ ـ ١٧٩ .

(١) انظر مثلا فى المصدر السابق ص ٣٦ ـ ٤٩ .

ابن سحيم : « الوجه الثاني : « ... انك تقول انى أعرف التوحيد وتقر أن من جعل الصالحين وسائط فهو كافر ، والناس يشهدون عليك انك تروح للمولد وتقرأه لهم وتحضرهم وهم يغنون ويندبون مشايخهم ويطلبون منهم الغوث والمدد وتأكل اللقم من الطعام المعد لذلك ، فاذا كنت تعرف أن هذا كفر فكيف تروح لهم وتعاونهم عليه وتحضر كفرهم ؟ ... الثالث : ان تعليقهم التمائم من الشرك بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر تعليق التمائم صاحب (الاقناع) فى أول الجنائز ، وانت تكتب الحجب وتأخذ عليها شرطا حتى انك كتبت لامرأة حجابا لعلها تحبل وشرطت لك أحمرين وطالبتها تريد الأحمرين فكيف تقول انى أعرف التوحيد وانت تفعل هذه الأفاعيل ؟ وان انكرت فالناس يشهدون عليك بهذا . الرابع : انك تكتب فى حجبك طلاسم وقد ذكر فى (الاقناع) انها السحر والسحر يكفر صاحبه ، فكيف تفهم التوحيد وانت تكتب الطلاسم ؟ وان جحدت فهذا خط يدك موجود . الخامس : أن الناس فيما مضى عبدوا الطواغيت عبادة ملأت الأرض بهذا الذى تقر انه من الشرك ، ينخونهم ويندبونهم ويجعلونهم وسائط ، وانت وأبوك تقولان نعرف هذا لكن ما سالونا !! فاذا كنتم تعرفونه كيف يحل لكم أن تتركا الناس يكفرون ما تنصحانهم ولو لم يسالوكم . السادس : انا كما انكرنا عبادة غير الله بالغتم فى عداوة هذا الأمر وانكاره . وزعمتم انه مذهب خامس وانه باطل ، ان انكرتما فالناس يشهدون بذلك وانتم مجاهرون به . فكيف تقولون : هذا كفر ولكن ما سالونا عنه ، فاذا قام من يبين للناس التوحيد قلتم انه غير الدين وانى بمذهب خامس ! فاذا كنت تعرف التوحيد وتقر أن كلامى هذا حق فكيف تجعله تغييرا لدين الله وتشكونا عند أهل الحرمين ؟ والأمور التى تدل على أنك انت وأباك لا تعرفان شهادة أن لا اله الا الله لا تحصر ، لكن ذكرنا الأمور التى لا تقدر أن تنكرها .. وأنت وأبوك تظهران للخاص والعام » (١) .

والشيخ محمد بن عبد الوهاب صريح فى الانكار على الذين يتخذون الشيوخ الأحياء ، ربابا من دون الله مثلما هو صريح فى الانكار على الثاوين فى القبور ، فالذين يدعون (الولاية) وسدنة هذه القبور من الأحياء والعلماء الذين يقرون التوسل بالأحياء والأموات والذين يقدسون الأولين ويطيعون الآخرين دون دليل شرعى كلهم متورطون فى مثل ما تورط فيه الذين يدعون

(١) المصدر السابق ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

من فى القبور ويستغيثون بهم ، وينذرون لهم ويذبحون ٠٠ لأن جوهر التوحيد قد ابطله هؤلاء وأولئك على السواء ، يعقد الشيخ بابا فى « كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد » بعنوانه « من اطاع العلماء والأمراء فى تحـريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابا من دون الله » ، ويصدره بقـول ابن عباس : « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون قال أبو بكر وعمر !! » ثم ينقل ما روى عن عدى ابن حاتم فى صـدد قوله تعـالى « اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله ٠٠٠ » (التوبة / ٣١) ، حين قال رسول الله صلوات الله عليه : انا لسنا نعبدهم ، فاجابه عليه الصلاة والسلام : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟؟ فقال عدى : بلى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فتلك عبادتهم » رواه احمد والترمذى وحسنه ٠ ثم يستنبط الشيخ محمد بن عبد الوهاب ما فى النصوص التى أوردها من مسـائل ، آخرها قوله « الخامسة : **تغير الاحوال الى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هى افضل الاعمال ـ وتسمى الولاية ، وعبادة الاحبار هى العلم والفقه** ٠ ثم تغيرت الحال الى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين ، وعبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين » (١) ٠

وكما يذكر الشيخ بن عبد الوهاب (الصـــوفية) بأوصـــافهم المميزة وخصائصهم فى حملته عليهم ، يصرح احيانا باسمهم الذى عرفوا به ، ويوضح معتقداتهم الباطنية ، ويحمل بقوة ـ أجزل الله مثوبته عن أمة الاسلام ـ على عامة المتصوفة من اتباع الطرق وخاصـتهم من أهل الفكر المصـنفين ، ويدين شـطحات هؤلاء وهؤلاء على الســواء ٠٠٠ فهو يذكر فى احدى رســائله الشخصية « فقراء الشيطان الذين ينتسبون الى الشيخ عبد القادر رحمه الله وهو منهم برىء ٠٠٠ » (٢) كما يقول فى رسالته لمطوع أهل المجمعة عن رسالة سليمان بن محمد بن سحيم التى ارسلها الى أهل البصرة والحسا يشنع فيهـا على الشــيخ « ٠٠٠ ولا يخفاك أنى عثرت على أوراق عند ابن غراز فيهـــا اجازات له من عند مشايخه وشيخ مشـــايخه رجل يقال له عبد الغنى ويثنون عليه فى أوراقهم ويسمونه العارف بالله ، وهذا اشتهر عنـه أنه على دين ابن

---

(١) القسم الأول من مؤلفات الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب (العقيدة والآداب الاسلامية) ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ٠

(٢) القسم الخامس من المصدر السابق (الرسائل الشخصية) ص٥٢ ٠

عربي الذى ذكر العلماء انه أكفـــر من فرعـــون ، حتى قال ابن المقــــرى الشافعى من شك فى كفر طائفة ابن عربى فهو كافر ٠٠٠ » (١) وينقـــل عن البزازى الحنفى ما جاء فى (فتاواه) : « اذا رفض صوفية زماننـــا هـــذا فى المساجد مختلطا بهم جهال العوام الذين لا يعرفون القرآن والحلال والحرام، بل لا يعرفون الاسلام والايمان ، لهم نهيق يشـبه نهيق الحمير ، يقول : هؤلاء لا محالة اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، فويل للقضاة والحكام حيث لا يغيرون هذا مع قدرتهم » (٢) ٠ وجاء فى رسالة وجهها الشيخ الى أهل الرياض ومنفوحة حين كان يقيم فى (الدرعية) : « وكذلك أيضا من أعظم الناس ضلالا متصوفة فى معكال وغيره مثل ولد موسى بن جدعان وسلامة بن نافع وغيرهما يتبعون مذهب ابن عربى وابن الفارض وقد ذكر أهل العلم أن ابن عربى من أئمة أهـل مذهب الاتحادية وهم أغلظ كفرا من اليهـود والنصارى ، فكل من لم يدخل فى دين محمد صلى الله عليه وسـلم يتبرأ من دين الاتحادية فهو كافر برىء من الاسلام ولا تصح الصلاة خلفه ولا تقبل شهادته » (٣) ٠ وينقل الشـيخ عن (الاقناع) فى أثناء (بابحكم المرتد : « ومن اعتقد أن لأحد طريقا الى الله غير متابعة محمد صلى الله عليه وســـلم ، أو أنه لايجب عليه اتباعه ٠٠٠ أو قال أنا محتاج اليه فى علم الظاهر دون علم الباطن أو فى علم الشريعة دون علـم الحقيقة ، أو قال ان من العلماء من يسعه الخروج عن شريعته كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى ـ كفر فى هذا كله (٤) ٠ ويقول الشيخ رحمه الله عن نفسه « ولست ولله الحمد أدعو الى مذهب صوفى أو فقيه أو متكم أو امام من الأئمة الّذين أعظمهم مثل ابن القيم والذهبى وابن كثير وغيرهم بل أدعـو

---

(١) المصدر السابق ص ٧٢ ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٧٨ ٠

(٣) المصـــدر السابق ص ١٨٩ وانظـــر ايضـــا ما ورد ص ١٩٣ : وابن عربى : وهو محيى الدين محمد بن علىالحاتمى الطائى ت ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م وقد ولد فى مرسيه بالاندلس وتوفى بسفح جبل قاسيون فى دمشق وهو صوفى لقب بالشيخ الأكبر وكان من الباطنية فى الاعتقاد ومن مصنفاته (الفتــوحات المكية فى معرفة الأسرار المالكية والملكية) ٠ (ترجمان الأشواق) ، (فصوص الحكم) ، (محاضرة الأبرار) ٠٠٠ الخ ٠ وابن الفارض عمــر بن على توفى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م متصوف شـاعر أوضح نزعته فى تائيته التى تضمنها ديوانه ، وله ميمية فى الخمرة أى المعرفة الالهية بزعمه ٠

(٤) المصدر السابق ص ٦٨ ٠

الى الله وحده لا شريك له وأدعو الى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أوصى بها أول أمته وآخره وأرجو أنى لا أرد الحق اذا اتانى » (١) ٠

ومنهج الشيخ فى تعليم عقيدة التوحيد هو نهج السلف فى الاهتداء بهدى الكتاب والسنة فى العلم بالتوحيد ، والاعراض عن اصطلاحات المتكلمين والفلاسفة والمتصوفة على السواء : « وذلك أن مذهب الامام احمد وغيره من السلف أنهم لا يتكلمون فى هذا النوع (صفات الله) الا بما يتكلم الله به ورسوله : فما اثبته الله لنفسه اثبتوه مثل الفوقية والاستواء والكلام وغير ذلك، وما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله نفوه مثل المثل والند والسمى وغير ذلك، واما ما لا يوجد عن الله ورسوله اثباته ونفيه مثل الجوهر والجسم والعرض والجهه وغير ذلك لا يثبتونه ولا ينفونه ٠٠٠ » (٢) ٠ والشيخ يوضح فى بيان جلى وحجة قوية أسباب نفوره من تشقيقات المتأخرين واصطلاحاتهم : « واما المتأخرين فقلوبهم متفرقة ، فالعربية وثوابها قد أخفت من قوى اذهانهم شعبة ، والأصول شعبة ، وعلم الاسناد واحوال الرواة شعبة ، وفكرهم فى كلام شيوخهم شعبة — الى غير ذلك من الأمور ٠ فاذا وصلوا الى النصوص النبوية — ان كان لهم همم تسافر اليها — وصلوا اليها بقلوب واذهان قد كلت من السير ، وهذا شأن من استفرغ قواه فى الأعمال غير المشروعة (اذ) تضعف قوته عند العمل المشروع » (٣) ٠

والشيخ محمد بن عبد الوهاب ينكر الانحراف فى الشريعة كما ينكر الانحراف فى العقيدة ، فشريعة الله هى الحق والعدل ومن مال عنها فقد جار

---

(١) المصدر السابق ص٢٥٢ : وابن قيم الجوزية محمد بن أبى بكر المتوفى سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م تلميذ ابن تيمية وناشر علمه وقد سجن معه وله (اعلام الموقعين) و (زاد المعاد فى هدى خير العباد) و (الطرق الحكمية) و (شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والتعليل) وغير ذلك كثير ٠ والذهبى محمد ابن أحمد شمس الدين المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م ابن كثير امام فى التفسير بالحديث والتاريخ صاحب لتفسير (والبداية والنهاية) ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٣٠ — ١٣١ ٠

(٣) « مبحث الاجتهاد والخلاف » فى القسم الثانى من مؤلفات الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب نشر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية — م٢ تحقيق عبد الرحمن بن محمد السدحان وعبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ص ٣٢ ٠

الى الباطل والظلم ٠٠ يعدد الضـــلالات التى وقع فيها عامة أهـل البوادى فيذكر منها « ٠٠٠ فلما بينت ما صرحت بهم آيات التنزيل وعلمه الرسول أمته وأجمع عليه العلماء (فى) ٠٠٠ من فضل فراضـة الطاغوت على حكم الله ، أو سب من زعم أن المرأة ترث ، أو أن الانسان لا يؤخذ فى القتل بجريرة أبيـه وابنه ـ انه كافر مرتد ، قال علماؤكم معلوم أن هذا حال البوادى لا ننكره ولكن يقولون لا اله الا الله وهى تحميهم من الكفر ولو فعلوا كل ذلك ٠٠٠ » (١) ٠ وهكذا شاع فى أهل البوادى وقتذاك ما كان عليه أهل الجاهلية من تقرير حق الذكر لأنه الذى يقاتل ويحمى القبيلة وهدار حق الأنثى لأنها لا تفعـــل فعله ، وما كان عليه أهل الجاهلية فى الثأر من أقرب قريب للقاتل ان لم يكن القاتل فى متناول يدهم جمعهم الى قتل القاتل قتل أقرب الناس اليه امعانا فى التنكيل ٠٠ ولم يقصر الشيخ رحمه الله فى بيان أن من ينصرف عن شريعة الله وهو يعلمها ويصر على تركها يصل ضلاله الى أصل العقيدة ولا يكون مقصورا على أحكام الفروع ، ففى هـــذا ايثار لحكم الهـوى والطاغوت « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقـولون للذين كفـــروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ٠ أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد لهم نصيرا » (النســاء / ٥١ ـ ٥٢) ، « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ٠ واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » (النساء / ٦٠ ـ ٦١) ، « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضـــله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون » الجاثية / ٢٣) ٠



هذا البيان الحاسم القاطع للتوحيد والشرك ، وهذه المواجهة الصريحة للذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ودعوا الأحياء والأموات وانصرفوا عن أحكام ربهم وجعلوا الههم هواهم ، وهذه (الحركية) النشـطة

---

(١) القســم الخامس من مؤلفات الشــيخ الامام محمد بن عبد الوهاب (الرسائل الشخصية) ص ٢٦ وانظر أيضا ص ٤١ ٠

فى البلاغ والمواجهة ، والموالاة والمعاداة ، كان لابد معها أن يقع الصدام بين اهل الحق واهل الباطل » والذى قلب الناس علينا الذى قلبهم على سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم وقلبهم على الرسل من قبله (كلما جاء امة رسولها كذبوه) ومثل ما قال ورقة للنبى صلى الله عليه وسلم : والله ما جاء أحد بمثل ما جئت به الا عودى ... » (١) ، « فهذا هو الذى أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتىآل بهم الأمر الىأن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا واموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم ، وهو الذى ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله واجماع السلف الصالح من الأئمة ، متمثلين لقوله سبحانه وتعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) .. (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز) » (٢) ، « ذكر ابن عبد الهادى فى مناقب الشيخ لما ذكر المحنة التى نالته بسبب الجواب فى (شد الرحل) ، فالجواب الذى كفروه بسببه ذكر أن كلامه فى هذا الكتاب ابلغ منه ، فالعجب اذا كان هذا الكتاب عندك والعلماء فى زمن الشيخ كفروه بكلام دونه ، فكيف بالمويس وأمثاله لا يكفروننا بمحض التوحيد ؟ » (٣) . وقد تقدم ما اثاره على الشيخ هدم ما بنى على القبور ، وهو الذى ذكره فى رسالته الى علماء مكة المكرمة « جرا علينا من الفتنة ما بلغكم وبلغ غيركم ، وسببه هدم بنيان فى ارضنا على قبور الصالحين فلما كبر هذا على العامة لظنهم انه تنقيص للصالحين ... نهيناهم عن دعواهم وأمرناهم باخلاص الدعاء لله، فلما اظهرنا هذه المسألة مع ما ذكرنا من هدم البنيان على القبور كبر على العامة جدا وعاضدهم بعض من يدعى العلم لأسباب اخر التى لا تخفى على مثلكم اعظمها اتباع هوى العوام مع اسباب أخر ، فاشاعوا عنا انا نسب الصالحين وانا على غير جادة العلماء ، ورفعوا الأمر الى المشرق والمغرب ، وذكروا عنا اشياء يستحى العاقل من ذكرها ... » وقد أوضح الشيخ محمد ابن عبد الوهاب موقفه وادلى بحجته « فهذه كتب الحنابلة عندكم بمكة شرفها الله مثل (الاقناع) و (غاية المنتهى) و (الانصاف) اللاتى عليها اعتماد.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤ .
(٢) المصدر السابق ص ١١٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٠٨ .

المتأخرين ... ذكروا في باب الجنائز هدم البناء على القبور واستدلوا عليه بما في صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه لهدم القبور المشرفة وأنه هدمها ، واستدلوا على وجوب اخلاص الدعوة لله والنهي عما اشتهر في زمنهم من دعاء الأموات بأدلة كثيرة ، وبعضهم يحكي الاجماع على ذلك . فان كانت المسألة اجماعا فلا كلام ، وان كانت مسألة اجتهاد فمعلومكم انه لا انكار في مسائل الاجتهاد فمن عمل بمذهبه في محل ولايته لا ذكر عليه » (١) . وهو ينقل عن ابن القيم رحمه الله في (الهدى النبوي) في الكلام على حديث وقد الطائف لما أسلموا وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يترك لهم اللات لا يهدمها سنه . ولما تقدم ابن القيم على المسائل المأخوذة من القصة قال : ومنها أنه لا يجوز ابقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وابطالها يوما واحدا فانها شعائر الشرك والكفر ... وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانا تعبد من دون الله ، والأحجار التي تقصد للتبرك والنذر والتقبيل لا يجوز ابقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على ازالته ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى بل أعظم شركا عندها وبها والله المستعان ، ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق ... فاتبع هؤلاء سنن من قبلهم وسلكوا سبيلهم شبرا بشبر ... وغلب الشرك على أكثر النفوس لغلبة الجهل وخفاء العلم وصار المعروف منكرا والمنكر معروفا والسنة بدعة والبدعة سنة ، ونشأ في ذلك الصغير وهرم عليه الكبير ، وطمست الأعلام واشتدت غربة الاسلام ، وقل العلماء وغلب السفهاء ، وتفاقم الأمر واشتد البأس وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » (٢) وقد أوضح الشيخ محمد ابن عبد الوهاب عدوان أعداء دعوته وشمول من لم يظهر منه تكفير هؤلاء أو قتالهم « .. وأغروهم بمن صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأحلوا دماءنا وأموالنا ، حتى جرى على الناس ما تعرف ، مع أن كثيرا منهم لم يكفر ولم يقاتل ... » (٣) هذه هي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى العقيدة السلفية ، تؤكد كل ما فهمه السلف الصالح من عقيدة التوحيد كما جاءت في الكتاب والسنة ، وتشهد بأن الشيخ كان متبعا وليس بمبتدع في موضوع الدعوة ومضمونها ، وان كانت لظروف البيئة في ذلك الوقت وطبيعة الشيخ (الحركية) أيضا آثارها في أسلوب الدعوة وخصائصها الفكرية والعلمية .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧ .

التأثير المستمر للدعوة فى المسلمين :

توفى الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م. وكان حليفه الأمير محمد بن سعود قد توفى قبله سنة ١١٧٩هـ / ١٧٦٥ م وخلفه ابنه عبد العزيز بن محمد الذى استشهد سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م بعد أن شهد انتشار الدعوة السلفية الاصلاحية وامتداد الدولة السعودية فى شبه الجزيرة العربية وقد قامت على قواعد الاسلام الصحيح كما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، لكن تعرضت الدولة الوليدة لتأليب العثمانيين ومكائدهم خلال عهدى سعود (الكبير) بن عبد العزيز الذى توفى سنة ١٢٢٩ هـ / ١٨١٣ م وعبد الله بن سعود من بعده وقد توفى سنة ١٢٣٣ هـ / ١٨١٧ م ، وقد استطاعت الدولة الناشئة أن تواجه حملتى محمد على الأولين بقيادة طوسون محمد على نفسه سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م ، سنة ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م حتى فاوض طوسون بن محمد على للصلح وعقدت هدنة استفاد منها محمد على وجيشه الذى واصل الهجوم فى حملته الثالثة بقيادة ابراهيم بن محمد على سنة ١٢٣١ هـ / ١٨١٥ م ، وثبت المجاهدون أمام المهاجمين فى الدرعية سنة ١٢٣٣ هـ / ١٨١٧ م على الرغم من تفوق الآخرين عددا وعدة الى أن غدا استمرار المقاومة فى تلك الظروف فوق طاقة البشر ٠

ولكن كانت (الدولة) قد عرض لهـا ما عرض ، فقد بقيت (الدعوة) شعلة مضيئة ينتشر نورها الهادى داخل شبه الجزيرة على الرغم من اشتداد حلكة الظلمات ، بل يتجاوز شبه الجزيرة الى خارجها من أرض الاسلام على مر الزمان حتى أيامنا الراهنة يقول لوثروب ستودارد : « **ان خاتمة هذا الدور السياسى كانت فاتحة الدور الدينى ، فقد ظلت نجد بؤرة تشتعل فيها نار الغيرة الدينية ومنبثق نور تنبعث منه الأشـعة الوهاجة الى كل ناحيـة من نواحى الأرض** ٠ ومافتىء الوهابيون منذ قضى على قوتهم السياسـية يبثـون روح الحـركة الدينية فى مئـات الألوف من الحجيج الوافدين فى كل عام الى مكة والمدينة من كل قطر من اقطار العالم الاسلامى ، فيقتبس هؤلاء نارا وهابية ثم يعودون الى أوطانهم يشعلون بها ما استطاعوا اشعاله فى سـبيل الاصلاح ٠ وهكذا قد استطاع الوهابيون أن يبذروا بذورا تلاها الاختمار الشديد للثورة الدينية فى كل فج اسـلامى حتى بلغت دعوتهم الدينية أقصى المعمـور ٠٠٠ وخلال جيل تلا اتسعت الدعوة الوهابية بأفقها ومضطربها اتسـاعا كبيرا ،

وتطورت تطورا عظيما ، حتى صارت تعرف باليقظة الاسلامية · ثم اتسعت دعوة اليقظة الاسلامية بأفقها ايضا حتى تعددت متجهاتها ومناحيها ، واهم هذه المتجهات انما هى الدعوة الكبرى المعروفة بالجامعة الاسلامية ··· فالدعوة الوهابية انما هى دعوة اصلاحية خالصة بحتة ، غرضها اصلاح الخرق ونسخ الشبهات وابطال الأوهام ونقض التفاسير المختلفة والتعاليق المتضاربة التى وضعها اربابها فى عصور الاسلام الوسطى ، ودحض البدع وعبادة الأولياء ، وعلى الجملة هى الرجوع الى الاسلام والأخذ به على أوله واصله ولبابه وجوهره ، أى أنها الاستمساك بالوحدانية التى أوحى الله بها الى صاحب الرسالة صافية ساذجة والاهتداء والائتمان بالقرآن المنزل مجردا، وأما ما سوى ذلك فباطل وليس فى شىء من الاسلام · ويقتضى ذلك الاعتصام كل الاعتصام بأركان الدين وفروضه وقواعد الآداب (ثم ذكر تحريم الحرير والقهوة والدخان ···) وغير ذلك مما بعضه من أسباب السرف وبعضه الآخر من المضار المفسدة لسلامة العقل ··· » (١) ·

وقد وقع تأثير أنصار الدعوة السلفية فى الجيش المحارب لها نفسه ··· يروى **عبد الرحمن الجبرتى** مؤرخ مصر الحديثة فى كتابه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) (٢) عن بعض (الأكابر) فى الجيش المحارب للدولة السعودية الأولى ممن (يدعون الصلاح والورع) ما شهدوه فيمن قدموا لحربهم « والفضل ما شهدت به الأعداء » ــ يقول : « والقوم اذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفا خلف امام واحد بخشوع وخضوع · واذا حان وقت الصلاة والحرب قائم أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف ، فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة . وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته ! وينادون فى معسكرهم : هلموا الى حرب المشركين المحلقين الذقون المستبيحين الزنا واللواط الشاربين الخمور ، التاركين الصلاة الآكلين الربا القاتلين الأنفس المستحلين الحرمات ··· وكشفوا عن كثير من قتلى

---

(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ــ ترجمة عجاج نويهض ــ ط ع ــ بيروت سنة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٣ م ــ جـ ١ ص ٢٦٣ ــ ٢٦٤ ·

(٢) انظر أخبار سنة ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) وعبد الرحمن الجبرتى مؤرخ ولد فى القاهرة وتعلم فى الأزهر وان نسب أصلا الى (جبرت) وللجبرتية من مسلمى الحبشة رواق بالأزهر ، توفى سنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٢٢ م ويتناول تاريخه الفترة بين ١١٠١ هـ / ١٦٩٠ م والعام السابق لوفاته ·

العسكر فوجدوهم غلفا غير مختونين » !! ورأى (اكابر) الجيش فى جنوده يؤيد ما كان يصفهم به محاربهم جند الدعوة السلفية والدولة السعودية الأولى، اذ ينقل عنهم الجبرتى « ··· واكثر عساكرنا على غير الملة ، وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهبا · وصحبتنا صناديق المسكرات ، ولا يسمع فى عرضينا (أى محط جيشنا) اذان ولا تقام به فريضة ، ولا يخطر فى بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين » (١) !! ···· ولا ينال من روايات الجبرتى أن

---

(١) يقدم الجبرتى صورة معبرة لسلوك الجيش حين استنفر وتجمع فى القاهرة قبل سفره – ذلك الجيش الذى يزعم انه ذاهب لجهاد أعداء الدين ، وجنوده « يأكلون ويشربون جهارا نهارا فى رمضان ويقولون نحن مسافرون ومجاهدون ، ويمرون بالأسواق ويجلسون على المساطب وبأيديهم الأقصاب والشبكات التى يشربون فيها الدخان من غير احتشام ولا حياء ، ويجوزون بحارات الحسينية على القهاوى فى الضموة فيجدونها مغلقة فيسألون عن (القهوجى) ويطلبونه ليفتح لهم القهوة ويوقد لهم النار ويغلى لهم القهوة ويسقيهم ، فربما هرب (القهوجى) واختفى منهم فيكسرون الباب ويعبثون بالاته وأوانيه فما يسعه الا المجىءوايقاد النار !! وأشنع منذلكأنه اجتمعبناحية عرضيهم وجناحهم الجمع الكثير من النساء الخواطى والبغايا ونصبوا لهم خياما واخصاصا ، وانضم اليهم بياع (البوظة) و (العرقى) والحشاشون والغوازى والرقاصون وامثال ذلك ، وانحشر معهم الكثير من الفساق وأهل الأهواء والعياق من أولاد البلد ، فكانوا جمعا عظيما يأكلون ويشربون المكسرات ويزنون ويلوطون ويشربون (الجوزة) ويلعبون القمار جهارا فى رمضان ولياليه مختلطين مع العساكر ، كأنما سقط عن الجميع التكليف وخلصوا منالحساب» !!! » ويأتى أحدهم وبيده شبك الدخانفيدنيمجمرتهلأنف ابن البلد على غفلة منه وينفخ فيه على سبيل السخرية والهزيان بالصائم » ·· فاذا ما رحل ذلك الجيش (الغازى) ورست قواته فى ثغر ينبع « نهبت الودائع والأموال والأقمشة وسبوا النساء والبنات بالبندر ويبيعوهن على بعضهم البعض » !!! ··· فلا غرو اذن أن ينعى الجبرتى على مفتيى الدولة العثمانية فتاواهم فهو يذكر عقب خبر سقوط الطائف اثناء الحملة الأولى سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) ما كان من تسمى السلطان العثمانى (بخادم الحرمين) « لأن عساكره افتتحت بلاد الحرمين وغزت الخوارج (!) وأخرجتهم منها ، لأن المفتى افتاهم بأنهم كفار – لتكفيرهم المسلمين ويجعلونهم مشركين ولخروجهم على السلطان وقتلهم الأنفس وان من قاتلهم يكون مغازيا ومجاهدا وشهيدا اذا قتل · ولما انقضى المجلس ضربوا مدافع كثيرة ··· » ويعلق الجبرتى ذلك بقوله الحق « وذلك ونحوه من الخور » !

هواه لم يكن مع حاكم مصر محمد على ، فما كرهه فيه وصرفه عنه غير جوره وعتوه وانحراف أعوانه وجنده ، فلا غرو أن يبدو متجاوبا مع الدعوة السلفية وهو الذى تعلم القرآن والسنة والعقيدة والشريعة بالأزهر واضطلع بالتدريس فيه ، يقول مثلا : « ولغط ناس فى خبر الوهابى واختلفوا فيه ، فمنهم من يجعله خارجيا وكافرا ٠٠ ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه » ! وينقل الجبرتى نص ما « أرسل الوهابى الى شيخ الركب المغربى (من) أوراق تتضمن دعوته وعقيدته » وقد استغرق هذا البيان عن الدعوة السلفية صفحات من كتاب الجبرتى ، ويعلق على البيان بشهادته التى يجهر فيها بالحق وهو العالم الأزهرى الذى يدخل فيمن أخذ الله ميثاقهم « لتبيننه للناس ولا تكتمونه » فيقول بتثبيت المحقق وعلم الفقيه : « **ان كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن ايضا ، وهو خلاصة لباب التوحيد ، وما علينا من المارقين المتعصبين !!**

وقد بسط الكلام فى ذلك ابن القيم فى كتابه (اغاثة اللهفان) والحافظ المقريزى فى (تجريد التوحيد) (١) والامام اليوسى فى (شرح الكبرى) (٢) و (شرح الحكم) لابن عباد (٣) ، وكتاب جمع الفضائل وقمع الرذائل) وكتاب (مصايد الشيطان) وغير ذلك » ٠٠٠ ويصف الجبرتى ثمار حكم الدولة السعودية فى شبه الجزيرة وفى الحجاز بوجه خاص فيقول (٤) : « عند ذلك

---

(١) هو عين المقريزى المؤرخ تقى الدين احمد بن على المولود بالقاهرة وقد توفى بها سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م ، ومن كتبه الموجزة غير المشهورة « تجريد التوحيد المفيد » ألفة سنة ٨٤١ هـ أى قبل وفاته بسنوات قليلة ـ انظر « مؤلفات المقريزى الصغيرة » لجمال الدين الشيال فى كتاب « دراسات عن المقريزى » الذى أصدرته وزارة الثقافة بمصر ـ الهيئة العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١ م ٠

(٢) هو الحسن بن مسعود نور الدين أبو على اليوسى (ت ١١٠٢ هـ / ١٦٩١ م) ، فقيه مالكى مبرز وقد نعت بغزالى عصره ، وينتمى لقبيلة بنى يوسى من البربر ، وقد تعلم فى سجلماسة ودرعة ومراكش وتوفى بتمرسنت له (شرح القصيدة الدالية) وغيره ٠

(٣)هو أبو عبدالله محمد بن عباد ، فقيه صوفى ولد بالأندلس (ت ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩ م) واشتهر بشرحه لحكم ابن عطاء الله السكندرى (غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية) ، وله ايضا (الرسائل الكبرى) فى التصوف٠ وابن عطاء الله السكندرى متصوف شاذلى اشتهر بكتابة (الحكم) (ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م) ٠

(٤) فى أخبار سنة ١٢٢١ هـ وما بعدها ٠

امنت السبل وسلكت الطرق بين مكة والمدينة وبين مكة وجدة والطائف ، وانخفضت الأسعار وكثر وجود المطعومات وما يجلبه عربان الشرق الى الحرمين من الغلال والأغنام والأسمان والأعسال ، حتى بيع الأردب من الحنطة بأربعة ريال » . وكان الشريف غالب (١) امير مكة وقتذاك قد عاهد على الدخول فى طاعة الدولة السعودية الأولى على اثر ظهور امرها وتتابع انتصاراتها ، وأقسم اليمين على ذلك فى الكعبة « وأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها ، وشرب الأراجيل بالتنباك فى المسعى بين الصفا والمروة ، وبالملازمة على الصلوات فى الجماعة ، ودفع الزكاة ، وترك لبس الحرير والمقصبات ... » وأبطل الامام سعود (الكبير) حين دخل مكة فى ٨ من المحرم سنة ١٢١٩ هـ / أول مايو سنة ١٨٠٤ م ما كانت عليه العادة من قيام أربع جماعات حسب المذاهب الأربعة عند كل صلاة « فقد كانت العادة أن يصلى بالجماعة فى المسجد الحرام احد الائمة من اهل المذاهب الأربعة ثم يتلوه غيره ، فأمر بابطال تلك العادة وأن لا يصلى فى المسجد الا امام واحد ، فصار يصلى الصبح الشافعى والظهر المالكى ــ وهكذا بقية الأوقات ، ويصلى الجمعة مفتى مكة عبد الملك القلعى الحنفى » . وكتب الامام سعود الى السلطان العثمانى سليم الثالث (١٢٠٣ــ١٢٢٢ هـ / ١٧٨٩ــ١٨٠٧م) « من سعود بن عبد العزيز الى السلطان سليم : انى دخلت مكة وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم ، بعد ان هدمت ما هناك من اشباه الوثنية . والغيت الضرائب الا ما كان منها حقا . وثبت القاضى الذى وليته انت طبقا للشرع الاسلامى . فعليك أن تمنع والى دمشق ووالى القاهرة من المجىء الى هذا البلد المقدس بالمحمل والطبول والزمور ، فان ذلك ليس من الدين فى شىء » ، ويذكر الجبرتى فى مجمل اخبار سنة ١٢٢٣ هـ « ومنها : انقطاع الحج الشامى والمصرى معتلين بمنع الوهابى الناس عن الحج ، والحال ليس كذلك ، فانه لم يمنع أحدا يأتى الى الحج على الطريقة المشروعة ، وانما يمنع من يأتى بخلاف

---

(١) الشريف غالب من اسرة (الأشراف) الذين كانوا يحكمون مكة وقتذاك ، وقد دانوا بالتبعية للحكم المملوكى فى مصر ، فلما فتح العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م بعث شريف مكة (بركات) ابنه الى القاهرة ليقدم مفاتيح الحرمين الشريفين للسلطان سليم الأول هناك ، فاضيف الى القابه (خادم الحرمين) واقر الاشراف على ولايتهم وجعل مصر تمد الحجاز بالمال والمون كل عام وكان موقف الأشراف مذبذبا ازاء الدعوة السلفية والدولة السعودية الأولى ، واضطر الشريف غالب الى المعاهدة والموالاة على أثر ما كان للدولة من غلبة ، ثم غدر وآزر الحملة التى ارسلها حاكم مصر .

ذلك من البدع التى لا يجيزها الشرع ـ مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة ٠ وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا فى هذا العام وما قبله ، ولم يتعرض لهم احد بشىء » ٠ ويتابع الجبرتى حديثه عما جرى فى مكة على اثر دخول الشريف غالب فى طاعة الدولة السعودية الأولى « ٠٠٠ وابطال المكوس والمظالم ٠ وكانوا قد خرجوا عن الحدود فى ذلك ، حتى ان الميت يأخذون عليه خمسة (فرانسة) أو عشرة بحسب حاله ، وان لم يدفع أهله القدر الذى يتقرر عليه فلا يقدرون على رفعه ودفنه ، ولا يتقرب اليه الغاسل ليغسله حتى يأته الاذن !! وغير ذلك من البدع والمكوس المظالم التى احدثوها على المبيعات والمشتروات على البائع والمشترى ، ومصادرات الناس فى اموالهم ودورهم فيكون الشخص من سائر الناس جالسا بداره فما يشعر على حين غفلة منه الا والأعوان يأمرونه باخلاء الدار وخروجه منها ويقولون: سيد الجميع محتاج اليها ، فاما أن يخرج منها حملة وتصير من املاك الشريف واما أن يصالح عليها بمقدار ثمنها او اقل أو اكثر ٠ فعاهده (أى عاهد الشريف أمير الدولة السعودية الأولى) علىترك ذلك كله واتباع ما امر الله تعالى به فى كتابه العزيز من اخلاص التوحيد لله وحده واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون الى آخر القرن الثالث » ٠ لكن الشريف غالب ـ على ما يروى الجبرتى ـ لم يف بما وعد به « واستمر يأخذ العشور من التجار ، ٠٠٠ يقول : هؤلاء مشركون ، وأن آخذ من المشركين لا من الموحدين » !! ٠٠ فقارن رحمك الله بين سلوك وسلوك فى الحكم !

وتأثير الدعوة السلفية بعد أن تحققت لها السلطة الشرعية وصارت دولة قد انتشر بين الحجاج ، فقد عاد « الحجاج المغاربة ومعهم مولاى ابراهيم ابن السلطان سليمان سلطان المغرب (١) ، وأخبروا أنها قضوا مناسكهم ، وحجوا وزاروا المدينة ، وأكرمهم (الوهابية) اكراما زائدا » ٠٠٠ وحين ذهبت الدولة ، وأخذ بعض الأمراء وقادة المجاهدين فيها الى القاهرة وأسكنوا هناك فى جهات متفرقة (٢) فتركوا أطيب الأثر بين المصريين ، وغدت بيوتهم مزارا لهم ٠٠٠ ومما يحمل الطرافة والمفارقة معا ، أن كثير من زائريهم كانوا يطلبون (البركة) منهم !!!

---

(١) السلطان سليمان أبو الربيع من أسرة العلويين التى لا تزال تحكم المغرب ، وقد عرف بتقواه وعدله (١٢٠٦ ـ ١٢٣٧ هـ / ١٧٩٢ ـ ١٨٢٢ م)٠

(٢) يذكر الجبرتى انه حاكم مصر احضر بواقى (!) الوهابية بحريمهم

كلمـــا ازداد المســـلمون تنـورا وتعلمـا وثقـافة ، كلمـــا ازداد تفهمهـــم لعقيدة الســـلف واقبـــالا عليهـــا ٠٠٠ وهكذا فان الاسلام الصحيح وعقيدته وأحكامه الشرعية التى جاء بها الكتـاب والسنة ، وانما تحيا وتزدهر حيث يسود النور والمعرفة ! والاسلام الصحيح المستمد من ينبوعه الصـافى الفيـاض (معاصر) دائما ، فان كتابه « لا تنفـد عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد » كما وصـفه الرســـول الذى بعثه الله بهـذا الدين وانزل عليه الكتاب صلوات الله عليه ٠٠٠ والذين زعموا أن الدين انما عاش فى ظلمات العصور الوسطى فحسب أو يعيش فى ظلمات كظلماتها ، وأنه فى العصور الحديثة مخدر أو معوق للفرد والمجتمع ، لم يعرفوا الاسلام الصحيح النقى ، ولم يعرفوا حضـارته الزاهرة المتالقة فى العصـور الوســطى التى اقترنت بالظلمات عند غير المسلمين ، ومن ثم لم يتبينوا قدرة الاســلام المتجددة على الهداية والتقويم واطلاق الطاقات وبعث النهضات فى كل زمان ومكان ٠

وأولادهم على نحو الأربعمائة نســمة وأســكنوا (بالقشلة التى بالأزبكية ، وابن عبد الله بن سعود بدار عند (جامع مسكة) هو وخواصه من غير حرج عليهم ، وطفقوا يذهبون ويجيئون ويترددون على المشايخ (أى علماء الأزهر) وغيرهم ، ويمشون فى الأســواق ويشـترون البضــائع والاحتياجات » ٠ و (القشلة) منزل العسكر وقد تكون مأخوذة من (قشـــلاق) التركية أو من Castella الايطالية ومعناها قلعة ٠ وذكر المقريزى عن (جامع مسـكة) أنه « قرب (قنطرة اقسنقر) التى على الخليج الكبير خارج القاهرة أنشـأته السيدة مسكة حارية الملك الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م) واقيمت فيه الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة ٧٤١ هـ » وأقيم الجامع على حكر للسيدة نفسها « فلما عمرت الجامع بنى الناس حوله حتى صار متصلا بالعمارة من سائر جهاته وسكنه الأمراء والأعيان وانشأوا به الحمامات والأســواق وغير ذلك ٠٠٠ ونشأت (مسكة فى دار السلطان وصارت قهرمانة لبيت الســلطان يقتدى برأيها فى عمل الأعراس الســـلطانية والمهمات الجليلة التى تعمـل فى الأعيان والمواسم وترتيب شئون الحريم السلطانى وتربية أولاد الســـلطان ، وطال عمرها وصار لها من الأموال العظيمة ما يجل وصفه وصنعت برا ومعروفا كبيرا واشتهرت وبعد صيتها » (المقريزى : الخطط ــ القـــاهرة ١٣٢٥ هـ ــ جـ ٣ ص ١٨٩ ، جـ ٤ ص ١٢٣ ٠

ان المسلم المتدين فى عصرنا يغلب أن يكون « سلفيا » فى عقيدته وعبادته، لأن « السلفية » هى القريبة الى عقله المعاصر ، كما كانت قريبة لكل عقل فى زمان ٠٠٠ وقد أثرت السلفية فى مجتمعات المسلمين الحديثة والمعاصرة بما تناقله الحجيج عما ساد الحجاز من أمن تحت الحكم السعودى ٠٠٠ وبلغت الدعوة السلفية أنحاء بعيدة من العالم الاسلامى بجهود الجماعات السلفية التى قامت فى الكثير من بلدان المسلمين ـ وسيأتى الحديث عنها قريبا ، وكان لهذه الجماعات أثرها بين مسلمى العصر فى نشر الاتجاه الذى يدعو الى العودة الى الكتاب والسنة فى تفهم العقيدة والتعرف على أحكام الشريعة ٠ كما أعان انتشار التعليم والثقافة على النفور من الخرافة والحرص على تصفية ما علق بالعقيدة والعبادة من أكدار وأوهام ٠٠٠

وهكذا لم تعد « السلفية » ترادف الكفر كما « شنع المبطلون وأرجف أصحاب الأهواء والمطامع ، بل عرف مسلمو العصر أنها تعنى العقيدة الصحيحة الخالصة الصافية ، وتعنى العبادة الشرعية البريئة من البدع والمحدثات ٠٠٠ حتى رأينا كاتبا صحفيا مصريا فى أيامنا كان ماركسيا ثم اتجه الى الاسلام هو (جلال كشك) ، يفرد أربع مقالات مطولة فى مجلة (الحوادث) اللبنانية للحديث عن (الوهابيين) ، بعد أن تعاطف معهم فى كتابات له سابقة مثل كتابه (القومية والغزو الفكرى) ٠٠٠ لقد تهكم فى كتابه من دعاة القومية العربية الذين رآهم « وبقدر ما يعجبون بثورة (لورنس)، ويجعلونها بداية القومية ، نراهم يتنكرون للثورة الوهابية لمجرد أنها رفعت لواء الاسلام » ٠٠ والحق أن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خاطبت المسلمين أجمعين وان قامت بين مسلمى شبه الجزيرة بصفة أساسية بحكم وجود دعاتها فيها ، وكان تأثيرها أقرب الى المسلمين العرب خارج شبه الجزيرة بحكم الجوار واللغة ٠ وقد حملت الهدى والرشد والعزة للمسلمين والعرب بطبيعة الحال نتيجة لظروف قيامها لكنها لم تتجه يوما الى قصر الدعوة على العرب وحدهم أو حصرها فيهم ٠ ويسير جلال كشك قدما فى مقالاته الأربع نحو اجتلاء الحقيقة وتجليتها (١) ، فيقول فى مقالته الأولى : « سيقول الذين فى قلوبهم مرض : ولكن جيش الزناة العصاة انتصر ، وهزم جيش المسلمين التقاة الذين ارادوا أن يعيدوا العرب الى عصر الطهارة الأولى ـ عصر المجاهدين المؤمنين

---

(١) نشرت بمجلة (الحوادث) اللبنانية على التوالى ابتداء من ٢٧/٤/١٩٧٩ م ٠

المنتصرين الذين نشروا راية الاسلام وفى ظلالها قام مجد العرب (١) ٠ وهناك الف سبب بالطبع للاتجاه الذى اتخذه التاريخ ، ولكن هل صحيح انتصر العصاة ؟ اسألوا التاريخ والتفتوا حولكم : ماذا بقى من الدولة العثمانية المنتصرة ، وماذا بقى من (الوهابى) الذى هزم ؟ لم يكن العصر العثمانى على الوهابيين الا الزبد الذى يذهب جفاء ، أما ما جاء به (الوهابى) فقد مكث فى الأرض يعطى ثمره كل حين » ٠٠٠ ثم يقول فى مقالته الأخيرة من تلك الدراسة تعليقا على كلام الجبرتى عن المجيء (ببواقى الوهابية) الى مصر : « ومعذرة يا شيخ المؤرخين ، ان الحركات العقائدية الصادقة ليس لها (بواقى) فهى لا تستأصل لأنها كامنة فى ضمير الأمة لا يمكن اقتلاعها مهما تعرضت لصنوف القهر والبطش بل سرعان ما تنبث من جديد ! ألم يقل العرب (لم نر ابرك من بقية السيف) ! وها هو التاريخ شاهد ، فكم بقى من آل سعود ، وكم بقى من آل السلطان محمود ، أو محمد على وابراهيم وطوسون ؟؟ كلهم انقرضوا ، وسيبقى آل سعود كما قال مؤرخ غربى الى ما شاء الله ٠٠٠ ومن نسل تركى الذى هرب ليلا ستمتد الدوحة السعودية ، ومن الرياض ستنطلق حركة جديدة ٠ ولو امتد العمر بالجبرتى حتى كتب الجزء الخامس (من تاريخه) لسجل عودة الوهابيين قبل انقضاء ستة أعوام الى الرياض ثم سيطرتهم على شرق الجزيرة » !!

ونستطيع أن نتبين كيف يسير الزمن لصالح الدعوة « السلفية » ، حين نتذكر أن مؤرخا وسياسيا مصريا كان أحد أقطاب الحزب الوطنى وصاحب كتاب (تاريخ الحركة القومية) الذى يضم عدة مجلدات ، وهو ينتمى لجيل سابق ويطلق عليه جلال كشك (أستاذنا) وهو عبدالرحمن الرافعى (٢) « لا شك لعبت كتاباته دورا خطيرا وسيئا للغاية فى تشويه طبيعة المواجهة بين محمد على والحركة الوهابية » ـ على حد قول الصحفى المعاصر ٠ يقول فى المجلد الذى خصصه لمحمد على عن محمد بن عبد الوهاب ودعوته فقال : « دعا محمد بن عبدالوهاب

---

(١) يعنى الكاتب أن (مجد العرب) لم يقم تاريخيا الا بفضل الاسلام وعلى أساس هدايته وفى ظل حكمه ٠٠٠ وكل تطلعات العرب الى المجد على غير هدى الاسلام وانما كانت صيحات جوفاء وأضغاث أحلام وأوهام السراب!

(٢) توفى بمصر مؤخرا فى الستينات من هذا القرن الميلادى كما أذكر

الى الأخذ بتعاليمه (!) فنالت دعوته نجاحا بين أهل نجد ، وأخذ يكسب الأعوان والأنصار خلال عدة سنوات دون أن تأبه له الحكومة العثمانية . ولكن حدث يوما أن قدمت اليه امرأة متهمة بالزنا وثبتت عليها التهمة فأمر برجمها .... ولم تكن العقوبة مما تستسيغه النفوس (!!) فأحدثت استياء شديدا ، وانتهى نبأها الى حاكم الحسا الذى تمتد سلطته الى العينية فأرسل يتهدد الشيخ بالقتل اذا لم يرجع عن طريقته » ! وهكذا يتبين بجلاء ـ كما قرر جلال كشك بحق فى مقالته الأولى عن الوهابيين «ضعف معلوماته المؤلف عن الوهابية ، بل حتى ضعف معلوماته عن الاسلام ! ... وكأنه لم يسمع بهذه العقوبة (عقوبة رجم الزانى والزانية والمحصنين) من قبل ولا يعرف أنها من حدود الاسلام ، طبقت قبل محمد بن عبد الوهاب باثنى عشر قرنا ... ومن حقنا ، بل من واجبنا ، أن نأسف لأن هذه معلومات الرافعى فى الثلاثينات من القرن العشرين الميلادى ـ وقت نشر كتابه عن محمد على) ، بالمقارنة مع معلومات سلفه العظيم الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى العقد الثانى من القرن التاسع عشر (الميلادى) ! فان قيل أن الرافعى كان يكتب فى ظل عضبة الملك فؤاد (١) على الوهابيين الذين عادوا فوجدوا الجزيرة فى مطلع القرن العشرين ... فهو عذر أقبح من ذنب الجهل ، لأن الجبرتى عارض وقال الحقيقة كاملة فى ظل استبداد محمد على ، بل وفى ظل حالة حرب كان يخوضها هذا المستبد » .

وانما كان عبد الرحمن الرافعى فيما قرره فى « تاريخ الحركة القومية » يتابع خطى زعيم الحزب الوطنى محمد فريد (ت ١٣٣٨ ه / ١٩١٩ م) الذى خلف مصطفى كامل مؤسس الحزب (ت ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م) ، فقد كتب محمد فريد فى مؤلفه (تاريخ الدولة العلية) عن محمد بن عبد الوهاب ودعوته السلفية « الوهابيون قوم من العرب اتبعوا طريقة (!) عبد الوهاب (!) وهو رجل ولد بالدرعية بأرض العرب من بلاد الحجاز (!) وكان من وقت صغره تظهر عليه النجابة وعلو الهمة » ثم ينقل محمد فريد بيانا للشيخ عن دعوته

---

(١) هو أحمد فؤاد بن الخديوى اسماعيل تولى السلطة على مصر ١٣٣٩هـ واتخذ لقب (ملك) ١٣٤٠ هـ / ١٩٢٢ م وتوفى سنة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م وهو والد فاروق آخر حكام مصر من أسرة محمد على .

يذكر أنه نقله من كتاب (الخطط الجديدة التوفيقية) لعلى مبـارك (١) ، يعقب بقـوله : « ولما رأى السلطان محمـود أنه من الضرورى قمع هذه الفئـة التى يخشى من امتدادها على تفريق كلمة الاسلام ـ الأمر الـذى جعـله الأوربيون مطمع أنظارهم للتمكن من خضم عرى اتحادهم وامتلاك بلادهم ، ولبعد ولايات الشام وبغداد عن مركز الفتنة (١) كلف محمد على باشـا والى مصر ومؤسس عائلتها الخديوية بمحاربتها واسترجاع مكة المشرفة والمدينة المنورة من أيدى زعمائها وأرسل اليه فرمانا بذلك فى ذى القعدة سنة ١٢٢٢ هـ/ الموافق ديسمبر سنة ١٨٠٧ م » · ثم يذكر محمد فريد « استئصال شـافة الوهابيين » فى نظره على يد ابراهيم بن محمد على الذى عاد لمصر فى ٢١ من صفر سنة ١٢٣٥ هـ / الموافق ١٠ من ديسمبر سنة ١٨١٩ م · وهكذا يرى محمد فريد خطر تفرق كلمة المسلمين فى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مما يتيح ثغرة للمطامع الأوربية الاستعمارية ، ولا يرى أن تخلف المسلمين وانحطاطهم ببقائهم على الخرافات والأوهام هو أكبر ثغرة يمكن أن تنفذ منها تلك المطامع وتستغلها لصالحها أكبر استغلال ! ··· وقد ينبغى أن لا يغيب عن الأذهان موقف الحزب الوطنى من الدولة العثمانية ، ونهجه السـياسى فى محاربة الاحتلال البريطانى بمصر بالاستناد الى الولاء للدولة العثمانية وتأكيد تبعيـة مصر الشرعية لهـا ·

والكاتب الصحفى جلال كشك يقول ابناء فورة حماس فى الحلقة الأخيرة من دراسته عن الوهابيين « ولا أحد يسـتطيع أن يبالغ فى ضـخامة التحول التاريخى الذى كان يمكن أن يتحقق لو قام تحالف بين محمـد على والدولة السعودية المستقلة ضد السلطان عندما بدأ محمد على فتوحاته للشام » ، وهو فى هذا على رأى المؤرخ المصرى المبرز محمد شفيق غربال (٢) ··· ويبـدو فى هذا الرأى تسوية بين الدولة السعودية بشـبه الجزيرة ودولة محمد على بمصر وهى تسوية تهدر الأساس العقيدى الاسلامى للدولة الاسلامية والأساس

---

(١) مهندس مصرى تولى نظارة المعارف للخديوى اسماعيل بن ابراهيم ابن محمد على (عزل اسماعيل ١٢٩٦ هـ / ١٨٧٩ م وتوفى ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م) وكان لعلى مبارك جهوده فى اقامة القناطر الخيرية ودار العـلوم ودار الكتب المصرية وغير ذلك · وقد توفى على مبارك سنة ١٣١٠هـ / ١٨٩٣م ·

(٢) انظر كتاب غربال : (محمد على) من سلسلة « أعلام الاسـلام » التى أصدرتها دار احياء الكتب العربية بالقاهرة ·

العلمانى للدولة العلوية ، وتسوى بين الدولتين لمجرد أنهما دولتان ناشئتان اقيمتا بجهود (عصامية) من مؤسسيها !! ولو صحت التسوية لاستوت دول الأرض جميعا ــ اسلامية ونصرانية ويهودية ، وشيوعية ورأسمالية وغيرها ــ لمجرد أنها دول قامت ، أيا كان أساس قيام كل منها !! ··· والحق أنه ما كان يمكن أن يقدم بحال مثل هــذا التحالف والتناقض بين الدولتين على هــذا النحو ··· ولو كان عند الدولة السعودية السلفية قابلية للتحالف لأجل المصالح وبهدف تأمين الدولة الناشئة ولو تنكرت للأســس العقيدية التى قامت عليها لكان الأولى أن تبقى على تحلفهـا مع غالب شريف مكة وتغض الطــرف عن مخالفاته الشرعيــة ومظـــالمه للرعيـــة !! ··· ثم ما الذى يبرز أن يتحالف السعوديون مع محمد علي ضد السلطان العثمانى ، وقد أقاموا دولتهم لتكون دولة اســلامية شرعية ، وتســتوى فى نظرتها مخالفات الدولة العثمانية مع الدولة العلوية فى انحرافهما عن الحكـم الشرعى الواجب ، وان كان لابد من تفضيل للتحالف فقد يبدو أسلم منطقا أن تؤثر التحالف مع الدولة العثمانية !! وانما يفكر فى ايثار تحالف السعوديين ومحمد على الذين يحلمـــون بالدولة القومية العربية ، وانما كان الشـغل الشاغل للدولة الســعودية الأولى هـــو الاسلام الصحيح !! وعلى كل حال ، فان الدولة العثمانية كانت هى التى بادرت الى اعلان العداء والحرب ، وجندت لذلك محمد على الذى وافقها على ما تريد لحاجات ومآرب ومصالح ومطامع !!

ويذكر الكاتب فى ختام دراسته أن « الشهادة واجبة لمحمد على والأمراء السعوديين الذين أدركوا فى السنوات الأخيرة أنهم كانوا جميعا ضحايا (لعبة الأمم) ، وأن الخطر البريطانى الزاحف يفرض عليهم الوحدة ونسيان الماضى ·· فما أن أجبر محمد على بحكم المواجهة مع بريطانيا وروسيا فى الشـــام على تخفيف وجوده فى الجزيرة العربيـــة حتى حرص على أن يتولى الأمير خالد ابن سعود حكم الحجاز ··· فلما انسحب كليا بموجب معاهدة سنة ١٨٤٠ م حرص على دعم الوجود السعودى بالجزيرة فأطلق سراح الأمير فيصل بن تركى من ســجنه بالقلعة فى القاهرة الى الحكم فى نجـد ··· فدخل الرياض فى ٢٢ مايو سنة ١٨٤٢ م (ربيع ثان ١٢٥٩ هـ) وبقى فى الحكم ٢٢ سنة » ·

ومن الواضح أن (محمد على) لم يخفف ضغطه على السعوديين ويترك لهم فرصة للعودة الى الحكم بشبه الجزيرة العربية الا نتيجة اضطرار ، وقــد

فعل ذلك تحقيقا لمصالحه السياسية لا اقتناعا بدعوتهم ومبادئهم ٠٠٠٠ ولم يكن اعادة الحق الى نصابه وارجاع المنفى والأسير الى بلدهما ليعنى حلفا من جانب العائد الى بلده المستعيد لحقه مع محمد على ، وما كان من المعقول أن يمتنع عن الرجوع الى بلده وحكمه حتى ينفى شبهة التحالف ٠٠٠٠ وتفسير كل شيء على انه لعبة محلية استعمارية ينبغى الا يعنى اعفاء المسئول عن الوزر والجرم ، والتسوية بين الجانى والمجنى عليه بدعوى انهما كانا معا ضحية « لعبة الأمم » !!

ولكن يبقى مع هذا كله (جلال كشك) صاحب هذه الدراسة ، عنوانا لاتجاه المثقفين المعاصرين نحو تصحيح المفاهيم السائدة وتفهم الدعوة السلفية والاقبال على عقيدة الاسلام الصحيحة كما جاء بها الكتاب والسنة وادراك حقائق التاريخ ورفض كل ما زيف به الاسلام وتاريخه !!

تاثير الدعوة السلفية على علماء الدين والمفكرين المسلمين وعلى تعليم الدين في المجتمعات المعاصرة :

يمكن اجمال عقيدة الاسلام كما أوضحتها الدعوة السلفية بناء على ما جاء فى الكتاب والسنة فى أصلين كبيرين : **اخلاص العبادة لله** ، وتوحيده توحيد الربوبية بالاقرار له بالخلق والرزق وما اليهما وتوحيد الألوهية بافراده بالعبادة والطاعة ـ وهذا معنى شطر شهادة الاسلام « **لا أله الا الله** » **، ثم اتباع ما جاء به رسول الاسلام** صلوات الله عليه لعبادة الله وطاعته ، حتى يؤدى ذلك على هدى الكتاب والسنة وبناء على ما أمر به الذى نزل الكتاب المبين وبعث النبى صلى الله عليه وسلم نورا واسوة ورحمة للعالمين دون مروق أو ابتداع ـ وهذا معنى الشطر الآخر من شهادة الاسلام « **محمد رسول الله** » صلوات الله عليه ٠ وهذه العقيدة فى جلائها ورشدها كانت قد حجبها ركام من الشوائب والأباطيل والضلالات خلال القرون ، فلما جلتها الدعوة السلفية للأبصار والبصائر ونفت عنها الأكدار ووصلت الناس بينابيعها الصافية الفياضة ، كان لذلك آثاره الجلية على المتخصصين فى علوم الدين والمفكرين المسلمين كما كان له آثاره على المسلمين العاديين فى المجتمعات المعاصرة ، على الرغم من تصدى البعض منهم للدعوة السلفية ولا سيما حين صدمت الناس فى أول عهدهم بها بما هم عليه من باطل وما تغلغل فى مجتمعاتهم من أوهام وما توارثوه من ضلالات !!

وكان ممن تأثر بالدعوة السلفية من علماء الاسلام وآمن وعمل لهـــا القاضى **محمد بن على الشوكانى** باليمن المتوفى سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م ، وهو لم يلتق بالشيخ محمد بن عبد الوهاب شخصيا لكن بلغته دعوته التى عمت شبه الجزيرة بل تجاوزتها الى غيرها من انحاء العالم الاسلامى · والشوكانى هو صاحب الكتاب الجليل النافع المعروف « نيل الأوطار » الذى شرح فيـــه كتاب « منتقى الأخبار » وهو كتاب جامع للكثير من احاديث الاحـــكام التى انتقاها محمد الدين عبد السلام بن تيمية (المتوفى سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م) وهو جد الامام المشهور تقى الدين احمد بن تيمية ، وله كتاب قيم فى اصول الفقـه ايضا هو « ارشاد الفحول الى تحقيق الحق فى علم الأصـــول » الى جانب مؤلفات كثيرة اخرى ، منها « القول المفيد فى حكم التقليد » · وقد اجتهد فى استنباط الأحكام الشرعية من السنة فى « نيل الأوطار » غير متقيــد بمذهب فقهى ، وحارب التقليد ودعا الى الاجتهاد فثار جدال عنيف بينه وبين معاصريه من العلماء ولا سيما فى صنعاء · وقد الح فى الدعوة الى تصحيح العقيــدة وترك البدع ولا سيما ما يفعله القبوريون والمتصوفة ، فهو يقول مثلا فى « نيل الأوطار » :

« وكم سرى عن تشـــييد ابنية القبـــور وتحسينها من مفاسد يبـــكى لها الاسلام (منها) اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام ، وعظم ذلك فظنوا انها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر ، فجعلوها مقصدا لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجح المطالب ، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم ، وشدوا اليها الرحال وتمسحوا واستغاثوا ، وبالجملة فانهم لم يدعوا شيئا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام الا فعلوه ، فانا لله وانا اليه راجعون · ومع هـــذا الفكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ويغار حمية للدين الحنيف ، لا عالما ولا متعلما ولا اميرا ولا وزيرا ولا ملكا ! وقد توارد الينا من الأخبـــار ما لا يشك معه أن كثيرا من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم اذا توجهت عليه يمين من قبل خصمه حلف بالله فاجرا ، فاذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك ومعتقدك الولى الفلانى تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق ، وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال انه تعالى ثانى اثنين وثالث ثلاثة ! فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين ، اى رزء للاسلام أشد من الكفـــر ، وأى بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ، وأى مصيبة يصاب بها المسلمون

تعدل هــذه المصــيبة ، وأى منكر يجب انكار ان لم يكن انكار هذا الشرك المبين ؟؟ !! » (١) ٠

واذا كان صوت الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى قلب شبه الجزيرة قد وصل الى اليمن على هذه الدرجة من الوضوح والقوة ، وكان له مثــل ذلك الأثر الفعال ، فكيف بصوت الشوكانى هناك ؟؟ ٠٠ لقد كان له دون شك دويه واثره فى اقناع الكثيرين باليمن ٠٠٠ وفى مصر اشاد بالشوكانى الشــيخ محمد عبده « هذا الشوكانى لما كسر قيود التقليد صار عالما وفقيها » ! (٢) ٠



وفى مصر كان تاثر محمد عبده (المتوفى ســنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م) بالدعوة السلفية واضحا ، وكان تاثر تلميذه محمد رشيد رضا (المتــوفى سنة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م) بهذه الدعوة أوضح وأقوى ٠٠٠٠ يقول رشــيد رضا عن محمد عبده انه « كان اشعريا صوفيا ثم صار بالتدريج سلفيا » (٣)٠ يقول محمد عبده ان أول ما عنى به ودعا اليه هو « **تحرر الفكر من قيــد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجــوع فى كسب معارفه الى ينابيعه الأولى** ٠٠٠ » (٤) فقد هاجم محمد عبده البــدع وما دخل على عقيدة الاسلام الصافية من فساد باشراك الأولياء وسكان القبــور مع الله ــ على الرغم من نزعة صوفية كامنة فى أعماق الرجل اشار اليهــا تلميذه رشيد رضا كما سلف ، كما هاجم التقليد ودعا الى فتح باب الاجتهاد « ففى دروسه فى التفسير التى كان يلقيها فى الرواق العباسى بالأزهر ، كان ينتهز كل اشارة لآية ولو من بعيد تندد بالشرك فيفيض فى الحملة على عبادة الصالحين وزيارة القبور والشفاعة والتوسل وما الى ذلك ٠ فيطيل الوقوف

---

(١) الشوكانى : نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ــ المطبعــة الأميرية بالقاهرة ــ جـ ٣ ص ١٣٤ ٠

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام ــ طبعــة دار المنــار بالقاهرة ــ ص ٩٤٢

(٣) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام ــ مطبعة المنار بالقــاهرة جـ ١ ص ٢٠ وما بعدها ٠

(٤) احمد امين : زعماء الاصلاح ــ القاهرة سنة ١٩٦٥ م ص ٣٢٧ ٠

مثلا عند قوله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب) (البقرة/١٦٥) ، فيقسم الشيخ الأنداد الى قسمين · هؤلاء الشفعاء الذين اتخذهم الناس وسيلة للقرب من الله يستقضونهم فى الحوائج ، وهؤلاء الذين يقلدون فى الدين يتخذ قولهم شرعا من غير حجة ولا برهان · وتظهر فلسفته فى بيان الأضرار النفسية من هذه العقائد ، فهى تورث الذل وتخضع الناس للحكام الظالمين وتحط النفوس الى الدرك الأسفل ، ثم هى تضر اجتماعيا باعتماد الناس على هؤلاء الأولياء بتركهم القوانين الطبيعية التى جعلها الله أسبابا لابد منها لحصول المسبب ، فالزراعة انما تنجح بالحرث والتسميد والبذور والسقى لا بالاستغاثة بولى ، والحرب انما تكسب باتخاذ سلاح مجهز على آخر طراز كسلاح العدو واعداد العدة الكاملة كما يفعل العدو لا بالاستعانة بأهل القبور ، وفضيلة المسلم أن يستعين بعد ذلك كله بالله وحده يطلب منه أن يثبت قلبه ويلهمه التوفيق · وهكذا كان يفيض مفندا آراء من يقول بالتوسل والشفاعة (التى نفاها الاسلام) والتقليد · وينتهز فرصة وجود جماعة من العلماء عنده فى يوم مولد النبى ودعوته للعشاء عند أحد المحتفلين فيبين لهم أن هذه الموالد كلها منكرات ويتمنى لو أنفق ما يصرف فى الموالد على تعليم الفقراء ، (ويمتنع) الشيخ وحده (عن العشاء) · ويضع تفسيرا لجزء (عم) للناشئة فيلقى كل وسيلة للحملة على كل ما يشوب التوحيد من شرك بعبادة المشايخ والقبور والأضرحة ···· راجيا أن ينشأ الشباب نشأة دينية صحيحة خيرا مما عليه آباؤهم » (١) ·

وحين كان محمد عبده منفيا فى بيروت عقب الثورة العرابية وما انتهت اليه من الاحتلال البريطانى لمصر ، قام بالتدريس سنة ١٣٠٣هـ فى (المدرسة السلطانية) هناك حيث أملى على طلابه « رسالة التوحيد » ، وقد كان وقتها فوق الثلاثين بقليل ، وما يزال متأثرا بالنهج الأشعرى فى كتب التوحيد الا أن رسالته تحمل نبض الدعوة السلفية ، فهو يقول مثلا « والذى علينا اعتقاده أن الدين الاسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد ، العقل من

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤ ·

اشد اعوانه والنقل من اقوى اركانه ، وما وراء ذلك فنزغات شـــياطين او شهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل بعمله قاض عليه فى صوابه وخلطه ···· ونهانا (الكتاب عن التقليد بما حكى عن احوال الأمم فى الأخذ بمـــا عليه آباؤهم ، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقادتهم ··· فان التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل ، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار ، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الانسان » (١) ·

لكن يبدو واقتفاء محمد عبده للنهج الأشعرى فى دراسة التوحيـــد فى كلامه عن « احكام الواجب » من القدم والبقاء ونفى التركيب (٢) ·

والتدليل المنطقى على هذا وتطبيق هذه الصفات على « واجب الوجود » وهو الله سبحانه · ولم يكن هذا هو نهج السلف رضوان الله عليهم فى الكلام عن الله عز وجل وصفاته ، ويجلى ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فيقول فى رسالته لمطوع المجمعة « ··· ان مذهب الامام احمد وغيره من السلف انهم لا يتكلمون الا بما يتكلم الله به ورسوله ، فما اثبته الله لنفسه او اثبته رسوله اثبتوه ـ مثل الفوقية والاستواء والكلام والمجىء وغير ذلك ، وما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله نفوه مثل المثـل والند والمسمى وغير

---

(١) محمد عبده : رسالة التوحيد بتحقيق محمود ابو رية ـ ط ٤ ـ دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧١ م ·

(٢) المرجع السابق ص ٤٣ ـ ٤٤ · وانظر ايضا ما ذكره عن « خـلق القرآن » وانه قد انتصر له » جمع من خلفاء العباسيين وامسك عن القــول المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة او المتعففين عن النطق بمـا فيه مجـاراة البدعة ، واهين من ذلك رجال من اهل العلم والتقوى وسفكت فيه دماء بغيـر حق ، وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين » ص ٣١ ، وقد كتب محقق الكتاب فى الحاشية نقلا عن رشيد رضا : « التحقيق أن كلا القولين (أى خلق القرآن وأزليته) مبتدع لم يقل به احد من الصحابة والتابعين » ويرى محمد عبده أن « اباء بعض الأئمة أن ينطبق بأن القرآن مخلوق كان منشؤه مجـرد التحرج والمبالغة فى التأدب من بعضهم » جـ ١١ ص ٥٦ ، ٥٧ ، وذكر محمد عبده للشيخ محمد محمود الشنقيطى « اننى خالفت فى هذه المسالة بخصوصها لأهميتها ولاشتباه كثير من الناس فيها » ـ تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٩٣ ·

والاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل وتغرير بالشرع ، لأن استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة ذلك ، وأما ما لا يوجد عن الله ورسوله اثباته ونفيه مثل الجوهر والجسم والعرض والجهة وغير ذلك لا يثبتونه ولا ينفونه ··· والواجب عندهم السكوت عن هذا النوع اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم » (١) ·

ومحمد عبده يرتئى التوقف فيما ورد فى القرآن من صفات الله ، بل يكاد يميل الى عدم أخذ الألفاظ بظاهرها · يقول « فالذى يوجبه علينا الايمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات ، أزلى أبدى (٢) حى عالم مريد قادر ، متفرد فى وجوب وجوده وفى كمال صفاته وفى صنع خلقه ، وأنه متكلم سميع بصير وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه · أما كون الصفات زائدة على الذات ، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية ، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ـ ونحو ذلك من الشئون التى اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب ، فمما لا يجوز الخوض فيه اذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل اليه · والاستدلال بشيء منه بالألفاظ الواردة ضعف بالعقل وتغرير بالشرع ، لأن استعمال اللغة لا تنحصر فى الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى ، وانما تلك من مذاهب فلسفة ان لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع · فما علينا الا الوقوف عندما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا من الخائضين » (٣) ·

ويتناول محمد عبده » أفعال العباد » ومسألة « كسب » العبد لأفعاله التى قال بها الأشاعرة مقابل « خلق الأفعال » عند المعتزلة فيقول « ···· فجاءت الشريعة الاسلامية بمحو (الشرك الذى كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم) ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية الى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية : الأول أن العبد

---

(١) مؤلفات الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب ـ القسم الخامس (الرسائل الشخصية) ص ١٣٠ ـ ١٣١ ·

(٢) يؤثر السلف وتابعهم وأن يسمى الله بما سمى به نفسه ، فيقولون هو (الأول والآخر) بدلا من (أزلى أبدى) ·

(٣) رسالة التوحيد ص ٦٢ ·

يكسب بارادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته ، والثانى أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه · جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه الى اتمام عمله بعد احكام البصيرة فيه وتكليفه بأن يرفع همته الى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد فى تصحيح الفكر واجادة العمل ، ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب الى غير ذلك · وهذا الذى قررناه قد اهتـــــدى اليه سلف الأمة فقاموا من الأعمـــــال بما عجبت له الأمم » (١) ·

ثم يعرض محمد عبده لرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقـــول : « نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم ، وفى المشبهن بالتطهـر من تشبيههم ، وفى الثنوية بافراد اله ولحد بالتصرف فى الأكوان ورد كل شيء فى الوجود اليه ، أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصـــــائرهم الى ما وراء حجاب الطبيعة يتنوروا سر الوجود الذى قامت به ، صاح بذوى الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة فى الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السمـــوات والأرض والقابض على أرواحهم ···· تناول المنتحلين منهم لرتبة التوسـط بين العباد وبين ربهم الأعلى فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنـــور الوحى أن نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم ، مطالبهم بالنزول عمـــا انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية الى أدنى سلم من العبودية والاشتراك مع كل ذى نفس انسانية فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخــلق فى النسبة اليه لا يتفاوتون الا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم وفضيلة ، وفخر بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا به ،

---

(١) المرجع نفسه ص ٧١ ـ ٧٢ يشير محمد عبده فى آخـر كلامه الى أن هذا كان ما تحول عليه امام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن أبى محمـــد عبد الله بن يوسف الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م ، وهو متكلم عـلى مذهب الأشعرى وله نزعة صوفية ، له كتاب « الارشاد الى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد » ، « الشامل فى أصول الدين » ، « لمع الأدلة فى قواعد عقـائد أهل السنة والجماعة » ، « البرهان فى أصول الفقه » ، « نهاية المطلب فى دراية المذهب » ، وله « رسالة فى التقليد والاجتهاد » ·

ما أودع فيه من المواهب الالهية ودعا الناس اجمعين ذكورا وأناثا عامة وسادة الى عرفان أنفسهم ٠٠٠٠ وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهـــم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد الا الاعتـــدال ويحلوا اغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل ٠٠٠٠ ولغة كل انســـان الى والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ٠٠٠ » (١) ٠

ويذكر محمد عبده عن « الاسلام » انه اجتث جذور الوثنية وما اليها ، « مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل أو العبادة واللفظ ، لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة ٠ تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام ، وتخلصت تلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودية وعليهم وارتفع شأن الانسان بما صار اليه من الكرامة بحيث اصبح لا يخضع لأحد الا لخالق السموات وقاهر الناس اجمعين ، واتيح لكل احد بل فرض عليه أن يقول كما قال ابراهيم (انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما انا من المشركين) ٠٠٠٠ تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة ، واطلقت ارادته من القيود التى كانت تعقدها بارادة غيره : سواء كانت ارادة بشرية ظن أنها شعبة من الارادة الالهية ، او انها هى كارادة الرؤســـاء والمسيطرين ، ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها ، وامتكث عزيمته من اسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعـــرفاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلى حق الولاية على اعمال العبـد فيما بينه وبين الله الزاعمين انهم واسطة النجاة وبايديهم الاشقاء والاســعاد ٠ وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين » ٠ صـــــار الانسان بالتوحيد عبد الله خاصة ، حرا من العبودية لكل ما سواه ، فكان له من الحق ما للحر على الحر ، لا على فى الحق ولا وضيع ، ولا تفـــاوت بين الناس الا بتفاوت أعمالهم ، ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ٠٠٠٠ أنحى الاسلام على التقليد وحمـــل عليه حملة بددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت اصوله الراســخة فى المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان من عقائد الأمم » ٠ وتذكر حواشى الرسالة أن محمد عبده ذكر من دعائم التقليد فى درسه الشفهى : احتـــرام

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٣٨ ــ ١٣٩

المرء لآبائه وأسلافه وشيوخه ومعلميه ، واعتقاد عظمة السابقين من رجـــال الدين (ويقصد المنسوبين اليه من علماء وصالحين) ، ثم الخوف من انكـار الناس عن قول الحق « فمن لم يحترم نفسه ويمرنها على الأخذ بما يعتقد انه الحق وان خالف الآباء والمعلمين والأحياء والأموات وغير المعصــومين من الخطأ فلا يمكنه أن ينطلق من قيود التقليد » • كما تذكر الحواشى أن صاحب الرسالة بين مفاسد المنتسبين الى « الطرق الصوفية » واختلافهم عندما ذكر « الاختلاف فى المعبودين وعليهم » (١) •

ويقول فى صدد الكرامات ان البحث فى جواز وقوعهـــا هو نوع من « البحث فى متناول هم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير وفى مكان الأعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الالهية ، وهو بحث دقيق ••• وأما محرر الجواز العقلى وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الالهية فلا أظن انه موضوع نزاع يختلف عليـه العقلاء • وانما الذى يجب الالتفات اليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على انه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الاسلام ••• ان هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام حيث يظنـــون ان الكرامات وخوارق العادات أصـــبحت من ضروب الصناعات تتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء وفق مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون » !

وكان محمد رشيد رضا أعلم بنهج السلف وأحرص على الالتزام من شيخه محمد عبده رحمه الله ، فقد عمد الى مزيد من العناية بالسنة فى تفسير القرآن بعد وفاة شيخه محمد عبده ، ولا يقنع ببيان الدلالة العـــامة للآيات ومراميها الأخلاقية والاجتماعية • يقول رشيد رضا فى مفتتح الجزء الأول من « تفسير المنار » : « وانى لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيرا لهـــا أو فى حكمها » فقد اشتغل رشيد رضا بدراسة السنة ، وتبين أهميتها ومكانتها

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٥٠ ـ ١٥٢ وانظـــر الهامشتين ص ١٥٠ ، ص ١٥٢ •

والحاجة اليها ، كذلك عنى فى تفسيره بالتوسع ايضا « فى تحقيــــق بعض المفردات أو الجمل اللغوية وفى الاكثار من شواهد الآيات وتحقيق مســــائل تشتد حاجة المسلمين اليها او حل بعض المشكلات » ، وهو فى بيان مســــائل العقيدة تتضح سلفيته النقية التى لا تشوبها شائبة ، فهو يقول مثلا « الكافرون بآيات الله تعالى صنفان : صنف يكذبها كلها ولا يؤمن بشىء منها ، وصــنف يشرك بالله غيره فيخله ما هو خاص به عز وجل لا يقدر عليه سواه ، بدعوى ان الله تعالى هو الذى أعطاهم القدرة الغيبية على ذلك وصرفهم فى العــــالم كرامة لهم ، أى هو الذى اشركهم معه كما كان المشركون يقولون فى حجهم : لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، وانما يتحامون الفـــاظ العبادة والشرك والخلق دون معانيها ، فيكذبون على الله تعالى وعليهم بما يكذبهم به كتابه المنزل ونبيه المرسل ٠٠٠ ان افساد هؤلاء الخرافيين للبشر فى دينهم ودنياهم لأشد من افساد المنكرين للآيات المكذبين بها ، ذلك بأنهم هم اكبر أسباب الانكار والتكذيب بزعمهم ان الأنبياء ومن دونهم من الصالحين يتصرفون فى الخلق بما يخالف سنن الله تعالى فيه او يبدلها بغيرها ويحولها عمـــا وضعت له ، وزعمهم ان الله هو الذى دعا الناس الى هذا الاعتقاد وجعــله أساس دينه ، فكذبوا بالدين من أساسه ٠ فدعوى تصرف الأنبياء والصالحين فى الكون قول على الله بغير علم ، وهو اشد انواع الكفر بالله لأن ضرره متعد بما فيه من اضلال الناس باعتقاد باطل تتبعه عبادة باطلة غير مشروعة ٠ أما الذين يشركون بالله فى عبادته بجهلهم لآياته وتقليد أمثالهم من الجاهلين فى خرافاتهم فلا علاج لهم الا تعليمهم توحيد الله الخالص فى ربوبيته والوهيتـه بآيات القرآن دون نظريات كتب الكلام ، وتعليمهم وظائف الرسل وكونهم بشرا اختصهم الله بوحيه لتبليغ عبادة ما ارتضـــاه لهم من الدين بالقول والعمل ، وحصر اختصاصهم بالتعليم والارشاد تبشيرا وانذارا وتنفيذ أحكام شرعــه فيهم بالعدل والمساواة ، ولم يؤتهم من التصرف الفعلى فى خلقه ما يقدرون به على هداية اقرب الناس وأحبهم اليهم بالطبـــع كالوالد والولد والزوجة ومن دونهم من أولى القربى » (١) ٠

---

(١) محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ـ المكتب الاســلامى : بيروت ص ٢١٥ ـ ٢١٦ ٠

وهو يقول عن « الكرامات » : « واذا كان لا يجب على مسلم أن يؤمن بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، فلا يفد مسلما فى دينه أن يعتقد كما يعتقد أثر عقلاء العلماء والحكماء من أن ما يدعيه الناس من الخوارق فى جميع الأمم اكثره كذب وبعضه صناعة علم أو تاثير نفس أو شعوذة سحر ، واقله من خواص الأرواح البشرية العالية وعلامته أن يكون علما صحيحا موافقا للمفعول الشرعى والمعقول القطعى ، أو عملا نافعا مشروعا ، وأن يكون من صدر عنه مؤمنا عاقلا صالحا • فكل ما ينقله المتصوفة مخالفا لذلك من التصرف الضار بالناس فى دينهم أو صحتهم • فهو — ان صح — من تاثير الأنفس الخبيثة » (١) •

ويقول فى موضع آخر : « •••• ثم نكس المسلمون على رءوسهم الا قليلا منهم واتبعوا سنن من قبلهم من اهل الكتاب وغيرهم فى التقليد لآبائهم ومشايخهم المنسوبين الى بعض ائمة علمائهم والذين نهوهم عن التقليد ولم يامروهم به ، فابطلوا بذلك حجة الله تعالى على الأمم التى وكل الله دعوتها اليهم وصاروا حجة على دينهم ، فكيف يدعون اليه وحجته القرآن وهم يحرمون الاهتداء به ، حتى أن أدعياء العلم الرسمى (أى أصحاب الشهادات من المعاهد الرسمية) فيهم ينكرون اشد الانكار على من يدعونهم الى اتباع كتاب الله وهدى رسوله وسيرة السلف الصالح من أهله ، ونحن معهم فى بلاء وعناء نقاسى منهم ما شاء الجهل والجهد من استهزاء وطعن وايذاء وتهكم بلقب (المجتهد) الذى احتكره الجهل لبعض المتقدمين من العلماء •••• وانما تروج البدع فى سوق التقليد الذى يتبع اهل كل ناعق •••• ونحن دعاة العلم الصحيح والاهتداء بالكتاب والسنة احق منهم باتباع الأئمة ، ولا نعنى بالاهتداء بالكتاب والسنة أن كلا منهم امام مجتهد مطلق كمالك والشافعى فهذه أعلى درجة فى العلم ، والعلم درجات كما قال الله عز وجل ، وقد كان يوجد فى السلف قبل تدوين المذاهب عوام وخواص كلهم يهتدون بهما (أى بالكتاب والسنة) • وصاحب (المنار) قد وقف نفسه على الرد على جميع الملاحدة والبهائية والقاديانية والقبوريين وسائر مبتدعة عصرنا ، وهو لم

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣١ •

يدع مذهبا له يدعو اليه ولم يخالف اجماع الأمة ولا فرق عنده بين الأئمة ـ ولله الحمد والمنة » (٢) ٠

وتنتشر روح السلفية وريحانها من كل كلمة وعبارة مما سبق ، وكل كتابات محمد رشيد رضا فى (المنار) ومؤلفاته تشهد بفهمه السلفى الدقيق والخالص فى الدعوة الى تصحيح الاعتقاد بحيث يطابق ما فهمه السلف من الكتاب والسنة ، وكلامه عن التقليد يذكرنا بكلام الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمهما الله تعالى حيث يقول « ولست ولله الحمد ادعو الى مذهب صوفى او فقيه أو متكلم أو امام من الأئمة الذين اعظمهم مثل ابن القيم والذهبى وابن كثير وغيرهم ، بل ادعو الى الله وحده لا شريك له وأدعو الى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى اوصى بها أول أمته وآخرهم ، وأرجو انى لا أرد الحق اذا أتانى بل أشهد الله وملائكته وجميع خلقه ان أتانا منكم كلمة من الحق لأقبلنها على الرأس والعين ولأضربن الجدار بكل ما خالفها من أقوال أئمتى حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لا يقول الا الحق ٠٠٠٠ والحاصل أن صورة المسألة : هل الواجب على كل مسلم أن يطلب علم ما انزل الله على رسوله ولا يعذر أحد فى تركه البتة ؟ أم يجب عليه أن يتبع (التحفة) (١) مثلا ، فاعلم أن المتأخرين وسادتهم منهم ابن القيم قد انكروا هذا غاية الانكار وأنه تغيير لدين الله واستدلوا على ذلك بما يطول وصفه من كتاب الله الواضح ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم البين لمن نور الله قلبه ٠ والذين يجيزون ذلك أو يوجبونه يدلون بشبه واهية لكن أكبر شبههم على الاطلاق أنا لسنا من أهل ذلك ولا نقدر عليه ، ولا يقدر عليه الا المجتهد ، وانا وجدنا اباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ، ولأهل العلم فى ابطال هذه الشبهة ما يحمل مجلدا ٠٠٠ واما هذا الخيال الشيطانى الذى اصطاد به الناس أن من سلك هذا المسلك فقد نسب نفسه للاجتهاد وترك الاقتداء بأهل العلم

---

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥ ٠

(١) يقصد كتاب « تحفة المحتاج لشرح المنهاج » لأحمد بن حجر الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٧م ، فقيه شافعى مصرى و « المنهاج » هو « منهاج الطالبين » فى الفقه الشافعى لمحى الدين يحيى بن شرف الدين النووى المتوفى سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م ٠

وزخرفه بانواع الزخارف فليس هذا بكثير من الشيطان وزخـــارفه (يوحى بعضهم الي بعض زخرف القول غرورا) ، فان الذي انا عليه وادعوكم اليـــه هو فى الحقيقة الاقتداء بأهل العلم فانهم قد وصوا الناس بذلك ، ومن اشهرهم كلاما فى ذلك امامكم الشافعى قال : لابد أن تجبط عنى ما يخالف الحديث فكل ما خالفه فاشهدكم انى قد رجعت عنه ، وايضا انا في مخالفتى هذا العالم لم اخالفه وحدى ٠٠٠ قلت : انا لم اخالف الشافعى من غير امام اتبعته بل اتبعت من هو مثل الشافعى او اعلم منه قد خالفه واستدل بالأحاديث ٠٠٠٠ واتبعت قول الله تعالى (فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول) ٠٠٠٠ ولا خلاف بينى وبينكم ان اهل العلم اذا اجمعوا وجب اتباعهم ، وانما الشأن اذا اختلفوا هل يجب علي ان اقبل الحق ممن جاء به وارد المســــــألة الى الله والرسول مقتديا بأهل العلم او انتحل بعضهم من غير حجة وازعم ان الصواب فى قوله ؟؟ فانتم على هذا الثانى – وهو الذى ذمه الله وسماه شركا وهـــو اتخاذ العلماء اربابا ، وانا على الأول ادعو اليه واناظر عليه ٠٠٠٠ » (١) ٠

ويذكر محمد رشيد رضا فى شأن (الطرق الصوفية) انه « طالما فكـر محبو الاصلاح من عقلاء المسلمين فى اصلاح شأن المنتمين الى الطرق الصوفية وانقاذهم من خيالاتها الفاسدة وبدعهم الفاضحة ، بل اخراجهم من جحر الضب الذى دخلوه وهم لا يشعرون ، فلم يهتد احد الي ذلك سبيلا ٠ ولما هاجرت الى مصر سنة ١٣١٥هـ كان أول اصلاح سعيت اليه أن حاولت اقناع شيخ مشايخ الطرق الصوفية (الشيخ البكرى) بالقيام بهذا الاصلاح ٠٠٠٠ ثم علمت بعد طول السعى أن ما حاولت من الاستعانة بهذه السلطة الرســـمية على هـــذا الاصلاح الروحى يكاد يكون من محالات العادات !! وقد جرت المذاكرة مـرة بينى وبين صديقي السيد عبد الرحمن الكواكبى وكان يرى أن اصلاح هـــذه الطرق او الاصلاح من بابها محال ، فقلت : أرأيت اذا اقنعنا بعض اخواننـــا الصادقين فى حب الاصلاح العالمين بطرق الارشاد بأن يكونوا شيوخا لهـذه الطرق المشهورة ـ الا يستطيعون أن يقفوا بعــــامة اهل طريقتهم عند حدود

---

(١) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب – القسم الخامس (الرسائل الشخصية) ص ٢٥٢ – ٢٥٨ ٠

السنة ويربوا طائفة من المريدين تربية جديدة ؟ فقال : اننا جربنا ذلك فاقنعنا رجلا من امثل هؤلاء الذين تعنيهم بنحو مما ذكرت ، فكان عاقبة امره معهم أن أفسدوه ولم يصلحهم ، فانس بهذه الرياسة واثرها فخسرناه بها !! » (١) .

وقد اسس محمد رشيد رضا مجلة (المنار) فكانت منبرا للدعوة الى تصحيح العقيدة والتزام تعاليم الشريعة الصحيحة وشنت على البدع والخرافات والتقليد والتعصب للمذاهب حربا لا هوادة فيها ولا مداراة . ثم اسس رشيد رضا جمعية كانت تهدف الى تأسيس كلية تسمى « دار الدعوة والارشاد » لتخريج دعاة للاسلام يجوبون بلاد المسلمين والنصارى والوثنيين يدعون للاسلام الصحيح : وتعرض محمد رشيد رضا للأذى والعنت فى سبيل ما آمن به والح فى الدعوة اليه فما وهن ولا تراجع ، يقول رحمه الله : «توفى الأستاذ الامام رحمه الله اثر معارك من جهاده فى الاصلاح ما صلى نارها معه غيرى ، وحملت ما تصديت له من الضرر غير متململ ولا ضجر .... ثم كنت مهددا بعده بالنفى من هذه البلاد كما هددت فى آخر عهده . وقد وطنت نسى على النفى وعزمت على السفر الى الهند ولم اتحول عن خطتى قيد شعرة » وقد اتهم رحمه الله بالاتصال بالوهابية والدولة السعودية ــ وكان الاستنصار بأهل الحق تهمة واثما . ويذكر الأستاذ احمد عبد الغفور عطار أن « الامام محمد عبده كان يثنى على الوهابية فى دروسه ... وكتب محمد رشيد رضا وهو علامة جليل فى مدح الوهابية وسخر مجلته (المنار) للوهابية وخدمة الوهابيين . ولم يكن لكل ما كتبه ولا لنشاطه أى اثر فى العقلية العربية من ناحية الوهابية بل لم يكن له اثر فى العالم العربى الا نادرا والا فرديا ، لأن سمعته كانت مشوهة فقد وصف بانه اجير للوهابيين كما زعموا » كما أن شيخه محمد عبده « لم يكن لرايه غير اثر يسير لا يتجاوز محيط خواص تلاميذه » ــ فى رأى الأستاذ عطار ، « وسلك مجددون فى محيط خواص تلامذته » ــ فما رأى الأستاذ عطار ، « وسلك مجددون فى سورية وغيرها مسلك المصريين ، فكتب علامة الشام محمد كرد على بحثا عظيما بعنوان (أصل الوهابية) فى مجلة (المقتطف) سنة ١٣١٨هـ/١٩٠١م وأعاد نشره فى كتابه (القديم والجديد) المطبوع بمصر سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ١٢٩ ــ ١٣٠

.... وكتب غير محمد كرد على ، ولكن كان ما كتبوا محدودا ، فقراؤهم بين الشباب قليل.... » (١)

وانا احسب أن ما ظنه الأديب السعودى اثرا محدود انما قصد به الأثر السريع القريب ، ومن شأن التحولات الفكرية أن تستغرق وقتا ، ولربما التهم ما كتبه محمد رشيد رضا ومحمد كرد على وامثالهما كثرة كاثرة من الأجيال التالية لزمن أولئك ما كانوا ليؤملوا أن يصل قراؤهم الى مثل عددهم ، ولربما انصرف عن قراءة هؤلاء فى زمنهم اناس لضعف روح التدين فى افرادهم أو للمناخ البعيد عن التدين جملة الذى ساد فى وقت معين ، وليس لضعف بيان هؤلاء الكتاب أو حجتهم .... كما شاعت بين الأجيال التالية بفضل دعاة السلفية المصلحين جزاهم الله خيرا كتب ابن تيمية وابن القيم والشوكانى وامثالهم اثابهم الله وكتب لهم اجر كل من انتفع بعلمهم الى يوم القيامة ، لا ينقص ذلك من قدر أجور هؤلاء المنتفعين شيئا .



اما السيد عبد الرحمن الكواكبى المتوفى سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٢م صاحب كتابى (أم القرى) و (طبائع الاستبداد) فكان كما قال عنه صديقه محمد رشيد رضا بحق « كان يرى أن اصلاح الطرق (الصوفية) أو الاصلاح من بابها محال » !!

وللكواكبى كتاب صغير جليل ، لم يذع أمره الا أخيرا مع أن طبعته الأولى كانت فى حياة الكواكبى « عقب قدومه الى مصر » ـ كما يقول صديقه محمد رشيد رضا ، وهو يحدد لهذه الطبعة حوالى ١٣١٧هـ / ١٩٠٠م . هذا الكتاب هو « أم القرى » الذى جعله الكواكبى مضبطة لاجتماعات مؤتمر تصور عقده فى مكة المكرمة « مهد الهداية » كما وصفها ويضم المؤتمر « سراة الاسلام » وقد أسماه الكواكبى « مؤتمر النهضة الاسلامية » وجعل امانه سنة ١٣١٦ هـ

---

(١) أحمد عبد الغفور عطار : محمد بن عبد الوهاب ـ ط ٣ بيروت سنة ١٩٧٢ م ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

وهدفه دراسة « الأسباب الظاهرية للخلل الطارىء على المسلمين والضعف النازل بهم ۰۰۰۰ غير سر القدر الخفى عن البشر » ۰ ويلاحظ أن المؤلف قد وجه « هذه المذكرات » الى من كان من « أمة الهداية » على حد تعبيره « أما اذا كنت من أمة التقليد وأسراء الأوهام ۰۰۰ فلم تطق تتبع المطالعة وتحكيم العقل

والنقل فى المقدمات والنتائج فأناشدك الاهمال الذى ألفناه وأن تطرح هذه المذكرات الى غيرك ليرى فيها رأيه » ۰ وواضح أن التعبير « بأمة التقليد » يكشف عن تأصل الدعوة السلفية التى فى نفس الكاتب ، كما يكشف عن ذلك اختياره اسم « جمعية تعليم الموحدين » للجمعية التى ارتأى المؤتمرون اقامتها لتكون مؤسسة دائمة تعمل على معالجة علل ضعف المسلمين والمجال الذى اختارته لنشاطها هو التعليم والتثقيف بصفة خاصة ومركزها الرسمى « مكة المكرمة » وتمتد شعبها فى أنحاء العالم الاسلامى ۰ كذلك فقد ذيل الكوكبى قرارات المؤتمر بقرار أخير يذكر أنه قد وجد « بعد البحث الدقيق والنظر العميق فى أحوال وخصال جميع الأقوام المسلمين الموجودين وخصائص مواقعهم والظروف المحيطة بهم واستعداداتهم أن لجزيرة العرب ولأهلها بالنظر الى السياسة الدينية مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر فى غيرهم ، بناء عليه رأت الجمعية أن حفظ الحياة الدينية متعينة عليهم لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقا ۰۰۰ » ، وحتى لا يكون فى هذا القرار شبهة تحيز ، فقد بسطت فى ذلك الذيل أسباب القرار وعددت ستة وعشرين سببا لذلك ، بعضها يتعلق بمركز الجزيرة بالنسبة لدعوة الاسلام وتاريخ الاسلام ، وبعضها يتعلق بموقع الجزيرة الجغرافى ، وبعضها يتعلق بسكانها ، وقد ورد فى السبب الثانى عشر « عرب الجزيرة لم يزل الدين عندهم حنيفيا سلفيا بعيدا عن التشديد والتشويش » ۰۰۰۰ ولهذا كله دلالته التى لا تخفى فى ايمان الكوكبى بنهج السلفية فى تفهم الاسلام واقتناعه بأن أقرب من يكون اليه عرب الجزيرة ، وما وصلت الجزيرة لذلك الا بالدعوة السلفية ۰

وقد ذكر الكوكبى ضمن مناقشات الاجتماع الثانى للمؤتمر المنعقد فى « أم القرى » على لسان « المحقق المدنى » ـ اذ أعطى المؤلف كل عضو فى المؤتمر الذى تصوره (وصفا) مميزا يشتمل على نسبته الى بلده بدلا من ذكر

اسمه (١) ـ قوله : « ان فقد الرابطة الدينية والوحدة الخلقية ان يكونا سببا للفتور (اي الضعف) العام ، بل لابد لذلك من سبب أعم وأهم ··· (و) الذي يجول في فكري أن الطامة من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين الذين استولوا على الدين فضيعوه وضيعوا أهله ! وذلك أن الدين انما يعرف بالعلم ، والعلم يعرف بالعلماء العاملين ، وأعمال العلماء قيامهم في الأمة مقام الأنبياء في الهداية الى خير الدنيا والآخرة ··· فبعض ضعيفي العلم وفاقدي العزم تطلعوا الى هذه المقـــلة التى هى فـــوق طاقتهم ··· ومن العادة أن يلجا ضعيف العلم الى التصوف كما يلجا فاقـــد المجد الى الكبر وكما يلجا قليل المال الى زينة اللباس والأثاث · فصار هؤلاء المتعالون يدلسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله النظم الكريم ··· ثم جاءوا الأمة بوراثة أسرار ادعوها وعلوم لدنيات ابتدعوها وتسنم مقــامات اخترعوها ··· وبالامعان نجدهم قد جاءوا مصداقا لما ورد في الحـــــديث الصحـــيح : (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ـ وفى رواية : خذوا هذه بهذه ـ حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم · قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟) · وذلك أن هؤلاء المدلسين اقتبسوا ما هنالك كله أو جله عن أصحاب التلمود وتفاسيرهم ، ومن المجامع المسكونية ومقرراتها ، ومن البابوية ووراثة السر ، ومن مضـــــاهاة مقامات البطاركة والكردينالية ·· ومظاهر القديسين وعجائبهم ·· والرهبنة ·· أي التظـاهر بالفقر ورسوه ·· ورجال الكهنوت ومراتبهم وتميزهم فى ألبستهم وشعورهم

---

(١) يقول الكوكبي فى مستهل بيانه لما جرى فى الاجتماع الأول أنه كان قد أعد للتوزيع على الأعضاء الاثنين والعشرين ـ غير الكوكبي ـ أوراقا منها قائمة « اختصر فيها تراجم اخوان الجمعية جميعهم ببيان الاسم والنســـبة والمذهب والمزية الخصوصية » ومن ذلك « السيد الفراتى » ـ وهـــو الكوكبي نفسه نظرا لأن الفــــرات يمر فى شمالي ســـورية وموطن الكواكبي حلب ، و « الفاضل الشومى » ـ والشام قد تطلق اطلاقا عاما على سوريا ولبنـــان وفلسطين جميعا وقد تطلق بوجه خاص على دمشق ، و « البليغ القــدسى » ، و « العلامة المصرى » و « المحدث اليمنى » و « الحافظ البصرى » و « العـــالم النجدى » و « المحقق المدنى » و « الأستاذ المكى » و « الحـــكيم التونسى » و « المرشـــد الفاسى » و « الســـعيد الانكليزى » و « الرياضى الكردى » و « المجتهد التبريزى » و « المدقق التركى » ··· الخ والاوصاف الواردة فى هذه الأسماء الرمزية لها من دلالة ·

.. والبيع واحتفالاتها ، والتويخات ووزنها ، والترقات واصولها ، واقـــامة الكنائس على القبور وشد الرحال لزيارتها والاسراج عليها والخضوع لديهـا وتعليق الآمال بسكانها ، واخذوا التبرك بالآثار كالقدح والحرية من احتـــرام الذخيرة وقدسية العكاز ، وكذلك امرار اليد على الصدر عند ذكر الصالحين من امرارها على الصدر لاشارة التصليب ، وانتزعوا (الحقيقة) من السر ، و (الخلافة) (أى تعيين خليفة الطريقة) من الرسم (أى رســـم القسس فى الكنيسة من قبل الأساقفة) والسقيا من تناول القربان والولد (مولد الشيخ) من الميلاد (ميلاد المسيح) ، وحفلته من الأعياد ، ووضع الأعلام من حمـــل الصلبان ... ووضع الاستهداء من نصوص الكتاب والســـنة من حظـــر الكهنة الكاثوليك قراءة الانجيل على غيرهم وســـــد اليهود باب الأخذ من التوراة وتمسكهم بالتلمود ــ الى غير ذلك مما جاء به المدلسون تقليدا لهؤلاء شبرا بشبر واقتفاء لأثرهم حجرا حجرا ... وقد فعل المدلسون ذلك ســـحرا لعقول الجهلاء واختلا بالقلوب الضعفاء كالنساء وذوى الأهـواء والأمراض القلبية او العصبية من العامة ، والأمراء اللينى القياد طبعـا الى الشرك ... ولأن التعبد باللهو واللعب اهون على النفس والطبـــع من القيام بتكليفـــات الشرع ، كما وصف الله تعالى عبادة مشركى العرب (وما كان صلاتهم عنـد البيت الا مكاء وتصدية) ... وهؤلاء جعلوا عبادة الله تصفيقا وشـــــهيقا وخلاعة ونعيقا . والحاصل أن بذلك وامثاله نجح المدنسون فيما يقصـــدون . ولا سيما بدعوى فئة منهم الكرامة على الله والتصرف بالمقادير واستمالتهـم العامة بالزهد الكاذب والورع الباطل والتقشف الشيطانى ، وبتزيينهم لهـــم رسوما تميل اليها النفوس الضعيفة الخاملة سموها آداب السلوك ، ما انـزل الله بها من سلطان ولا عمل بها صحابى او تابعى ، ظاهرها ادب وباطنهـــا تشريع وشرك ، وبجذبهم البله الجاهلين بتصعيب الدين من طريق العـــلم والعمل بظاهر الشرع ، وتهوينه كل التهوين من طريق الاعتقاد بهم واصـــحاب القبور . وقد تجاسروا على وضع احاديث مكذوبة اشاعوها فى مؤلفاتهم .. وجلبوا الناس بالترهيب والترغيب .. ترهيبا بتهديدهم معاكســيهم او مسيئى الظن بهم باضرارهم فى أنفسهم وأولادهم وأموالهم ضررا يتعجلهم فى دنياهم قبل آخرتهم ، وقد قام لهؤلاء المدلسين أسواق فى بغداد ومصر والشام وتلمسان قديما ، ولكن لا كسوقها فى القسطنطينية منذ أربعة قرون الى الآن ... فهؤلاء المدلسون قد نالوا بسحرهم نفوذا عظيما به افسدوا كثيرا من الدين ، وبه جعلوا

كثيرا من المدارس تكايا للبطالين الذين يشهدون لهم زورا بالكرامات المرهبة وبه حولوا كثيرا من الجوامع مجامع للبطالين ·· وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقا لهم ، وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لأتباعهم ··· » (١) · وهكذا لم يجعل الكواكبى أقوال المتصوفة وأفعالهم مجرد ابتداع فى الدين ، بل جعلها علاوة على ذلك مضاهاة للنصارى !! كذلك يذكر الكواكبى ضمن ضبط مناقشات الاجتماع الثالث على لسان « الرياضى الكردى » : « وكذلك نرى وعاظا مقتصرين على البحث فى النوافل والقربات المزيدة فى الدين ، ورواية الحكايات الاسرائيليات ، ومثلهم المرشدون أهل الطرائق مقتصرون على حكايات نوادر الزهاد من صحيح وموضوع ، ورواية كرامات الأنجاب والنقباء والأبدال ، وعلى ضبط وزن التمايل وأصول الانشاء » !! (٢) ·

ويكتب الكواكبى فى مضبطة الاجتماع الرابع على لسان « العالم النجدى » ــ واختيار العالم النجدى لهذا القول لا يخلو من دلالة : « ومن أهم قواعد ديننا أن نعتقد أن محمدا عليه السلام بلغ رسالته لم يترك ولم يكتم منها شيئا ··· ومن أهم قواعد ديننا أيضا أنه محظور علينا أن نزيد على ما بلغنا اياه رسول الله أو ننقص منه أو نتصرف فيه بقولنا ، بل محتم علينا أن نتبع ما جاء به الصريح المحكم فى القرآن والواضح الثابت مما قاله الرسول أو فعله أو أقره وما أجمع عليه الصحابة ، ان أدركنا حكمة ذلك التشريع أو لم نقدر على ادراكها وأن نترك ما يتشابه به علينا من القرآن (٣) فنقول فيه (آمنا به ، كل من عند ربنا) (وما يعلم تأويله الا الله ··· ويل البشر ، يغلب عليهم الاشراك بالله ، فيخصصونه تعالى شأنه بتدبير الأمور الكسلية والشئون العظام كالخليقة وتقسيم الأرزاق والآجال ، وكأنهم يجلبونه عن تدبير الأمور الجزئية ويتوهمون أن تحت أمره مقربين وأعوانا ووسطاء من ملائكة وجن

---

(١) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى تحقيق محمد عمارة مع دراسة له عن حياة الكواكبى وآثاره ــ القاهرة ١٩٧٠ ــ القسم المتضمن كتاب الكواكبى « أم القرى » ص ١٦٠ ــ ١٦٤ ·

(٢) المصدر السابق ص ١٧٣ ·

(٣) يقصد الكواكبى ترك الخوض فى المتشابه لا ترك اعتقاده والايمان به ·

وأرواح وبشر وحيوانات وشجر وحجر ، وأنه جعل لهم وللنواميس الكونيــة وللحالات النفسية من سحر وتوجه فكر دخلا وتأثيرا في الأمور الجزئية ايقاعا او منعا ، وأعطاهم شيئا من القوة القدسية وعلم الغيب ! وتوهمهم هذا ناشىء عن قياسهم ملكوت ذى الجبروت على ادارة المــلــوك فى اختصاصهم بتدبير مهمات الأمور وتفويضهم ما دون ذلك للعمال والأعوان واستعانتهم بالأخصاء والخدام ... ومن تتبع تواريخ الأمم الغابرة وافكار الأمم الحاضرة لا يستريب فيما قررناه أن آفة البشر الشرك ... وكفى بالقرآن برهانا ، فقد قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ، وقال تعالى : (بـل اياه تدعون) . وقال تعالى : (فلا تدعوا مع الله أحدا) ، وقال تعالى : (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) ـ الى غير ذلك من الآيات البينات المثبتة أن زيغ البشر هو الاشراك من بعض الوجوه فقط لا الانكار واشراك المطلق .. فالناس سريعوا الاعراض عن ذكر الله الي ذكر من يتوهمون فيهم انهم شركاء وانداد الله ، فيعبدونهم ـ أى يعظمونهم ـ ويخضعون لهم ويدعونهم ويستمدون منهم ويرفعون حاجاتهم اليهم ويرجون عند ذكر اسمائهم الخير ويتوقعون من سخطهم الشر . وقد قال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضـنكا) والله صادق الوعد نافذ الحكم ... انه جلت قدرته لا يرضى أن يشـاركه فى ملكه احد كما قال تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) .. واصل معنى مادة الشرك لغـــة الخلط ، واستعمالا اسم للاشراك بالله ، وفي اصطلاح المؤمنين الاشراك بالله في (ذاته) أو (ملكه) أو (صفاته) » (١) ... وهكذا أسـفر الكواكبى عن اعتقاده عقيدة السلف كاملة غير منقوصة صريحة دون أى لبس ... بل انـــه يقول : « ومن المعلوم عندنا ان نبينا عليه افضل الصلاة والســـلام لبث عشرة أعوام يقاسي الأهوال في دعوته الناس الى التوحيد فقط ، وسمى أمته الموحدين وانزل الله القرآن ربعه فى التوحيد ، وتأسس دين الله على كلمــة (لا اله الا الله) وجعلت افضل الذكر لحكمة أن المسلم مهـــما رسخ فى الايمـــان يبقى محتاجا الى نفس الشرك عن فكره احتياجا مستمرا وذلك لما قلناه من شـــدة ميل الانسان الى الشرك ولشدة التباسه عليه فنسأل الله تعالى الحماية ...

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٨ ـ ١٩٣ .

نجد ان الله تعالى قال فى حق اليهود والنصارى (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) مع انه لم يوجد (منهم) من ادعى المماثلة ونازع الله الخالقية او الاحياء والاماتة ... انما شاركوا الله تعالى فى التشريع المقدس فقط فقالوا هذا حلال وهذا حرام فقبل منهم أتباعهم ذلك فوصفهم الله انهم اتخذوا اربابا من دون الله ، ونجد أيضا أن الله تعالى سمى قريشا مشركين مع انه وصفهم بقوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) أى يخصصون الخالقية لله ، ووصف توسلهم بالأصنام الى الله بالعبادة فحكى عنهم قولهم (ما نعبدهم والا ليقربونا الى الله زلفى) . والمعظمة من المسلمين يظنون أن هذه الدرجة التى هى التوسل ليست من العبادة ولا من الشرك ويسمون المتوسل بهم وسائط ... ونجد ان الله تعالى قال (فلا تدعوا مع الله احدا) واصل معنى الدعاء النداء ... والدليل الكاشف لهذا المعنى هو قوله تعالى (بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون) ... وبما ذكر وغيره من الآيات البينات جعل الله هذه الأعمال لقريش شركا به ، حتى صرح النبى صلى الله عليه وسلم فى الحلف بغير الله انه شركا ... فلينظر الآن : هل فشا فى الاسلام شيء من هذه الأعمال واشباهها فى الصورة او الحكم ؟؟ ومن لا تأخذه فى الله لومة لائم لا يرى بدا من التصريح بأن حالة السواد الأعظم من اهل القبلة فى غير جزيرة العرب تشبه حالة المشركين من كل الوجوه ، وأن الدين عندهم عاد غريبا كما بدا كشأن غيرهم من الأمم فمنهم الذين استبدلوا بالأصنام القبور فبنوا عليها المساجد والمشاهد وأسرجوا لها وارخوا عليها الستور ، يطوفون حولها مقبلين مستلمين اركانها ، ويهتفون باسماء سكانها فى الشدائد ، ويذبحون عندها القرابين يهل بها عمدا لغير الله وينذرون لها النذور ، ويشدون للحج اليها الرحال ، ويعلقون بسكانها الآمال يستنزلون الرحمة بذكرهم وعند قبورهم ويرجونهم بالحاح وخضوع ومراقبة وخشوع أن يتوسطوا لهم فى قضاء الحاجات وقبول الدعوات ، وكل ذلك من الحب والتعظيم لغير الله والخوف والرجاء من سواه ... ومنهم ناس يجتمعون لأجل العبادة بذكر الله ذكرا مشوبا بانشاد المدائح والمغالاة بشعراء المتاخرين التى اهون ما فيها الاطراء الذى نهانا عنه النبى عليه الصلاة والسلام حتى لنفسه الشريفة فقال : (لا تطرونى كما اطرت اليهود والنصارى انبياءهم ... ومنهم جماعة لم يرضوا بالشرع المبين فابتدعوا احكاما سموها علم الباطن او علم الحقيقة او

علم التصوف ـ علما لم يعرف شيئا منه الصحابة والتابعون وأهل القـــرون الأولى المشهود لهم بالفضل فى الدين ـ علما نزعوا مسائلة من تأويلات المتشابه من القرآن ٠٠٠ وانتزع هؤلاء الداحون أيضا بعض تلك المزيدات من مشكلات الأحاديث والآثار ٠٠٠ ومنهم فئة اخترعوا عبادات وقربات لم يات بها الاسلام فكأن الله تعالى ترك لنا ديننا ناقصا فهم اكملوه ٠٠٠ أو كأن النبى عليــــه السلام لم يتمم كما يزعمون تبليغ رسالته فهم اتموها لنا ، أو كتم شيئا مـن الدين وأسر به الى بعض أصحابه أبى بكر وعلى وبلال رضوان الله عنهـــم وهؤلاء اسروا به الى غيرهم وهكذا تسلسل حتى وصل اليهم فافشـــوه لمن ارادوا من المؤمنين ! تعالى الله ورسوله عما يافكون ٠ وهل ليس من الكفـــر باجماع الأمة اعتقاد أن النبى عليه السلام نقص التبليغ أو كتم او اسر شـيئا من الدين ؟؟ ومنهم جماعة اتخذوا دين الله لهوا ولعبا ، فجعـلوا منه التغنى والرقص ونقر الدفوف ودق الطبول ولبس الأخضر والأحمر واللعب بالنـــار والسلاح والعقارب والحيات يخدعون بذلك البسطاء ويسترهبون الحمقـاء ٠٠ ومنهم قوم يعتبرون البلادة سلاحا والخمول خيرا والخبــل خشوعا والصرع وصولا والهذيان عرفانا ، والجنون منتهى المراتب السبع للكمال !! ومنهـــم خلفاء كهنة العرب يدعون علم الغيب ٠٠ فهذه حالات السواد الأعظم من الأمة وكلها اما شرك صراح ، او مظنات اشراك حكمها فى الحكمة الدينية حـــكم الشرك بالاشكال ٠ وما جر الأمة الى هذه الحالات الجاهلية وبالتعبير الاصح رجع بها الى الشرك الأول الا الميل الطبيعي للشرك ، مع قلة علمـاء الـــدين وتهاون الموجودين فى الهدى والارشاد ٠٠٠ فالتبعة كل التبعة على العلمــــاء الراشدين » (١) ٠

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ ـ ٢٠٠ ويضيف الكوكبى على لسان الشيخ السندى فى الاجتماع السادس عن « صوفية الزمان الذين يهـونون الدين كل التهوين » أنهم يقولون « ان العلم حجاب ، وبلمحة نفع الصالحة ، وبنظرة من المشد الكامل يصير الشقى وليا ، وبنفحة فى وجه المريد أو تفلة فى فمه تطيعه الأفعى وتخدمه العقرب وتدخل تحت أمره قوانين الطبيعـــة ٠٠٠ وان الولاية لا ينافيها ارتكاب الكبائر كلها الا الكذب ، وان الاعتقاد أولى من الانتقاد ، وان الاعتراض يوجب الحرمان ٠٠ الى غير ذلك من الأقوال المهونة للدين والأعمال التى تجعله نوعا من اللهو الذى تستأنس به نفوس الجــــاهلين » ـ المرجع السابق ص ٢٢٠ ٠

وهكذا يقدم الكواكبى صورة حية جلية لبدع الشرك المعاصر ، أعطاها من تفاصيل الواقع ما جعلها صورة حقيقية ناطقة معبـــــرة ، ــ هى أبلغ فى مخاطبة العقول والقلوب من أية تقريرات نظرية جافة ، وقد كان هذا شـــأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله حين ينعى على المسلمين ما تورطـــوا فيه من شرك ، فيسوق اليهم من وقائع حياتهم اليومية ما يبين ويقنع ويلـــزم الحجة كل ذى عقل سليم وفكر صحيح ٠

ثم نرى الكواكبى ينطق « المحدث اليمنى » فى الاجتماع الخامس بمـــا يريد أن يوجه اليه قراءة فى شأن بدعة « التقليد » التقليد الفقهى ، بعـــد أن أفاض فى شأن بدع التصوفة فى العبادة التى تجر الى الشرك والكفر ٠ انـــه يقول : « العلماء عندنا **لا يجسرون على أن يفتوا فى مسألة مطلقا مالم يذكروا معها دليلا من الكتاب أو السنة أو الاجماع ، حتى ولو كان المستفتى اعجميـا أميا لا يفهم ما الدليل ، وطريقتهم هذه هى طريقة الصحابة كافة والتابعين عامة والأئمة المجتهدين والفقهاء الأولين من أهل القرون الأربعـــة أجمعين** ٠٠٠٠ فهذا الامام مالك (١) رضى الله عنه يقول : ما من أحد الا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠٠٠ وحكى فى (اليواقيت والجواهر) أن أبا حنيفة (٢) رضى الله عنه كان يقـــول : (لا ينبغى لمن لا يعرف دليلى أن يأخذ بكلامى) ٠٠٠٠ وروى الحاكم البيهقى أن الشافعى (٣) رضى الله عنه كان يقول : (اذا صح الحديث فهـــو مذهبى) ، وفى رواية : (اذا رأيتم كلامى يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضـربوا بكلامى عرض الحائط ، وأنه قال يوما للمزنى (٤) : (يا ابراهيم لا تقلدنى فيما أقول وانظـر

---

(١) هو الامام أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحى توفى سنة ١٧٩هـ / ٧٩٥م اضطلع بالتدريس فى المسجد النبوى فى (المدينة المنورة) وله (الموطأ) المعروف ٠

(٢) هو الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت توفى ســـنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م اضطلع بالتدريس فى الكوفة ٠

(٣) هو الامام محمد بن ادريس الشافعى توفى سنة ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م ولـد فى غزة ونشأ فى مكة وتلقى من مالك وزار بغداد ثم قصد مصر وتوفى فيهـا وله « الرسالة » و « الأم » ٠

(٤) هو اسماعيل بن يحيى المزنى تلميذ الشافعى توفى بمصر ســـنة ٢٦٤هـ / ٨٧٨م ٠

فى ذلك لنفسك فانه دين ، وكان يقول : (لا حجة فى قول أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، ويروى عن احمد بن حنبل (١) رضى الله عنه انه رأى بعضهم يكتب كلامه فأنكر عليه وقال : (تكتب رأيا لعلى ارجع عنه) ! وكان يقول : (ليس لأحد مع الله ورسوله كلام) ! وقال لرجل : (لا تقلدنى ، ولا تقلدن ما لكا ولا الاوزاعى (٢) ولا ابا حنيفة ولا غيرهم ، وخذ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنة) ، وأسس مذهبه على ترك التأويل والترقيع بالراى واتباع الغير ••• ونقل الثقات أن سفيان الثورى (٣) رضى الله عنه لما مرض مرض الموت دعا بكتبه فاغرقها جميعا • وروى عن ابى يوسف وزفر (٤) رحمها الله تعالى أنهما كانا يقولان : لا يحل لأحد أن يفتى بقولنا ما لم يعلم من اين قلنا •••• نعم لم يبق فى الامكان أن يأتى الزمان بأمثال ابن عمر وابن عباس أو النخعى وداود وسفيان ومالك وزبير (٥) وجعفر (٦) أما النعمان والشافعى أو أحمد والبخارى رضى الله عنهم اجمعين ، ولكن متى كلف الله عباده بدين لا يفقهه الا أمثال هؤلاء النوابغ العظام ؟ أليس أساس ديننا القرآن وقد قال الله تعالى عنه فيه (انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) ، وقال تعالى (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا) ، وقال تعالى (ولقد

---

(١) هو الامام احمد بن حنبل المحدث الفقيه توفى سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م وهو صاحب « المسند » المشهور فى الحديث ، ولد وتوفى فى بغداد •

(٢) هو الامام عبد الرحمن الأوزاعى المتوفى سنة ١٥٧هـ / ٧٧٤م ولد فى بعلبك ، وهو اقرب الى أهل الحديث كما يدل المنقول عنه •

(٣) هو الامام عبد الله سفيان الثورى المحدث المجتهد الزاهد ولد بالكوفة وتوفى فى البصرة سنة ١٦١هـ / ٧٧٨م •

(٤) من أتباع أبى حنيفة وان خالفاه فى بعض المسائل ، وأبو يوسف هو يعقوب بن ابراهيم ولد بالكوفة وتوفى فى بغداد سنة ١٨٢هـ / ٧٩٨م ، وزفر ابن الهزيل توفى سنة ١٥٨هـ / ٧٧٥م •

(٥) هو ابراهيم بن زبير النخعى من فقهاء الكوفة وأشهر تلاميذه حماد ابن ابى سليمان شيخ ابى حنيفة •

(٦) هو الامام زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب المتوفى سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م واليه ينسب المذهب الزبيرى المعروف •

(٧) هو الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن ابى طالب توفى سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م •

انزلنا اليك آيات بينات) ، وقال تعالى (افلا يتدبرون القــرآن) ، فما معنى دعوى العجز والتمثل حين قالوا (قلوبنا غلف) حمانا الله تعالى ··· الأئمة المجتهدون والفقهاء الأولون علمونا طرائق الاستهداء والاجتهـاد والاستنباط والتخريج والتفريع وقياس النظير ··· وما احد منهم دعانا الى الاقتداء بـه مطلقا » (١) ·



فاذا ما انتقلنا الى جيل من المفكرين المسلمين احدث عهـدا واقرب الى زمننا ، وجدنا احمد أمين الكاتب المصرى الذى تخرج من مدرسة القضـاء الشرعى واضطلع بالتدريس فى كلية الآداب بجامعة القاهرة وارتقى عمادتهـا وتوفى سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م بعد ان اخرج موسوعة معروفة فى تاريخ الفكر الاسلامى هى « فجر الاسلام » « وضحاه » « وظهره » ·· وقد الف كتـابا عن زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ··· وضع فى صدر كتابه فصلا عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وهو يهش لدعوته ويقول فى أولى صـفحات هـــذا الفصل : « ··· واهم مسالة شغلت ذهنه ـ ذهن الشيخ ـ فى درسه ورحلاته هى مسالة التوحيد التى هى عماد الاسلام ، والتى تبلورت فى (لا اله الا الله) والتى تميز الاسلام بها عما عداه ··· ومن اجل هذا سمى هو واتباعه انفسهم (بالموحدين) ، اما اسم (الوهابية) فهذا اسم اطلقه عليه خصومهم واستعمله الأوربيون ثم جرى على الألسن ، وقد راى اثناء اقامته فى الحجاز ورحلاتـه ان هذا التوحيد الذى هو مزية الاسلام الكبرى قد ضاع ودخـــله كثير من الفساد · فالتوحيد اساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العـــالم والمسيطر عليه وواضع قوانينه التى يسير عليها والمشرع له ، وليس فى الخلق من يشاركه فى خلقه ولا فى حكمه ولا من يعينه على تصريف اموره لأنه تعالى ليس فى حاجة الى عون احد مهما كان من المقربين اليه ، هو الذى بيده الحكم وحده وهو الذى بيده النفع والضر وحده لا شريك له ، فمعنى لا اله الا الله : ليس فى الوجود ذو سلطة حقيقية تسير العالم وفقا لما وضـع من قوانين الا-

(١) هو الامام الحافظ محمد بن اسماعيل البخارى وتوفى فى حرتنك من اعمال سمرقند سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م ·

هو ، وليس فى الوجود من يستحق العبادة والتعظيم الا هو ، وهذا هو محور القرآن ٠٠٠٠ اذن فما بال العالم الاسلامى يعدل عن هذا التوحيـــد المطلق الخالص من كل شائبة الى أن يشرك مع الله كثيرا من خلقه ، فهؤلاء الأولياء يحج اليهم وتقدم لهم النذور ويعتقد أنهم قادرون على النفع والضر ، وهـــذه الأضرحة لا عداد لها تقام فى جميع أقطاره يشد الناس اليها رحالهم ويتمسحون بها ويتذللون لها ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم ٠٠٠ » ، وحين يذكر الكاتب ما كان من أمر « النخلة » فى منفوحة باليمامة التى كان يعتقـــد الناس فى قدرتها على تزويج العوانس ، و « الغار » فى الدرعية التى يحـــج الناس اليها للتبرك ، يذكر أمثال ذلك فى مصر من « شـــجرة الحنفى » التى يتبرك بها ، الى « نعل الكلشنى » وهى نعل قديمة فى تكية الكلشنى يتـــداوى الناس من العشق بالماء يضعونه فيها ويشربونه ، و « بوابة المتـــولى » التى تعلق بها الشعور والخيوط لينال الخير من علقها ٠٠٠٠ وهكذا ، فان الشجا يبعث الشجا ، والهم يثير الهم ٠ يقول الكاتب « انها تصد النـــاس عن الله الواحد وتشرك معه غيره وتسىء الى النفوس وتجعلها وضيعة ممزقة ٠٠٠٠ وأساس آخر يتصل بهذا التوحيد كان يفكر فيه محمد بن عبد الوهاب وهو أن الله وحده هو مشرع العقائد وهو وحده الذى يحلل ويحرم فليس كلام أحـــد حجة فى الدين الا كلام الله وسيد المرسلين ٠٠٠٠ وهكذا اشغلت ذهنه فكرة التوحيد فى العقيدة مجردة من كل شريك ، وفكرة التوحيد فى التشريع فـــلا مصدر الا الكتاب والسنة ، هذا هو أساس دعوة محمد بن عبد الوهاب ٠٠٠ » ثم يقول بالنسبة لما جاء على هذا الأساس « فكانت دعوة محمد بن عبدالوهاب حربا على كل ما ابتدع بعد الاسلام الأول من عادات وتقاليد ، فلا اجتمـــاع لقراءة مولد ، ولا احتفاء بزيارة قبور ، ولا خروج للنساء وراء الجنازة ، ولا اقامة أذكار يغنى فيها ويرقص ، ولا محمل يتبرك به ويتمسح ٠٠٠٠ كل هذا مخالف للاسلام الصحيح يجب أن يزال ٠٠٠٠ والكتب المملوءة بالتوســـلات ضارة بالعقائد كدلائل الخيرات وما فى البردة ٠٠٠٠ لقد كان محمد بن عبـــد الوهاب ومن نحا نحوه يرون أن ضعف المسلمين اليوم وسقوط نفسيهم ليس له من سبب الا العقيدة ٠٠٠ وكانت لا اله الا الله معناها الســـمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة العظماء ، وعدم الخوف من الموت فى سبيل الحق ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢١ ــ ٢٢٥ ٠

ومن استنكار المنكر والأمر بالمعروف مهما تبع ذلك من عذاب .... ثم لم يتقين شيء الا العقيدة فتدنوا من سمو التوحيد الى حضيض الشرك ، فتعـــددت الهتهم من حجر وشجر وأعواد خشب وقبور وأولياء ، وركنـــوا الى ذلك فى حياتهم العامة فالزرع ينجح لرضا ولى ويخيب لغضبه ، والبقرة تحيا اذا نذرت للسيد البدوى أو مثله وتموت اذا لم تنذر ، وهكذا فى الأمراض والعلل والغنى والفقر ! ... ولا يصلح آخر الاسلام الا بما صلح به اوله » . ويذكر احمـد امين ان دعوة الشيخ حيثما سادت « قلت السرقة والفجور وشرب الخمــور وأمن الطريق وما الى ذلك » ، كما يرى « ان الدعاية التى احكمت ضـدها ، وتعلق الناس بالدولة العثمانية ... » هما ولذان اثرا على رأى عامة الناس فيها « ولو لم يفهموا جوهر الدعوة » ، ومن دوافع الناس الى الحكم الخاطيء على تلك الدعوة فى رأى الكاتب انها « حيث استولت على بلد نفذت تعاليمهـا بالقوة ولم تنتظر حتى يؤمن الناس بدعوتها ... » ونسى ان ثمة أمورا ترسخت بالعامة ومرور الزمن لا يقلع الناس عنها فى يسر ولا يقتنع غالبيتهم بالحجة والموعظة بل لا بد من عمل حاسم سريع مهما كان مصادما لما توارثه النـاس بالقوه ، بل ان فى هذه الصدمة وحدها قد يكون الشفاء بالنســبة لعـامة الناس . ولكن احمد امين ان كان له ذلك الرأى بالنسبة « لسياسة » الدعـوة فان رأيه فى موضوعها أن الوهابيين (مع انه اعتبر هذه التسمية مرجعهـا خصومهم) لم يعباوا الا بازالة البدع والرجوع بالدين الى اصله » . كذلـك أرتأى احمد امين « أن محمد بن عبد الوهاب لم ينظر الى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ، ولم يتجه فى اصلاحه الى الحياة المادية كما فعل معاصـره محمد على » ، ويغفل الكاتب عن أن القياس مع الفارق وأن لكل مقام مقالا ، وأن الحاجات المادية لمجتمع ابن عبد الوهاب فى زمنه كانت محدودة ، وعـدد سكان شبه الجزيرة كان محدودا ، وأن ترتيب أولويات الاصلاح يختلف حسب ظروف الواقع من جهة ، كما أن اصلاح العقيدة هو الأساس المتين لكل اصلاح آخر من جهة اخرى ، كذلك فان تتابع الأحداث على الدولة الســعودية الأولى وحشد الدولة العثمانية القوى لحربها لم يمكنها من الاستقرار ومعالجـــة الاصلاح المادى فى مختلف جوانبه ، وحسبها عنايتها بتامين الطرق ورفـــع المغارم والمظالم وتحقيق سعة الأقوات ورخص الأسعار كما شهد الجـــبرتى وغيره ، على أن احمد امين يحاول قدر طاقته الا يكون متجنيا على الشيخ فهو يعقب على مقارنته بين الشيخ ومحمد على « فعنده أن العقيدة والروح همـــا

الأساس وهما القلب ان صلحا صلح كل شيء وان فسدا فســـد كل شيء ، وطبيعى أن يكون هذا هو الفرق بين رئيس الدين فى نجد ورئيس الحــكم فى مصر » ٠٠٠ وهو بطبيعة الحال لم يتصد لتقويم الاصلاح المادى لمحمد عــلى فى مصر كما تصدى لتقويم الاصلاح الدينى لمحمد بن عبد الوهاب فى شــبه الجزيرة ، فهو لم يؤرخ فى كتابه لمحمد على ، ولعله شاء أن يجنب نفسه مزالق الفكر مع حكام مصر وقتذاك ٠ ويذكر أحمد أمين أخيرا عن الحكومة السعودية المعاصرة انها « اختطت لنفسها طريقا وسطا وشاقا بين القوتين (قوة رجال الدين فى نجد ، وقوة التيار المدنى ــ على حد تعبير أحمد أمين) ٠٠٠ وبدأت تنشر التعليم المدنى بجانب التعليم الدينى وتنظم الادارة الحكومية على شيء من النمط الحديث » (١) ٠

ولا يذكر أحمد أمين هنا أن « التيار المدنى » الذى يعنيه ليس تيارا بعيدا عن الدين متنكرا له ، وأن الافادة من منجزات الحضارة هو من الحكمة التى أنى وجدها المؤمن فهو أحق الناس بها ــ كما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحق أنه أخطأ فى تسميته هذا التيار « بالمدنى » وكأن المدنيــة فى جانب والدين فى جانب ، ونفس الملاحظة تقوم بالنسبة لما ذكره أحمد أمين عن « التعليم المدنى » ، فتراث المفكرين والعلماء المسلمين حــافل بمنجزاتهــم ومؤلفاتهم فى الرياضيات وبخاصة الجبر والهندسة وحساب المثلثــات وفى الفلك وفى الفيزياء والكيمياء والنبات والحيـــــوان وفى الطب والجـراحة والصيدلة ، وما الى ذلك ٠ كذلك فان المسلمين ما فتيئوا حريصين على تنظيــم ادارتهم الحكومية منذ الدولة الاسلامية الأولى ، ولطالما أخذوا أنفسهم بالتماس اسباب القوة لادارتهم وجيشهم باقتباس ما لا يتعارض مع دينهم عند غيرهم ، وليس استخدام « المنجنيق » و « الدبابة » و « الضـــــبور » و « الكبش » و « النفط » فى ميدان الحرب ، وتنظيم « الديوان » و « الخراج » فى مجـــال الادارة الى عناوين ومؤشرات على طريق طويل سلكه المسلمون السابقـــون لاقامة صرح شامخ للحضارة الأصيلة المتكاملة الزاهدة ٠



---

(١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح ص ١٠ ــ ٢١ ٠

والكاتب المصرى الآخر الذى عاصر أحمد امين وعرف بكتاباته عن « عبقريات » أعلام الاسلام وبغيرها من دراساته الاسلامية فضلا عن شعره وهو : عباس محمود العقاد المتوفى سنة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م يبدو متعاطفا مع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، بل انه ممن يرى أن مصادماتها ومصادمة أعدائها لها كان مما أعان على انتشار خبرها بين الناس ، يقول فى كتابه « الاسلام فى القرن العشرين » : « النهضة فى مصر بدأت عند أوائل القرن التاسع عشر (الميلادى) ، ولكنها بدأت فى الجزيرة العربية قبل ذلك بنحو ستين سنة بالدعوة الوهابية التى تنسب للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وبدأت نحو هذا الوقت فى اليمن بدعوة الامام الشوكانى صاحب كتاب (نيل الأوطار) وكلاهما ينادى بالاصلاح على نهج واحد وهو العود الى السنن القديم ورفض البدع والمستحدثات فى غير هوادة · وانما تسامع الناس بحركة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب وظلت الدعوة الشوكانية مقصورة على قراءة الفقه والحديث لأن الوهابيين اصطدموا بجنود الدولة العثمانية ··· ولم تذهب صيحة ابن عبد الوهاب عبثا فى الجزيرة العربية ولا فى أرجاء العالم الاسلامى من مشرقه الى مغربه ، فقد تبعه كثير من الحجاج وزوار الحجاز وسرت تعاليمه الى الهند والعراق والسودان وغيرهما من الأقطار النائية ، وأعجب المسلمين أن سمعوا أن علة الهزائم التى تعاقبت عليهم انما هى فى ترك الدين لا فى الدين نفسه ، وانهم خلقاء أن يستجدوا ما فاتهم من القوة والمنعة باجتناب البدع والعودة الى دين السلفى الصالح فى جوهره ولبابه » (١) ·

وقد ينم كلام العقاد عن أن نجاح الدعوة السلفية هو فى استهوائها الناس بما أعجبهم وأرضاهم عن دينهم وسهل أمامهم سبيل العودة الى مجدهم بالعودة الى دينهم وتجنب البدع والمحدثات ، لكن العقاد قد أكد صراحة فى كتبه المتعددة أن عقيدة التوحيد الخالص لله هى أساس الاسلام ، وأن هذا التوحيد هو الذى يكفل للمسلمين نقاء الفكر وقوة النفس · كذلك فان العقاد قد ذكر فى معرض كلامه أن « الوهابيين اصطدموا بجنود الدولة العثمانية فى ابان حربها مع الدول الأوربية التى اتفقت على تقسيمها ··· » ، فهل أراد العقاد أن يحمل أنصار الدعوة السلفية اثما فى حرب العثمانيين أثناء

---

(١) العقاد : الاسلام فى القرن العشرين حاضره ومستقبله ـ القاهرة ـ ص ٨٥ ـ ٨٦ ·

مواجهتهم أعداء المسلمين من المستعمرين الأوربيين ؟ وهل خفى على مثـــل العقاد فى سعة قراءاته واطلاعاته حقائق التاريخ فى أن الدولة العثمانية هى التى ارادت أن تبادر الى استخدام القوة مع انصار هذه « الدعوة » مخـــافة ما قد يتعرض له حكمها فى شبه الجزيرة وما جاورها من بلدان كانت تحـــت نفوذها ؟؟



على أن الكاتب الباحث السعودى أحمد عبد الغفور عطار يشهد لكاتـب ومفكر مصرى آخر بأثره الكبير على قرائه عندما أبدى لقتناعه بدعوة الشـيخ محمد بن عبد الوهاب · يقول « كنت طالبا فى المعهد العلمى السعودى بمكـة حرسها الله وكانت مؤلفات شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب وفقـه الحنابلة من علومنا التى تدرس ، ولم يكن بيننا وبين الوهابية تعاطف ··· ولم نكـن نقتنع بما يقوله (أساتذتنا) فى تبرئتها · وكانت مجلات مصر تهاجم الوهابية وتتجنى عليها ، واذا مقال لطه حسين ينشر فى مجلة (الهـــلال) عدد مارس سنة ١٩٣٣م / ذى الحجة ١٣٥١هـ بعنوان (الحياة الأدبية فى جزيرة العرب) يحدث تحولا خطيرا فى افكار الشباب العربى بالنسبة للوهابية والشيخ محمد ابن عبد الوهاب ···· وكنا قرأنا ما كتبه محمد كرد على وغيره فلم نتـــأثر نحن الذين اطلعنا على ما كتبوا الا يسيرا ··· وهؤلاء الكتـــاب لم يكونوا متمتعين بمكانة طه ···· ولم يكن طه على وفـــاق مع الأزهر والأزهريين المتعصبين ولم يقبل آراءهم فى الشيخ محـــمد بن عبد الوهاب ، بل درس مؤلفاته ورسائله وما أحدثت دعوته من أثر قوى مشهود فى العقلية العـــربية والاسلامية دراسة حرة مجردة عن الهوى فاستبان له الحق فكتب عن الوهابية كتابة عادلة منصفة · وما اشك ان طه حسين اثر فى شـــباب العرب الذين يعشقون الأدب والعلم ، وفى المتأدبين والمثقفين ثقافة عصرية ، دون غيـره أو اكثر من غيره ممن كتبوا فى الوهابية وانصفوها انصافة ··· » وينقل أحمـد عبد الغفور عطار من مقال طه حسين فقرات منها « ان الباحث عن الحيـــاة العقلية الأدبية فى جزيرة العرب لا يستطيع أن يهمل حركة عنيفة نشأت فيهـا أثناء القرن الثامن عشر (الميلادى) فلفتت اليها العالم الحديث فى الشـــرق والغرب واضطرته أن يهتم بأمرها ، واحدثت فيها آثارا خطيرة هان شأنهـــا

بعض الشيء لكنه عاد فاشتد فى هذه الأيام ، واخذ يؤثر لا فى الجزيرة وحدها بل فى علاقاتها بالأمم الأوربية ايضا ، هذه الحـركة هى حركة الوهابيين التى احدثها محمد بن عبد الوهاب شيخ من شيوخ نجد » ويحمل طه حسين سـيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى معالمها البارزة حتى كان تحالفه مع أميـر الدرعية محمد بن سعود « وعن هذا التحالف بين الدين والسياسة نشأت فى الجزيرة العربية دولة سياسية عظم امرها واشتد خطرها » · ثم يقول طه حسين فى شأن الدعوة الى عقيدة السلف « قلت : ان هذا المذهب الجـديد قديم ، والواقع انه جديد بالنسبة الى المعاصرين ولكنه قديم فى حقيقة الأمر لأنه ليس الا الدعوة القوية الى الاسلام الخالص النقى المطـهر من شوائب الشرك والوثنية ، هو الدعوة الى الاسلام كما جاء به النبى خالصا لله وحده ملغيـا كل واسطة بين الله وبين الناس ··· فقد انكر محمد بن عبد الوهاب على اهل نجد ما كانوا قد عادوا اليه من جاهلية فى العقيدة والسيرة ، كانوا يعظمـون القبور ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله ويعظمون الأشجار والأحجـار ويرون ان لها من القوة ما ينفع ويضر ، وكانوا قد عادوا فى سيرتهم الى حياة العرب الجاهلين فعاشوا من الغزو والحرب ونسوا الزكاة والصلاة وأصبح الدين اسما لا مسمى له ··· ومن الغريب ان ظهور هذا المذهب الجديد فى نجد قد احاطت به ظروف تذكر بظهور الاسلام فى الحجاز ، فقد دعا صاحبه اليـه باللين اول الأمر فتبعه بعض الناس ، ثم اظهر دعوته فاصابه الاضـطراب وتعرض للخطر ، ثم اخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر ، ثم هاجر الى الدرعية وبايعها اهلها على النصر · ولكن ابن عبـد الوهاب لم يرد أن يشتغل بأمور الدنيا فترك السياسة (١) لابن سعود واشتغل هو بالعلم والـدين واتخذ السياسة وأصحابها اداة لدعوته ··· فمن أجاب منهم قبل منـه ومن امتنع عليه اغرى به السيف وشب عليه الحرب وقد انقاد اهل نجد لهـذا المذهب واخلصوا له وضحوا بحياتهم فى سبيله ··· ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب وحاربوه فى داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها لكان من المرجو جدا ان يوحد هذا المذهب كلمة العرب فى القـرن الثانى عشر والثالث عشر للهجرة كما وحد ظهور الاسلام كلمتهم فى القـرن الأول · ولكن الذى يفيدنا من هذا المذهب اثره فى الحياة العقلية والأدبية عند العرب وقد كان هذا الأثر عظيما خطيرا من نواح مختلفة فهـو ايقظ النفس

---

(١) الأولى أن يقال : « ترك مناصب الحكم » ·

العربية ووضع امامها مثلا اعلى احبته وجاهدت فى سبيله بالسيف والقلم والسنان · وهو قد لفت المسلمين جميعا واهل العراق والشام ومصر بنوع خاص الى جزيرة العرب » (١) ·

وطه حسين فى ذلك الوقت من حياته الذى كتب فيه المقال ، يبدو كانه قد اعجب بما يعجب كل مستنير وكل مثقف (معاصر) من الدعوة الى التوحيد الخالص الرفض البدع والتقليد والحرب على المتصوفة والقبوريين ، كما يبدو وكانه قد تبين اثر التوحيد على فكر العرب وعلى امة الاسلام من الوجهة الموضوعية وعلى نهج علمى ، كما لا يستغرب ما اشار اليه الأستاذ عطار من ان مهاجمة الأزهريين لدعوة محمد بن عبد الوهاب قد قربته الى ذهن طه حسين الذى هاجمه الأزهريون ايضا، وكره فيهم التقليد والتعصب لما الفوه حقا كان ام باطلا ··· ذلك ان طه حسين الذى درس فى الأزهر وواجه فى دراسته هناك مصاعب جمه ، ابرزها كتابه « الأيام » وهو سيرة حياته ، ثم واصل دراسته فى الجامعة المصرية القديمة ثم استكملها فى جامعة السربون بفرنسا حيث حصل على درجة الدكتوراه ، كان قد تعقد من الأزهر ومن الحياة الفكرية السائدة بمصر بتاثير الأزهر ، ولعل هذا التعقيد قد اصاب عقيدته ، او لعل نزعته فى التجديد ومخالفة المالوف ومصادمة الأزهريين قد ادت الى انفلاته ومجاوزته للحدود فى كلامه عن القرآن ، كما اثر فيه كل التاثير تعلمه بفرنسا وتزوجه من فرنسية كما اظهرت ذلك بجلاء مذكراته زوجته التى نشرت بالفرنسية بعد وفاته ، وقد اضطلع بالتدريس فى كلية الآداب وواجه ثورة الرأى العام عليه حين اخرج كتابه عن « الشعر الجاهلى » الذى بادر كثيرون بالرد عليه (٢) ، فأخرج من كلية الآداب التى وصل الى عمادتها ، على أن طه حسين

---

(١) أحمد عبد الغفور عطار : محمد بن عبد الوهاب ـ ط ٣ ـ بيروت سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ص ١٩٦ ـ ٢٠٠

(٢) انظر مثلا نقض كتاب الشعر الجاهلى لمحمد الخضر حسين وهو عالم تونسى عاش بمصر ثم تولى مشيخة الأزهر بعد نهاية الحكم الملكى سنة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م ، وانظر من دراسات المحدثين رسالة الدكتوراه لناصر الدين الأسد وعنوانها « مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية » وقد كان سفير المملكة الأردنية بالمملكة العربية السعودية كما تولى رئاسة الجامعة الأردنية فى عمان ·

اخرج دراسات اسلامية عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعصر الراشدين ، هى « على هامش السيرة » و « الشيخان » ـ اى ابو بكر وعمر ، ثم « الفتنة الكبرى » وقد عرض الجزء الأول من هذا الكتاب الأخير لعهد عثمان رضى الله عنه ، أما عنوان جزئه الثانى فهو « على ونبوه » ٠ وقد بدا فى آخر حياته معنيا بسلامة اللسان العربى وهو الذى كان فى صدر حياته مفتوحا بالتجديد ، كما روى انه كان يستمع وقتا طويلا من يومه للقرآن الكريم ، والله اعلم بنيته وما كان عليه حين لقى ربه ٠ ولعله ان يكون قد تاب فى آخر عمره ، وهو الآن بين يدى ربه الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ٠



وقد كان لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب اثرها فى نشر نهج السلف ونبذ التقليد فى تعليم الدين فى المعاهد ولا سيما المعاهد المتخصصة فى تعليم الدين ، ويتجلى هذا الأثر فى جانبى العقيدة والشريعة ، واذا كنا قد الفينا « رسالة التوحيد » التى جمعت دروس الشيخ محمد عبده فى العقيدة بالمدرسة السلطانية فى بيروت لم نستطع ان نتخلص من اسر نهج المتكلمين واسلوبهم تماما ، فانه قد كان اكثر التزاما بنهج السلف واكثر اصرارا على نبذ التقليد فى جانب الأحكام الشرعية ، وقد ابدى الشيخ محمد عبده اعجابه بالشوكانى الذى تأثر بالدعوة السلفية وعمل على نشرها بكتاباته فى اليمن موطنه وفى غيرها حيثما وصلت كتبه ، واذا كانت ظروف مصر واشتداد عصبية التقليد المذهبى بالأزهر قد حالت زمنا دون تقبل نزعة الشيخ محمد عبده الاصلاحية ، فان انشاء مدرسة القضاء الشرعى فى مصر على يد سعد زغلول ـ وهو أحد المتأثرين بالشيخ محمد عبده ، قد أعان على أن يجد النهج السلفى فى الفقه طريقه الى العقول والقلوب ، بحيث يرتبط المتفقهون بالكتاب والسنة بصورة اساسية ويلتمسون الحكم الشرعى بدليله حيثما وجد ٠ وكان من نتيجة هذا الاتجاه الفكرى من جهة والحاجات العملية للمجتمع المصرى المسلم من جهة اخرى ، أن اخذت آراء ابن تيمية الفقهية طريقها الى التشريع فى مجال الأحكام الشخصية ، بعد أن دأب الأزهر قرونا على النفور من ابن تيمية والتنفير منه ، وتفرز النهج السلفى فى تعليم الفقه فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة التى اضطلع بتدريس الشريعة فيها فى صدر حياتها خريجو مدرسة القضاء الشرعى

وقد وجدت الدعوة السلفية طريقها الى بلاد المغرب ومراكزه العريقة للتعليم الدينى ٠ وكان محمد بن على السنوسى الكبير (١٢٠٢ ــ ١٢٧٦ هـ) (١٧٨٧ ــ ١٨٥٩ م) الذى ولد بمستغانم بالجزائر قد رحل الى الحجاز واقام بها سنوات يطلب العلم واستهل دعوته بها ، ولم ينقطع التأثير الفكرى لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الرغم من الظروف السياسية التى مرت بالدولة السعودية وقتذاك ، وقد انتقد فى كتابه « ايقاظ الوسنان » : « انحصار التقليد فى الأئمة الأربعة رضى الله عنهم ، لأنه لا واجب الا ما أوجبه الله ورسوله ٠٠٠ وهذه بدعة قبيحة حدثت فى الأمة ، ولم يقل بها أحد من أئمة الاسلام » ، وقد تتابع على تأييد الدعوة السلفية فى المغرب علماء مغاربة أمثال محمد بن العربى العلوى وأبو شعيب الدكالى وعلال الفاسى ، وأعان تأثير الشيخ محمد عبده فى المغرب على تعزيز الدعوة السلفية هناك ، ووقوف علماء جامعة القرويين ضد بدع الطرقيين ٠ يقول مؤرخ فرنسى معاصر : « كان علماء القرويين أصحاب القوامة الشرعية على الحياة الدينية والد خصوم أهل الطرق الصوفية ٠٠٠ لا يعارضون فقط تبجحهم وأدوارهم السياسية ، وانما انهيار المعايير الخلقية بينهم مما كان وصمة فى جبين الاسلام » ٠ كما عرفت جامعة القرويين دراسة « الخلاف العالى » بين المذاهب أو ما يمكن أن يسمى « بالفقه المقارن » أصولا وفروعا ، ولم تحصر دراستها فى فقه الامام مالك السائد بالمغرب (١) ٠

وفى الهند تلمح روح الدعوة السلفية فى فكر ولى الله شاه بن عبدالرحيم الدهلوى (١١١٥ ــ ١١٧٧ / ١٧٠٣ ــ ١٧٦٢ م) صاحب كتاب « حجة الله البالغة » وكتابى « الانصاف فى بيان أسباب الاختلاف » ، « عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد » ، وان كان للشيخ نزعاته وآراؤه الخاصة التى لا تتوافق مع الفكر السلفى وتبرز مكانة النهج السلفى فى « دار العلوم » بديوبند فى الهند وبين المنتسبين الى ندوة علمائها ٠ كما قامت معاهد وجامعات سلفية أحدث عهدا ، منها الجامعة السلفية فى بنارس وغيرها ٠

---

(١) روم لاندو : أزمة المغرب الأقصى ، ترجمة اسماعيل على وحسين الحوت ومراجعة عبد العزيز الأهوانى ص ١٢٨ ــ ١٣٦ ، وأنظر أيضا مصطفى المهماه : المرأة المغربية والتصوف ص ٢٧ ــ ٢٩ ٠

كذلك كان للدعوة السلفية اثرها فى كتابات مؤرخى دعوات الاصلاح الاسلامى المعاصرين من المسلمين على اختلاف بلدانهم ، وقد تقدم ذكر احمد امين الكاتب المصرى صاحب كتاب «زعماء الاصلاح فى العصر الحديث» الذى تصدره فصل عن « محمد بن عبد الوهاب » ، وقد كان هذا الكتاب مقررا للمطالعة الثقافية بالمدارس الثانوية المصرية طوال عدة سنوات . وفى تونس ، تقرر لطلاب الثانوية العامة (البكالوريا) فى التربية الاسلامية كتاب « الاجتهاد والتجديد فى الاسلام » ، وقد تعاون على تاليف الكتاب عدد من المؤلفين هم مصطفى كمال التارزى ومحمد بن ابراهيم والبشير العريبى ومحمد المختار السلامى وعبد الرزاق الملوك ومحمد العلويتى وحسن المجيدى ومحمد على الذليفى . وكان مما استهدفه الكتاب فى تخطيط منهجه كما ضمنته مقدمته « الوصول الى أن حركة الاجتهاد قد امتدت وصاحبت تاريخ العلماء المسلمين على ما بين الفترات من قوة وضعف ... ومن بين النماذج التى اخترناها : ابن تيمية وابن قيم الجوزية فى القرن السابع الهجرى ، ومحمد بن عبد الوهاب وجمال الذين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا من رجال حركة التجديد فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر » . وقد تضمن الفصل المعقود للشيخ محمد بن عبد الوهاب فى هذا الكتاب أن « الاسلام لخص العقيدة السليمة ومبدأ التدين القويم فى كلمة : لا اله الا الله ، وهى تعنى : ليس فى الوجود كله من يستحق العبادة والتعظيم غير الله تعالى ، وليس فى هذا الكون كله قوة حقيقية قادرة على تدبير هذه الموجودات وتسيير هذه العوالم الظاهرة منها والخفية الا قوة الله .. فهو الذى ينفع ويضر وهو الذى يفقر ويغنى وهو الذى يحيى ويميت ... وان العقائد المزيفة نزعت من المسلمين فكرة التوحيد للخالق وذلك من شأنه أن يسلب من القلوب الأمن والاطمئنان ، وأساءت كثيرا الى نفوس المسلمين فجعلتهم بعيدين عن العزة التى دعاهم الاسلام اليها . وان الله تعالى هو المقرر للعقائد المشرع للأحكام فليس لأحد أن يحتج فى أى جانب من جوانب الدين بما يحدثه من بدع ، ولا شىء يخرج المسلمين مما هم فيه من الانحلال وضعف العقيدة الا الرجوع بهم الى الدين فى أصوله الصافية ... » . ويذكر الكتاب عن أثر الدعوة الوهابية أنها « بعد مبعث اليقظة الاسلامية فى الحجاز (الأصح فى شبه الجزيرة العربية) عند ملتقى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وهى وان ظلت مقصورة فى أول انبعاثها على حلفائها واتباعها

من سكان شبه الجزيرة العربية حتى توطد بها الأمر للأسرة السعودية ، فقد توسعت فيما بعد واخذت تنتشر شيئا فشيئا واعانها على هذا التوسع موسم الحج . فقد كان كثير من رجال الدين (؟) يفدون على مكة ويتصلون بالوهابيين فينقلون عنهم أصول دعوتهم الاصلاحية واهدافها ثم يرجعون الى أوطانهم متأثرين ببعض تلك المبادىء محاولين تطبيقها ... » (١) .

وكتب ابو الحسن على الحسنى الندوى عالم الهند المعروف كتابه « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » وقد قرر فى مقدمته أن « من الحقائق التاريخية أن تاريخ الاصلاح والتجديد متصل فى الاسلام ، والمتقصى لهذا التاريخ لا يرى ثغرة ولا ثلمة فى جهود الاصلاح والتجديد ، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل ويرفع صوت الحق ، ويتحدى القوى الظالمة أو عناصر الفساد ويفتح نوافذ جديدة فى التفكير » (٢) ويقول المؤلف فى الجزء الثانى من الكتاب الخاص بحياة شيخ الاسلام الحافظ أحمد بن تيمية : « ومن مآثر ابن تيمية التجديدية المستقلة أنه قام ببعث الفكر الاسلامى ... ومما لا يخفى أن الاسلام يمتاز بالنسبة الى النظم الفكرية الأخرى بأنه يقوم على اساس الوحى والنبوة المحمدية ، وأن عقائده وحقائقه لا تبتنى على القياس والتجارب والظن والتخمين والذكاء الانسانى والبحث والجدال ، بل تبتنى على تعليم الله تعالى وتبليغ رسوله صلى الله عليه وسلم ، والذى قاله صلى الله عليه وسلم وشرحه حول ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، وعن بدء العالم ومنتهاه ومبدئه ومصيره وعن المعاد والآخرة وخواص الأعمال ونتائجها ، وعن الأمور مما وراء الطبيعة التى لها علاقة بالدين انما هى العقائد والحقائق ولا سبيل الى معرفتها والايمان بها فى الحقيقة سوى الوحى والنبوة ... ومن مآثر ابن تيمية التجديدية أنه عندما دعا الناس بقوة الى اعتبار الكتاب والسنة مصدرا للعقائد وعمل بها نفسه فى غاية من الاهتمام ، كذلك دعاهم بقوة بالغة الى اتخاذ الكتاب والسنة مصدرا للأحكام ومقياسا للحق ، وقدم نموذجا عاليا للعمل بهذه الدعوة ... وان دعوة ابن

---

(١) التارزى وزملاؤه : الاجتهاد والتجديد ص ٥ ، ٣٣٢ ـ ٣٣٥ .

(٢) أبو الحسن الندوى : رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ـ ط ٣ ـ دار القلم بالكويت ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ـ ص ٢٦ .

تيمية هذه اثارت روحا ونشاطا من جديد فى اوساط الأمة الفقهية والعلمية التى كانت قد توقفت منذ مدة بعيدة عن دراسة الأحكام والمسائل والتفكير فيها ومقابلتها مع الكتاب والسنة ٠٠٠ وهكذا فانه قام ببعث الفكر الاسلامى الصحيح الذى وجد فى القرون الأولى وقامت عليه حياة المسلمين » (١) وفى ظنى أن من اجل مزايا الشيخ محمد بن عبد الوهاب انها بنشاطها العملى وطاقتها الحركية قد اشاعت بين المسلمين فى العصر الحديث وقربت الى اذهانهم فقه ابن تيمية فى اقتدارت وتمكنه وقوة حجته ، وكان مهدر الاعتبار لغلبة التقليد او مهملا منسيا على الرغم مما حبا الله به صاحبه فى فقه الاسلام من سعة علم واصابة حكم ٠

كذلك كتب ابو الاعلى المودودى مؤسس الجماعة الاسلامية فى الباكستان واميرها الأول « موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه » ، ذكر فيه ان الذين بلغهم تعليم الأنبياء وآمنوا بالوهية الواحد القهار « بحيث تجد سبيلها الى عقائدهم من طريق او آخر الوهية الأنبياء والأولياء والشهداء والصالحين والمجاذيب والأقطاب والأبدال والعلماء والمشايخ والملوك الملقبين بظل الله فى الأرض ٠٠٠ واتخذت العقول الجاهلية عباد الله الصالحين الذين صرفوا أعمارهم فى ابطال الوهية العباد واقرار الوهية الله تعالى وحده آلهة لها عوضا عن آلهة المشركين! فمن جانب ابتدعوا مكان شعائر المشركين وتقاليدهم شريعة جديدة من أعمال الفاتحة وزيارات القبور وتقديم النذور والصدقات والاحتفال بذكريات الموتى ووضع الصندل والتحف على الأضرحة ورفع الرايات والأعلام على التوابيت ، ومن جانب آخر أنشأوا من غير بينة علم خرافات برأسه من أحوال موالد أولئك السلف الصالحين ووقياتهم وظهورهم وغيابهم وكمالاتهم وخوارق عاداتهم وتصرفاتهم وتقربهم الى الله تعالى ، يضارع من جميع الوجوه خرافات المشركين ويناظرهم ٠ ومنهم منجعلوا كل ما يكون بين الله وعباده من المعاملات منوطا مرها بأولئك السلف الصالحين بعد أن موهوها بطلاء ذهبى من

---

(١) ابو الحسن الندوى : رجال الفكر والدعوة فى الاسلام : الجزء الثانى خاص بحياة شيخ الاسلام الحافظ احمد بن تيمية – تعريب سعيد الأعظمى الندوى – دار القلم بالكويت ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ص ٢٨٩ ، ٣١٠ – ٣١١ ٠

المصطلحات كالتوسل والاستمداد الروحى واكتساب البركة والنفع ، فأصبحت الحال عند هؤلاء فى واقع الأمر كما هى عند أهل الشرك الذين يعتقدون أن الملك الأعلى أبعد جدا من أن يصل اليه الانسان ، ولا تتصل جميع شئون حياة الانسان الا بعماله التابعين له ! ولم يعد بينهما من فرق سوى أن أولئك يصرحون بتسمية أولئك العمال آلهة وأوثانا أو مظاهر للاله أو أبناء لله ، وهؤلاء يخفون مكانهم من وراء حجب المصطلحات الأغواث والأقطاب والأبدال والأولياء وأهل الله وما شاكلها من ألقاب » ٠ ويقول المودودى رحمه الله عن ابن تيمية شيخ الاسلام : « جاهد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والأخلاق جهادا قويا عنيفا ولاقى فى سبيل ذلك أعظم المصائب ولم يغادر شائبة كدرت صفو المعين الاسلامى حتى أتى عليها بنقده المرير وخلص منها سبيل الاسلام المحصن وعرضها مجلوة أمام أعين العالمين ٠ وفى انتقاده وتنقيحه لم يجامل أحدا أو يحابه ، بل تناول باحتسابه الكبير والصغير ، ولم يفته فيه حتى الجلة الذين كان صيتهم فى الفضل والكمال والتقدس قد ملأ الآفاق ، وكانت تخضع لهيبتهم الرؤوس ٠ ثم توجه الى الطرق والأعمال التى كانت تعد من الأمور الدينية منذ قرون وكان الناس قد استخرجوا الأدلة لجوازها بل لاستحبابها والعلماء يداهنونهم فيها ، فوجدها ابن تيمية مضادة للاسلام فشدد فى مخالفتها » ٠ وقد نشرت الجماعة الاسلامية كتابا مفردا عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ألفه مسعود الندوى (١) ٠

وهكذا كان للدعوة السلفية التى اضطلع بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله آثارها الموصولة المتجددة على المفكرين المسلمين المحدثين ، وعلى معاهد التعليم الدينى ، وعلى المؤلفات المعنية بالتاريخ لدعوات الاصلاح الاسلامى ٠٠٠ وعلى هذا النحو لم ينقطع ذكر الشيخ ودعوته وفضله قط بعد وفاته ، وتضاعف أجره بما أحيا من دين الله ومن تعاقب على الانتفاع بذلك من علماء الاسلام ومتعلميه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ان شاء الله ٠

---

(١) المودودى : « موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه » و « واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم » فى كتاب واحد ـ ط ٣ ـ دار الفكر بيروت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م ص ٣٢ ـ ٢٥ ، ٨٩ ٠ وانظر مقدمة خليل الحامدى ص ٧

تاثير الدعوة السلفية على الحركات الاسلامية المعاصرة :

« نشرت الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية كتـابا كبيرا عنـوانه : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة » وضع خطتها وقام بمراجعهـا رائد المدرسة التاريخية المصرية الحديثة الأستاذ محمد شفيق غربال رحمـه الله ، وتعاون على اعداد هذه الدراسات ثلاثة من الباحثين : احدهم عـراقى والثانى سورى والثالث مصرى . وقد تصدرت الكتاب دراسة عن « اليقظـة الفكرية والسياسية فى القرن التاسع عشر (الميلادى) » اضطلع بها الباحث العراقى الدكتور محمد بديع شريف ، وقد قدمت الدراسة اشـارة الى « نواة اليقظة العربية (!) بعد انهيار بغداد » وتمثلت هذه النواة فى نظر الباحث « ابن تيمية » الذى قال عنه « نزه ابن تيمية الاله عما يريده به الضالون ، واكد عـلى عقيدة التوحيد بما جاء فى القرآن والحديث (افحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ، انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) . وقد صرح ابن تيمية فى مواضع كثيرة بما معناه : ان الاسلام جاء قويا شديدا يملأ القلوب نـورا ويحرر النفوس من الذلة ، فحطم الأصنام وبعث فى النـاس العزة والكرامة وساواهم وجعلهم اخوة وارتفع بهم من ذلة الأرض الى عزة السماء لكيـلا يتمرغوا تحت قدم صنم ولا يسجدون للنصب ولا يخشون عبدا من عبـاد الله مهما كانت منزلته ، فالخشية لله وحده والرابطة به وحده ، وفى هذه الرابطة المقدسة تقذ النفوس وتسمو الكرامة وتبدو الحرية مجـلوة .... » واختيار الباحث ابن تيمية ليكون « نواة اليقظة » اختيار له دلالته ، فهو ينبىء عن تأثر الباحث بالدعوة السلفية التى أعادت الى الأذهان فقه شيخ الاسـلام ونشرت علمه ، وقد افرد الباحث بعد ذلك مبحثا جعل عنوانه « محمد بن عبد الوهـاب وحركته الاصلاحية » اختتمه بقوله : « وفى نظرنا لو تم لهذه الحركة سيرهـا لتغير وجه التاريخ فى الشرق الأدنى . ومع أن قوتها السياسية قد زالت زمنـا ما ، فقد فتحت افقا جديدا للمسلمين فى كافة انحاء العالم الاسلامى فتكاد لا تجد حركة من حركات الاصلاح ، الا كان مرجعها لما نادى به محمد بن عبد الوهاب فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر (الميلاديين) » (١) .

---

(١) محمد بديع شريف ، زكى المحاسنى ، احمـد عزت عبد الكريم : دراسات فى النهضة العربية الحديثة ــ وضع خطتها وقام بمراجعتها وترتيبها :

وما قرره الباحث العراقى ، قد اصاب به قلب الحقيقة التى يشـــهد بها تاريخ الحركات الاسلامية الحديثة والمعـــاصرة ، فى مختلف الأنحـــــاء من ديار الاسلام ٠

وكتب لوثروب ستودارد يقول : « ان خاتمة هذا الدور السياسى (للدولة السعودية الأولى) كانت خاتمة الدور الدينى (أى دور انتشار الدعوة السلفية خارج شبه الجزيرة العربية) ، فقد ظلت نجد بؤرة تشتعل فيهــــا نار الغيرة الدينية ومنبثق نور تنبعث منه الاشعة الوهاجة الى كل ناحية من نواحى الأرض ٠٠ وما فتىء الوهابيون منذ قضى على قوتهم السياسية يبثون روح الحـركة الدينية فى مئات الألوف من الحجيج الوافدين كل عام الى مكة والمدينة من كل قطر من اقطار العالم الاسلامى ، فيقتبس هؤلاء نارا وهابية ثم يعـــودون الى اوطانهم يشعلون بها ما استطاعوا اشعاله فى سبيل الاصلاح ، وهكذا استطاع الوهابيون أن يبذروا بذورا ملأها الاختمار الشديد للثورة الدينية فى كل فـج اسلامى ، حتى بلغت دعوتهم الدينية اقصى المعمورة ٠ فقام فى شمالى الهنـد السيد احمد مستنفرا مسلمى بنجاب ونشأ دولة وهابية وكان يعد عدته لفتــح سائر شمالى الهند فحالت منيته دون ذلك ٠ واضمحلت الدولة الوهابية الهندية سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م ، غير انه لما جاء الانجليز يفتحون البلاد عانوا الأمرين من بقايا النار الوهابية الكامنة فى الرماد ، وظلت هذه النار مخبوئة الى ما شاء الله فكانت عاملا من عوامل الثورة الهندية ، ثم استطار من شررها ما تنـاول افغانستان وسائر القبائل الهندية عند الحدود الشمالية الغربية فأشعلها ايمـا اشعال وفى تلك الغضون قام السيد محمد بن السنوسى فى الجزائر واتى مكـة ورضع افاويق الوهابية فيها ، ثم اخذ يجاهد فى سبيل انشاء الطريقة الدينيـة المعروفة باسمه ٠٠٠ » (١) وذكر احمد امين عن « السيد احمد » الزعيم الهندى انه حج فى عام ١٢٣٧ هـ / ١٨٢٢ م حيث تعرف فى الحجاز على الدعـــوة

محمد شفيق غربال ــ نشر الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية مع مكتبــة الانجلو المصرية بالقاهرة ، انظر ص ٨ ــ ١٣ ، ١٨ ــ ٢١ والنص الأخـير وارد فى آخر ص ٢١ ٠

(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ـ ترجمة عجاج نويهض جـ ١ ص ٢٦٣ ٠

السلفية (ويقول عنها المؤلف : المذهب الوهابي !) ، فآمن بالدعوة وعمل على نشرها في البنجاب عقب عودته ، وانشأ بها شبه دولة وهابية ، وأخذ سلطانه يمتد حتى هدد شمال الهند ، وأقام حربا عوانا على البدع والخرافات ، وشملت الحرب كل من ظاهر البدع من علماء الدين ودعاته ، وأعلن الجهاد واعتبر الهند دار حرب ، ولقى الانجليز من الرجل وانصاره كل عداء وعناء حتى استطاعوا التغلب عليه (١) ٠

اما محمد بن علي السنوسي الكبير (١٢٠٢ ـ ١٢٧٦ هـ / ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩ م المولود في مستغانم من نواحي الجزائر فقد تعلم في مازونة بالجزائر في حداثته ثم درس بجامع القرويين في فاس ٠ ورحل بعد ذلك الى الحجاز مارا بتونس وليبيا ومصر ، وقد اقام بالحجاز سنوات ، واستهل السنوسي دعوته بالحجاز فاعترضه رجال الحكم العثماني الذين كانوا يخشون تجدد الدعوة

---

(١) احمد امين : زعماء الاصلاح ص ٢١ ، وذكر احمد عبد الغفور عطار في كتابه « محمد بن عبد الوهاب » عن « السيد احمد الباريلي » الزعيم الهندى المولود في قرية راى باريلي انه استشهد في ميدان الجهاد سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣١ م وذكر العقاد ان دعوة ابن عبد الوهاب « تردد صداها في البنغال سنة ٨٠٤ واتبعها جماعة (الفرائضية) بنصوصها الحرفية فاعتبرت الهند دار حرب الى أن تدين بحكم الشريعة ٠ ثم تردد صدى الدعوة الوهابية بعد ذلك بزعامة السيد احمد الباريلي في البنجاب واوجب على اتباعه حمل السلاح لمحاربة الشيخ (حلفاء الانجليز المستعمرين) وتقدمهم في القتال حتى قتل ٠٠ ونهض من بعده تلميذه كرامة على فاتصل بالفرائضية وافتى بأن البلاد الاسلامية تجب فيها صلاة الجمعة ولا تحسب من ديار الحرب وان كان الحكم فيها لغير المسلمين » (الاسلام في القرن العشرين ص ٦٩) ويقول توماس ارنولد « وفى القرن التاسع عشر (الميلادى) سنة ١٩٠٠ م حركة الدعوة الى الاسلام في البنغال بتأثير الحركة الوهابية الاصلاحية وكان الدعاة يتنقلون لتطهير الاسلام من بقايا العقائد الهندوكية القديمة وايقاف الحماس الديني ونشر العقيدة الاسلامية بين الكفار ، وما يزال للوهابية في البنغال دعاة يفتقرون الى المال ومع فقرهم فانهم نشطون في الدعوة ، وعندما كنت في باكستان الشرقية في جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩ هـ / اغسطس سنة ١٩٦٩ م لقيت بعضهم وذكروا انهم تتلمذوا على علماء من البنغال درسوا على الشيخين عبد الله وعمر ابنى حسن حفيدى شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب » (الدعوة الى الاسلام ـ الترجمة العربية ص ٢٣٩) ٠

السلفية وجهاد محمد بن عبد الوهاب ، واختار السنوسى الصحراء الليبية منشطا لدعوته حيث اختار (زواياه) التى جعلها مراكز للتجمع والتعبد والتعليم وعلى رأسها زاوية جغبوب التى أسسها السنوسى ١٢٧١ هـ / ١٨٥٥ م وكانت (الزاوية) مسجدا تلحق به مساكن (للاخوان) من أتباع الشيخ ، ومزرعة ومحلات للحرف والصناعات ، وكان السنوسى يختار مراكز زواياه فى مواقع (استراتيجية) قريبة من الآبار وطرق القوافل والأراضى الصالحة للزراعة ، ويستفيد من مراكز الرومان وآثارهم القديمة لهذا الغرض ، وكان يحصن الزاوية ومرافقها بسور خارجى ، وقد أكد السنوسى فى كتابته وجوب متابعة الكتاب والسنة دون سواهما ، وبين أنهما مقدمان على رأى كل مجتهد ، ونعى على التقليد ، وقد أنحى باللائمة فى كتابه (ايقاظ الوسنان) على الذين يوجبون « انحصار التقليد فى الأئمة الأربعة رضى الله عنهم ، لأنه لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ··· وهذه بدعة قبيحة حدثت فى الأمة ولم يقل بها أحد من أئمة الاسلام ، فيا لله العجب ! ماتت مذاهب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومذاهب التابعين وتابعيهم وسائر أئمة الاسلام وبطلت جملة إلا مذاهب أربعة أنفس فقط بين الأئمة والفقهاء ؟ وهل بذلك قال أحد الأئمة أو دعا اليه ؟ » · كذلك يذكر السنوسى فى كتابه (بغية المقاصد وخلاصة المراصد) ان هدى الأئمة الراشدين فى الفتوى والتعليم والقضاء هو مجرد اداة لفهم المسلمين للكتاب والسنة ، كما ذكر أن السلوك الخلقى المستقيم هو الذى يتأيد بالكتاب والسنة ، على أن السنوسى مع ذلك سار على التربية الصوفية والتجمع الصوفى ، وقد أبان عن (طريقته) فى كتابه (السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين » ، ويلاحظ انه تجنب الحديث عن كرامات الأولياء وخوارق العادات وميزات (المقدمين) من المريدين · وقد قدر للزوايا السنوسية أن تضطلع بدور بطولى فى مقاومة الغزو الايطالى الذى دهم ليبيا سنة ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م ، كما كان لها نشاط مشكور فى الدعوة الى الاسلام خلال الأرجاء الشاسعة الممتدة من شمالى افريقية الى اقاصى السودان (١) ·

---

(١) انظر محمد البهى : محاضرات فى الفكر الاسلامى الحديث ــ القاهرة محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين الدولة ــ القاهرة · وانظر أيضا مقالات شكيب ارسلان المضافة الى حاضر العالم الاسلامى تأليف لوثروب ستودارد وترجمة عجاج نويهض جـ ٢ ص ١٣٠ ــ ١٦٥ ، ٣٩٨ : ٤٠٧ وما كتبه المؤلف

وتغلغلت الدعوة السلفية داخل افريقية حتى بلغت نيجيريا ، وتمثلت هناك فى حركة عثمان بن فودى الذى ينتسب الى شعوب الفولانى التى خرجت من موطنها فى منطقة السنغال وتسربت فى بطء نحو الشرق ، وقد اقامت أسرة عثمان بن فودى فى بلاد الحوصة ، وقد ولد عثمان سنة ١١٦٠ هـ / ١٧٥٦ م فى بيت علم ، أسلم أجداده منذ زمن طويل وتفقه أبوه فى الدين واشتغل بالعلم هو وزوجته وأولاده ذكورا واناثا ، وقد رحل الى الحجاز وسمع فى مكة بالدعوة السلفية فنفذت الى أعماق قلبه ، وظهرت آثارها واضحة فى مؤلفاته التى بلغت زهاء عشرين مؤلفا ومنها « احياء السنة واخماد البدعة ، بيان البدع ، تمييز المسلمين ، الجهاد ، نصائح الأمة ، الهجرة ... » وكلها موضوعات لها دلالتها فى التأثر بالدعوة السلفية ، وكان من مؤلفات أخيه عبدالله « سبيل النجاة ، ضياء السياسة ، ضياء الحكام ، مصالح الانسان » كما الف ايضا ابنه محمد بللو بن عثمان كتبا منها « الاعلام بما يجب على الامام من حفظ بيضة الاسلام ، قدح الزناد فى أمر هذا الجهاد ، الغيث الوابل فى سيرة الامام العادل ، التحرير فى قواعد التبصير للسياسات » . وتشهد روايات المعاصرين لهؤلاء السلاطين أو القريبين من عهدهم بآثار الدعوة السلفية فى سيرهم وبخاصة ما ورد فى كتاب « تذكرة النسيان فى أخبار السودان » الذى أفرد ذيلا لتاريخ السلطان محمد بللو بن عثمان . فقد عرف عنه انكار بدع

ستودارد نفسه بنفس الجزء ص ٢٩٣ ـ ٣٠٠ ، ويقول شكيب أرسلان عن اختيار السنوسى الكبير لجغبوب مركزا له « ويقولون انه كان قد شعر بدنو استيلاء الأجانب على تلك الديار فاختار الايغال الى الجنوب والاقامة بالصحراء فعمر زاوية جغبوب وتوفى فيها ... واختار ولده المهدى السنوسى الانزواء فى واحدة الكفرة ، وقال بعضهم انه لما استقرت قدم الانجليز بمصر أجفل السنوسى ووضع نصب عينيه الايغال فى الصحراء وانتجاع واحة تكون أقصى من جغبوب مكانا وأعز منالا ، وقال آخرون بل السنوسى منذ زمن بعيد يتكهن بوقوع الحرب مع (الطليان) فشرع يهيء أتباع طريقته للمقاومة ويعلم فضائل الجهاد مما ظهر اثره فى حرب ايطاليا سنة ١٩١١ م ظهورا أدهش الشرق والغرب ، واثبت ان الطريقة السنوسية هى عبارة عن دولة بل كثير من الدول لا تملك ما ملكته الطريقة السنوسية من الوسائل الحربية وذلك بكونها طريقة عملية لا تعرف سوى العمل بالكتاب والسنة والاقتداء بسلف هذه الأمة » جـ ٢ ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

المأثم ، ورفض ما يحيط به الناس موقاهم الصالحين من قداسة تكاد ان تكون عبادة ، بل انتقد المبالغة فى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ومدحه بما يخرجه عن بشريته ، كما هاجم الفساد الأخلاقى فى مجتمعه وشرب الخمر ٠ وقد حض على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حين تزايد انصاره ، وشرع يتصل بالأمراء المعاصرين فى بلاده يحضهم على الاصلاح ومحاربة البدع والاتحاد لنشر الاسلام بين الوثنيين ٠ وما فتىء عثمان وخلفاؤه يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحطمون دنان الخمر ويكسرون آلات الطرب ، ولم يفز عثمان بن فودى بمناصرة أمير من أمراء الحوصة ، بل استعر العداء بين الفريقين سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م وسارعت عشائر الفولانى الى تأييد ابنها الداعية المؤمن ٠ وكانت جيوش عثمان وخلفائه تقرأ آيات الجهاد فى الكتاب الكريم مثل سورة براءة ، وتتسم حياتها بالخشونة والزهد ٠ ولقد حققت انتصارات ساحقة متتابعة فى كانو وزاريا وسوكوتو التى اتخذها حاضرة لدولته ودعوته وقد أعيد بناؤها فيما بعد فى عهد ابنه محمد بل سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م ، وتحقق فتح امارات زنفير وغوبير وكب وخضعت امارات الحوصة كلها للدولة الفتية سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م ، وقد عمد عثمان الى قسمة حكم الدولة فى حياته بين ابنه محمد وأخيه عبد الله للأول شرقها وللثانى غربها وتوفى هو سنة ١٢٣٣ هـ / ١٨١٧ م ٠ وقد قام حكمه هو وخلفائه على الشورى ٠٠ وقد كتب سلطان المغرب سليمان بن السلطان محمد (الثالث) من العلويين (١٢٠٦ ــ ١٢٣٦ هـ / ١٧٩٢ ــ ١٨٢٠ م) الذى عرف بتدينه وحبه للعلم وحمايته للدين الى عثمان بن فودى « ٠٠٠ الى السيد الذى فشا فى اقطار السودانيين عدله ، واشتهر فى الآفاق المغربية ديانته وفضله ، العلامة البينة ٠٠٠ ذو النورين : العلم والعمل اللذين هما منتهى الأمر ــ السيد عثمان ابن محمد بن عثمان بن صالح الفولانى نفع الله بعلومه القاصى والدانى ، وسلام منا عليه ما اشتد شوقنا اليه ورحمة من الله تغشاه حتى لا يخشى الا الله والله أحق أن تخشاه ، وبعد ٠ فقد بلغنا من الثناء عليك والتعريف بأحوالك وأفعالك ذلك ما أوجب محبتنا وتسليمنا اليك ، وذلك بلسان سلطان ناحيتكم أمير الطوائف الاسلامية بساحتكم المقر فى كتابه الينا بفضلك وانك ناصح لله ٠٠٠ فانه أخبرنا بما قمت به من الواجب من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠٠٠ حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ٠٠٠ وهذا من أعظم المنح وأتم النعم

ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم ، فالله تعالى يجازيكم عن الأمم خيرا ويديم دولتكم محفوفة محفوظة وبعين العناية ملحوظة ··· قال الله تعالى : (ولينصرن الله من ينصره ، ان الله القوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) · والسلام منا على جنابكم الذى صار للاسلام بخصوص نصيحتكم كالبيت المعمور ··· » (١) ·

وفى منطقة ماسنة بين السنغال والنيجر ، ظهر بين جماعة الغولانى التى سكنت هناك احمد ولوبو (احمد الرمح) الذى تربى فى الدعوة الاصلاحية لعثمان بن فودى وكان يعمل له فى أرض صنفى بحوض النيجر ، وبعد نهاية الجهاد وقيام الدولن اتجه أحمد ولوبو الى موطنه فى ماسنة واتخذت دعوته طابعا مهدويا ، وقد دخل مدينتى تنبكتو وجنى وطهرهما من البدع والمنكرات ومنع التدخين ، وأقام حاضرة له بالقرب من جنى أسماها (حمد الله) وكانت قاعدة لأمارة اسلامية عظيمة فى منطقة ماسنة وقد توفى سنة ١٢٦٠ هـ / ١٨٤٤ م (٢) · وبرز هذا الطابع المهدوى ايضا فى دعوة محمد أحمد بالسودان وقد ولد فى احد اعمال دنقلة سنة ١٢٥٩ هـ / ١٨٤٣ م واستهل جهوده فى جزيرة ابا ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م ، ثم اتجه الى غربى السودان ١٢٩٨هـ/١٨٨١م وتسجل احدى رسائله معالم دعوته التى تستهدف « اماته ما حدث من البدع والضلال والانابة اليه تعالى فى كل الأحوال ، وقد تأكد فى هذا الزمان الذى عم فيه الفساد سائر البلدان ، فان دسائس اهل الكفر التى ادخلوها على اهل الاسلام وضلالاتهم التى مكنوها من قلوب الأنام قد افضت الى اندراس الدين وعطلت احكام الكتاب والسنة بيقين ، فصارت شعائر الاسلام غريبة بين الأنام وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع وأبيحت محارم الاسلام » وقد اهم محمد

---

(١) حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيــة ــ القاهرة ١٩٦٣ م ص ٢٨٤ ــ ٢٩٣ وانظر ايضا بحث د · ابراهيم طرخان : امبراطورية الغولانيين الاسلامية (مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض ــ عدد العام الجامعى ١٣٩٨ ــ ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٨ ــ ١٩٧٩ م) ·

(٢) حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية ص ٢٩٤ ــ ٢٩٦ ، أيضا : أبراهيم طرخان : امبراطورية الغولانيين الاسلامية ·

أحمد دخول الانجليز مصر ، ودعا الى « أن يكون الجميع يدا واحدة على اقامة الدين واخراج أعداء الله من بلاد المسلمين » · وعلى الرغم من حرص الرجل على انفاذ الأحكام والحدود الشرعية فى كل ما يغلب عليه من أرض السودان ، ودعوته لاستنباط الأحكام من الكتاب والسنة ، والنهى عن الاستعانة بالأولياء وزيارة قبورهم وعن شرب الدخان والمضى فى الجهاد ، فقد كانت له شطحاته التى لا يقره عليها أخذ بنهج السلف (١) ·

تاثير الدعوة السلفية فى الجماعات الاسلامية الحركية القائمة :

فاذا ما انتقلنا من الحركات التى تركزت غالبا حول شخص انتهت بنهاية حركته أو حياته ، الى الحركات التى كان لها الطابع الجماعى والاستمرار ، وجدنا تأثير الدعوة السلفية بارزا فى فكرها وحركتها · ونختار لبحثنا ثلاث **جماعات معاصرة توزعت على انحاء العالم الاسلامى : اولها فى الجزائر وقد قامت بجهود عبد الحميد بن باديس ، والثانية فى مصر وقد اقامها حسن البنا ، والثالثة فى شبه القارة الهندية والباكستان منها بوجه خاص وقد اسسها ابو الأعلى المودودى ·**

اما عبد الحميد بن باديس (١٣٠٦ ـ ١٣٥٩ هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٤٠ م) فقد ظهر نشاطه فى مدينة قسنطينة بشرقى الجزائر بعد ان تلقى العلم فيها وفى

---

(١) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية ص ٣٩٨ ـ ٤١٠ ·
ويقول عبد المجيد عابدين فى كتابه « تاريخ الثقافة العربية فى السودان » ـ ط ٢ ـ بيروت ١٩٦٧ م عن محمد أحمد المهدى أنه : « أبطل السحر والتمزيم وكتابة الأحجبة ونفذ حد الزانى والسارق وأبطل النياحة على الميت وجمع الزكاة وصار يأخذ من الغنائم الخمس وأمر بالمحافظة على الصلوات الخمس جماعة · أما الحج ـ وهو فى الشرع لمن استطاع اليه سبيلا ـ فقد قيل أنه منع السودانيين مؤقتا منه حتى يتقى شر الدسائس التى كانت تحدق به خارج بلاده ، وقيل أنه كن يؤثر الجهاد عليه ولكنه لم يمنع منه أحدا » ويتفق عبد المجيد عابدين مع حسن أحمد محمود فى تأثر مهدى السودان فى مضمون دعوته بالشيخ محمد بن عبد الوهاب ، مثلما تأثر بها محمد بن على السنوسى ، وان اختار كل منهما صورة المهدوية أو الطريقة الصوفية · وروى أن مهدى السودان احرق كتب الفقه وغيرها من كتب علوم الدين ولم يبق الا الكتاب العزيز وتفاسير قليلة له وكتب السنة وكتب التصوف ص ١٣٢ ـ ١٣٩ ·

جامع الزيتونة بتونس وقد رحل الى الحجاز سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م وعمره اربعة وعشرون عاما هجريا ، ثم عاد الى موطنه فشرع يلقى الدروس بالجامع الكبير فى قسنطينة ولكن تصدى له المفتى المولود بن موهوب واستطاع أن يمنعه من التدريس هناك ، ولكن تمكن والد عبد الحميد بن باديس بمكانته ومساعيه من أن يستصدر اذنا لولده بالقاء الدروس فى الجامع الأخضر بقسنطينة وقد شرع يدرس به منذ سنة ١٣٣٢ هـ / ١٩١٣ م ، ولم تكن السلطة الاستعمارية وقتذاك تتوقع أن ينجم عن ذلك الاذن اليسير ما هب على كيانها من خطر كبير ٠ وقد انتصب عبد الحميد بن باديس بمفرده فى أول الأمر يعلم الدارسين ويثقف العامة ، ويخطب ويكتب فى الصحف ، ويعمل على ربط الأواصر مع ذوى المكانة والعلم والرأى من مواطنيه المسلمين على مر الأعوام ، حتى استطاع أن يؤسس « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » سنة ١٣٥٠ هـ / ١٩٢١ م ٠ وقد استمرت الجمعية فى الدعوة للاسلام بين الجزائريين وربطهم بدينهم ولغتهم لمواجهة جهود السلطة الاستعمارية الفرنسية فى احتواء الجزائر أرضا وشعبا وعقيدة وثقافة ، وعملت الجمعية على انشاء المدارس الاسلامية العربية للحفاظ على عقيدة الأجيال الناشئة من الجزائريين ولغتهم والثبات أمام المحاولات الاستعمارية التى تريد أن تصوغ هذه الأجيال صياغة فرنسية ٠ وقد قام على رأس الجمعية بعد وفاة عبد الحميد بن باديس سنة ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م وكيلها محمد البشير الابراهيمى ٠ وظلت الجمعية قائمة حتى قامت حرب التحرير الجزائرية سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م فخاضت غمارها فى نطاق الجبهة الموحدة التى ضمت الأحزاب والجماعات الجزائرية لأجل جهاد الاستعمار الفرنسى ٠ وبعد الاستقلال ، اختارت الدولة الجزائرية المستقلة ألا تسمح بقيام أحزاب أو جماعات ، وأن يكون النشاط الشعبى السياسى مركزا فى جبهة التحرير الوطنى ، وهكذا استمر غياب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ٠

وقد تصدى ابن باديس فى دروسه — وبخاصة دروسه فى تفسير القرآن — وفى مقالاته بالصحف ومحاضراته وخطبه لتصحيح العقيدة ، ودعوة المسلمين الى الرجوع للكتاب والسنة وترك ما عداهما مما تراكم على العقول والقلوب والسلوك من بدع وضلالات ، ويستشهد بمثل قوله تعالى : « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ٠ يا ويلتى ليتنى لم اتخذ

فلانا خليلا · لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني ، وكان الشيطان للانسان خذولا » (الفرقان / ٢٧ ـ ٢٩) : « **فالخسران الذى وعد به الله من يخالف الكتاب والسنة وان كان موجها للمشركين ، الا انه من نصيب أهل البدع والضلال في المجتمع الاسلامى** » « ··· وضعنا أوضاعا من عند انفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا **خرجنا فى أكثرها عن الحنيفية السمحة الى الغلو والتنطع ، وعن السنة البيضاء الى الأحداث والبدع ، وادخلنا فيها من النسك الاعجمى والتخيل الفلسفى ما ابعدها غاية البعد عن روح الاسلام ، والقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام** ··· » ثم يشير ابن باديس الى أن هذه البدع المصطنعة قد ثقلت على المسلمين أخيرا حتى مضوا الى الانفلات من الدين جملة اذ هم قد ظنوا أن هذه البدع هى الدين (١) ·

هذه الدعوة الواضحة الصريحة الى تصحيح العقيدة ، يبدو فيها بجلاء اثر الدعوة السلفية · وقد كان على عبد الحميد بن باديس أن يواجه ضلالات الطرق الصوفية التى عششت فى بوادى الجزائر وأريافها فضلا عن مدنها ، فشن حربا عوانا على بدعهم من جهة وعلى ممالأتهم للسلطة الاستعمارية من جهة أخرى ، وعانى الرجل الكثير من مكائدهم التى استغلوا فيها انتشارهم الشعبى من جهة ومساندة السلطة الأجنبية الغاصبة من جهة أخرى ولكن الله أعانه على نصرة دينه وغلبة أعدائه ، وقد كتب يوما فى مجلته « الشهاب » : **« كان الناس كأنهم لا يرون الاسلام الا (الطرقية) ، وقد زاد ضلالهم ما كانوا يرون من الجامدين والمغرورين من المنتسبين للعلم من التمسك بها والتأييد لشيوخها** · فلما ارتفعت دعوة الاصلاح فى (جريدة المنتقد) و (مجلة الشهاب) **حسب الناس أن هدم تلك الأضاليل التى طال عليها الزمان ورسخها الجهل وأيدها السلطان محال** ! ولقد صمد (الشهاب) للطرقية ، **يحارب ما أدخلته على القلوب من فساد عقائد وعلى العقول من باطل أوهام وعلى الاسلام من زور وتحريف وتشويه ، الى ما صرفت الأمة عن خالقها بما نصبت من انصاب ، وشتتت من كلمتها بما اختلفت من القاب ، وقتلت من عزتها بما اصطنعت من**

---

(١) تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام العليم الخبير ـ نشر محمد الصالح رمضان وتوفيق شاهين ـ دار الكتاب الجزائرى بالجزائر سنة ١٩٦٤ م ـ أنظر بوجه خاص ص ٢٢٧ ـ ٢٣١ ·

ارهاب ، حتى حقت للحق على باطلها الغلبة ،، فهى معروفة عنـــد أكثر الأمة حقيقتها ، معلومة غايتها ، مفضوحة دوافعها ··· » (١) ، ويذكر محمد البشير الابراهيمى أنه كان قد التقى بعبد الحميد بن باديس فى المدينة المنورة ســـنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م وتشاورا فى شأن العمل للاسلام بالجزائر وانتهى بهمـــا الرأى الى أن « البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين (الشعب الجزائرى) آت من جهتين متعاونتين عليه ، أو بعبارة أوضـــح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويفسدان عليه دينـــه ودنيـــاه : استعمار مادى هو الاستعمار الاستعمار الفرنسى ، واستعمار روحانى يمثله مشايخ الطـــرق المؤثرون فى الشعب والمتغلغلون فى جميع اوساطه والمتجرون باسم الدين والمتعاونون مـع عن رضا وطواعية ··· والاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الآخر بكلقوته » وغرضهما معا تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم ، وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة ··· ولقد كان من ســـداد الرأى أن يبدأ بمحـــارية هذا الاستعمار الثانى ··· » (٢) وقد تضمن القانون الأساسى لجمعية العلماء المســـلمين الجزائريين أن « اعتقاد تصرف احد من الخـــلق مع الله فى شىء ما شـــرك وضلال ، ومنه اعتقاد الغوث والديوان » ، وأن « بناء القبور ووقد السرج عليها والذبح عندها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال من اعمال الجاهلية ومضـاهاة لأعمال المشركين » ، وأن « الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبنـاها كلها على الغلو فى الشيخ والتحيز لأتباع الشيخ وخدمة دار الشـــيخ وأولاد الشيخ ، الى ما هنالك من استغلال واذلال واعانة لأهل الاذلال والاســتغلال ، ومن تجميد للعقول واماتة للهمم وقتل للشعور » (٣) ، وقد حاولت الســـلطة الاستعمارية وأذنابها من الطرقيين اغتيال ابن باديس سنة ١٣٤٦ هـ/١٩٢٦ م ثم عمد هؤلاء الى تلفيق التهم زورا لرجال حركة الاصلاح الاسلامى ، ســـواء الاتهامات فى ساحة القضاء أو الادعاءات التى تنتشر بين الناس ، ومن ذلك أنهم قالوا ان ابن باديس وجماعته هم أتباع لمحمد بن عبد الوهاب ، كما قالوا أيضا

---

(١) مجلة الشهاب عدد المحرم ١٣٥٧ هـ / مارس ١٩٣٨ م ·

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٢١ سنة ١٩٦٦ ص ١٤٣ وما بعدها ·

(٣) القانون الأساسى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبخاصـــة الفصل الرابع بعنوان (دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائرية) البنود من قم ١٤ الى رقم ١٦ ·

انهم اتباع لمحمد عبده . وكتب عبد الحميد بن باديس فى هذا الصدد مقـــالا بجريدة (السنة المحمدية) فى عددها الثالث سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣/٩/٢٥م) جعل عنوانه « عبداويون ثم وهابيون ، ثم ماذا ؟ لا ندرى والله » ، بل ان نائبـا من عملاء الوالى الفرنسى قد وصف « جمعية العلماء » بانهم « مالكيـــون » ، وكان هذا الوصف تهمة اخرى !! ورد ابن باديس فى نفس العدد من الجـريدة بقوله « ليت الناس كانوا مالكية حقا ، اذن لاطرحوا كل بدعة » ! والحـــق أن الذى يزور الجزائر المعاصرة ، يثلج صدره وتقر عينه الا يجد فى العـامة من اهل مدنها وفى اهل بواديها وأريافها ما يجده من نزعات قبورية وطرقية عنــد امثالهم فى كثير من المجتمعات الاسلامية الأخرى ، رغم تناثر قبور (المرابطين ـ اى الأولياء الصالحين فى زعم الناس » فى انحاء البوادى والأرياف ، ممـن يصعب تحقيق تاريخهم فى كثير من الأحيان ، فلا يعـلم ان كانوا من مرابطى الجهاد او العلم او العبادة او من الأفراد العاديين المغمورين او من الأدعيـاء الزائفين ، بل انه ليس من المستبعد فى بعض الأحيـان الا يكون تحت القبـة والضريح دفين على الاطلاق !! والذى يقارن حالة العامة الجزائميين بغـيرهم فى بلدان المغرب والمشرق يستطيع أن يقدر العبء الجليل الذى نهض به الداعية الجزائرى المصلح واخوانه فى التمكين لعقيدة السلف من النفوس والعقول فى تلك البلاد المترامية الأطراف . وقد كتب مبارك الميلى احد اعضاء الجمعيـة المبرزين كتابا موضوعه « الشرك ومظاهره » .



اما **حسن البنا** (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ ـ ١٩٤٨ م) فكان قد تأثر فى صباه بمؤثرات صوفية ، الا انه حين اسس جماعته « **الاخـوان المسلمين** » بمدينة الاسماعيلية الواقعة على ضفة قناة السويس سنة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م كان قد تجاوز تأثير النزعة الصوفية على انه كان يحرص منذ حداثتـه على التزام السنة حتى فى لباسه ، فكان يضع على رأسه وهو طالب بمدرســة المعلمين « عمامة ذات عذبة » ، كما كان يلبس نعلا كنعل الاحرام فى الحـج ورداء فوق الجلباب ، وقد سأله عن زيه هذا مدير التعليم فأجابه كما يروى فى مذكراته « انه السنة » فقال له « وهل عملت كل السنن ولم يبق الا ســنة الزى ؟ « لا ونحن مقصرون كل التقصير ولكن ما نستطيع أن نفعله نفعـله »

وكان يطلق لحيته ، وقد واجه عند استهلاله دعوته فى الاسماعيلية انقساما سابقا بين « انصار السنة » و « الطرقية » فى المدينة ، فهو يروى فى مذكراته انه سئل ليلة فى احد دروسه التى كان يلقيها بمسجد صغير عن « التوسل » وقد راى امارات الفرقة والتحفز بين الناس فقال للسائل « يا اخى اظنك لا تريد ان تسالنى عن هذه المسالة وحدها ولكنك تريد ان تسالنى كذلك فى الصلاة والسلام (على رسول الله صلى الله عليه وسلم) بعد الأذان ، وفى قراءة سورة اهل الكهف يوم الجمعة ، وفى لفظ السيادة للرسول صلى الله عليه وسلم فى التشهد ، وفى ابوى النبى صلى الله عليه وسلم واين مقرهما ، وفى قراءة القرآن وهل يصل ثوابها الى الميت او لا يصل ، وفى هذه الحلقات التى يقيمها اهل الطرق وهل هى معصية او قربة الى الله ؟ » وهكذا كان الرجل واعيا بحقيقة الموقف ومواضع الخلاف والانكار ، وقد شاء ان يواجه الأزمة والخلاف بطريقة مرنة . يروى فى مذكراته « ... واخذت اسرد له (للسائل) مسائل الخلاف جميعا التى كانت مثار فتنة سابقة وخلاف شديد فيما بينهم ، فاستغرب الرجل وقال : نعم اريد الجواب على هذا كله ، فقلت له : يا اخى انى لست بعالم ، ولكنى مدرس احفظ بعض الآيات وبعض الاحاديث النبوية وبعض الأحكام الدينية من المطالعة فى الكتب واتطوع بتدريسها للناس ، فاذا خرجت بى عن هذا النطاق فقد احرجتنى ومن قال لا ادرى فقد افتى ، فاذا اعجبك ما اقول ورأيت فيه خيرا فاسمع مشكورا ، واذا اردت التوسع فى المعرفة فسل غيرى من العلماء والفضلاء المختصين فهم يستطيعون افتاءك فيما تريد ، واما انا فهذا مبلغ علمى ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، فاخذ الرجل بهذا القول ولم يحر جوابا واخذت عليه بهذا الأسلوب سبيل الاسترسال ، وارتاح الحاضرون او معظمهم الى هذا التخلص ، ولكنى لم ارد ان تضيع الفرصة فالتفت اليهم وقلت لهم : يا اخوانى انا اعلم تماما ان هذا السائل وان الكثير من حضراتكم ما كان يريد من وراء هذا السؤال الا ان يعرف هذا المدرس الجديد من أى حزب هو ؟ امن حزب الشيخ موسى او من حزب الشيخ عبد السميع (وهما الرجلين اللذين كانا على راس السلفيين والطرقيين فيما يبدو) ، وهذه المعرفة لا تفيدكم شيئا وقد قضيتم فى جو الفتنة ثمانى سنوات وفيها الكفاية ، وهذه المسائل اختلف فيها المسلمون مئات السنين ولا زالوا مختلفين ، والله تبارك وتعالى يرضى منا بالحب والوحدة ويكره منا الخلاف والفرقة ، فارجوا ان تعاهدوا الله ان تدعوا هذه الأمور الآن وتجتهدوا فى ان

لتعلم أصول الدين وقواعده ونعمل باخلاقه وفضائله العامة وارشاداته المجمع عليها ونؤدى الفرائض والسنن ، وندع التكلف والتعمق حتى تصفوا النفوس ويكون غرضنا جميعا معرفة الحق لا مجرد الانتصار للرأى ، وحينئذ نتدارس هذه الشئون كلها معا فى ظل الحب والثقة والوحدة والاخلاص ، وارجو ان تتقبلوا منى هذا الرأى ويكون عهدا فيما بيننا على ذلك ، وقد كان ، ولم نخرج من الدرس الا ونحن متعاهدون على أن تكون وجهتنا التعاون وخدمة الاسلام الحنيف والعمل له يدا واحدة وطرح معانى الخلاف واحتفاظ كل برأيه فيها حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . واستمر درس (الزاوية) بعد ذلك بعيدا عن الجو الخلافى فعلا بتوفيق الله ... » . على أن حسن البنا كان يحاول أن يصوغ فكر المستمعين اليه وأعضاء جماعته فى تدرج وبطء نحو العقيدة الصحيحة ، وينزع بالناس نحو فهم السلف لحقائق الدين فى يسر ، ويحرص على ألا تكون جماعته « طريقة » اخرى من طرق الصوفية ويأخذ بأيدى الناس بعيدا عنها وان لم يشأ أن يصطدم مباشرة بها لتغلغلها وتاثيرها بمصر فى العامة والخاصة على السواء . يقول فى مذكراته « ولكن الحق اننى لم اكن متحمسا لنشر الدعوة على انها طريق خاص لأسباباهمها اننى لا اريد الدخول فى خصومة مع ابناء الطرق الأخرى ، وأننى لا أريد أن تكون محصورة فى نفر من المسلمين ولا فى ناحية من نواحى الاصلاح الاسلامى ، ولكنى حاولت جاهدا أن تكون دعوة عامة قوامها العلم والتربية والجهاد وهى اركان الدعوة الاسلامية الجامعة » . على أن حرص الرجل على الا يتصادم هو مع الطرق أو غيرهم من الجماعات الدنيية لم يمنع غيره من أن يبدأ هو النزال والصدام « ... فانه ما كان يظهر اعجاب الناس بها (بالدعوة) والتفافهم حولها وتقديرهم للعاملين لها حتى اخذت عقارب الحسد والضغينة تدب فى نفوس ذوى الأغراض ، وراحوا يصورون الدعوة والداعين للناس بصور شتى : فهم تارة يدعون الى (مذهب خامس) ، وهم أحيانا شباب طائش ، وهم احيانا نفعيون مختلسون ياكلون أموال الناس بالباطل وهكذا ، » ... وكتبوا عريضة الى رئيس الحكومة (وقتذاك) ضمنوها أمورا غريبة منها أن هذا المدرس شيوعى متصل بموسكو ويستمد المال من هناك ... ومنها أن هذا المدرس وفدى (أى منتم للحزب المعارض للحزب الحاكم وقتذاك) ويعمل ضد النظام الحاضر ... » وزعموا أن حسن البنا يعرض فى دروسه ومحاضراته سيرة ابى بكر الصديق أو سيرة عمر بن عبد العزيز ليغمز حكّام مصر فى ذلك الوقت،

وفشلت هذه المكائد ، وبدا من الرجل حرصا على التزام السنة عملا وأن شاء أن يتوقى الجدال القولى على الملا ، فقد حدث أن زار القاضى الشرعى لمدينة الاسماعيلية مع غيره من كبار الموظفين والوجهاء بالمدينة فى احدى ليالى رمضان « ٠٠٠ فقدم الينا فى اكواب من الفضة وجاء دورى فطلبت كوبا من زجاج فقط ، فنظر الى فضيلته مبتسما وقال ان المسألة خلافية فيها كلام طويل ونحن لم نفعل كل شيء حتى نتشدد فى مثل هذا المعنى ، فقلت يا مولانا انها خلافية الا فى الطعام والشراب فالحديث متفق عليه والنهى شديد ٠٠٠٠ ولا مناص من الامتثال ، وتدخل القاضى الأهلى فقال « يا فضيلة القاضى ما دام هناك نص فالنص محترم ، ولسنا ملزمين بالبحث عن الحكمة وايقاف العمل بالنص حتى تظهر ، فعلينا الامتثال أولا ثم ان عرفنا الحكمة فيها والا فذاك تصور منا والعمل على كل حال واجب » يقول صاحب المذكرات « فانتهزتها فرصة وشكرت له ، وقلت له مشيرا الى اصبعه : وما دمت قد حكمت فاخلع هذا الخاتم فانه من ذهب والنص يحرمه ٠٠٠٠ (وبعد حوار قصير) خلع خاتمه وكانت جلسة لها صداها فى جمهور يرى مثل هذا الموقف العادى أمرا بمعروف او نهيا عن منكر أو نصيحة فى الله » وحين فكر حسن البنا اخوانه فى احياء السنة بصلاة العيد بالصحراء « ٠٠٠ اذا بى أفاجأ بحملة عنيفة من المتربصين بالدعوة بأن هذا ابتداع فى الدين وتعطيل للمساجد وافتاء بالباطل ، ومن ذا الذى يقول أن الشارع أفضل من الجامع ٠٠٠ وتصادف أنى كنت حينذاك معتكفا العشر الأواخر من رمضان بالمسجد العباسى ، فكان الناس يتقاطرون على عقب كل صلاة ويسألوننى عن هذه (البدعة) الجديدة !! فأنا استغرب هذه الحملة التى لا اساس لها واقرر حكم الدين بكل بساطة وبراءة وأطلع الناس على النصوص الفقهية فى هذا المعنى وأتجنب الجدل والمراء وأوصى بجمع الكلمة والبعد عن الخصومة » ٠ وقد كان الرجل رسم لنفسه وجماعته خطة معينة فى هذا الأمر « مراعاة لما أعلم من سرعة انقسام الآراء فى هذا البلد حول المسائل الدينية لشدة حساسيته ولقرب عهده بالخلافات الماضية ، اشترطت الا نخطو خطوة حتى نستبشر العلماء ونتفق معهم على اسلوب التنفيذ ، فان وافقوا فذاك والا فان **اجتماع الآراء على خلاف الأولى أفضل من افتراقها وتشتيت الكلمة على ما هو الفضل »** ، لكن جمهور المسلمين اذا بصر بالحق جند نفسه للدفاع عنه واتخذ هو المبادرة « وتجمع الجمهور للحق والسنة وأعلنوا أن الصلاة ستكون بظاهر البلد وأعدوا المصلى لذلك فعلا » ٠

ويتوقى فى ذلك المصادمة والمهاجمة قدر طاقته « ... وخلال كل مجلس من مجالسه تطرق باب العقيدة الصحيحة فينميها ويقويها ويثبتها بما ورد من آيات الكتاب الحكيم وأحاديث الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم وسير الصالحين ، ولا يعمد كذلك الى نظريات فلسفية أو فقهية منطقية وانما يلفت الأنظار الى عظمة البارى فى كونه والى جلال صفاته ويذكر بالآخرة لا يعدو جلال القرآن الكريم فى هذه المعانى كلها ، **ثم لا يحاول هدم عقيدة فاسدة الا بعد بناء عقيدة صالحة وما أسهل الهدم بعد البناء واشقه قبل ذلك ...** »

وكلما مرت الأيام ازداد فكر الرجل تبلورا لا بشأن الحرص على التزام فهم السلف للاسلام فحسب ، بل بشأن « المواجهة » الصريحة للمخالفين قولا وعملا ، فهو يشير فى آخر ما نشر من مذكراته التى انتهت عند وقائع سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م الى حضور شخص الى الاسماعيلية « يدعو الى الطريقة .... وأنا انما وقفت نفسى لدعوة أرى أنها خير السبل للاصلاح الاسلامى ، وأمثال هؤلاء يريدون تحويلها وتشكيلها بشكل دعواتهم وذلك ما لا أريده .. **لقد آن الأوان الذى اعتزل فيه عن كل هذه الدعاوى المشتبهة ، واكشف فيه عن الغاية للاصلاح الاسلامى الذى يتلخص فى الرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله وتطهير العقول من هذه الخرافات والأوهام وارجاء الناس الى هدى الاسلام الحنيف** » (١) .

وقد أوضح حسن البنا كتابة الأصول العقيدية فى رسالته « التعاليم » التى يبدو أن تاريخ صدورها مقترن بيوم بيعة الصف الأول من الاخوان المسلمين فى ٥ من ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ أو قريب منه وقد جاء فيها ضمن ركن « الفهم » من أركان البيعة العشرة : « **الاسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء وهو مادة وثروة أو كسب وغنى وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة كما عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء ، والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى التعرف على احكام**

---

(١) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية ـ ط ٢ بيروت سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٦٦ م ص ٢٠ ، ٥٨ ـ ٥٩ ، ٦١ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ١٠٠ ـ ١٠٢ ، ١٢٦

بسواء ، والقرين الكريم والسنة المطهرة مرجع لكل مسلم فى التعرف على احكام الاسلام ويفهم القرآن (والسنة) طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف ويرجع فى فهم السنة المطهرة الى رجال الاحاديث الثقات · وللايمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفهـا الله فى قلب من يشاء من عباده ، **ولكن الالهام والخـواطر والكشف والرؤى ليست من ادلـة الاحكام الشرعية** ولا تعتبر الا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه · **والتمائم والرقى والودع والرمل والكهانة وادعاء معرفة الغيب وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته** ـ الا ما كان من اية من قرآن او رقية مأثورة ·· **وكل احد يؤخذ من كلامه ويترك الا المعصوم صلى الله عليه وسلم** ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه والا فكتـاب الله وسنة رسوله اولى بالاتباع ، ولكنا لا نعرض للأشخاص فيما اختلف فيه بطعن او تجريح ونكلهم الى نياتهم وقد افضوا الى ما قدموا ، ولكل مسلم يبلغ درجة النظر فى ادلة الاحكام الفرعية ان يتبع اماما من ائمة الدين ، **ويحسن به مـع هذا الاتباع ان يجتهد ما استطاع فى تعرف ادلته وان يتقبل كل ارشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده** ··· وان يستكمل نقصه العلمى ان كان من اهل العلم حتى يبلغ درجة النظر · والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سببا للتفرق فى الدين ولا يؤدى الى خصـومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجـره ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف فى ظل الحب فى الله والتعاون عـلى الوصول الى الحقيقة من غير ان يجر ذلك الى المراء المذموم والتعصب · وكل مسألة لا ينبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذى نهينا عنه شرعا من ذلك كثرة التفريعات للأحكام التى لم تقع والخوض فى معانى الآيات القرآنيـة الكريمة التى لم يصل اليها العلم بعد والكلام فى المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته وفى التأول مندوحة **ومعرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقـائد الاسلام ، وآيات الصفات واحاديثها الصحيحة وما يتعلق بذلك من المتشـابه نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل** ، ولا نتعرض لما جاء فيهـا من خلاف بين العلماء ويسعنا ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) · **وكل بدعة فى دين الله لا أصل لها استحسنها الناس باهوائهم سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه ضلالة** تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التى لا تؤدى الى ما هو شر منها · والبدعة الاضافية والتركين والالتزام **فى العبادات المطلقة خـلاف**

فقهى لكل فيه رأيه ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان · ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة الى الله تبارك وتعالى ، والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون) والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد انهم رضوان الله عليهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا فى حياتهم او بعد مماتهم فضلا عن ان يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم ، وزيارة القبور أيا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ، ولكن الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداءهم لذلك وطلب الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور لهم وسترها واضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سدا للذريعة · والدعاء اذا قرن بالتوسل الى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة ، والعرف الخاطىء لا يغير حقائق الالفاظ الشرعية بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها والوقوف عندها كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء ، والعقيدة اساس العمل ، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة وتحصيل الكمال فى كليهما مطلوب شرعا وان اختلفت مرتبة الطلب » (١) ·

وواضح من هذه « التعاليم » التى وجهها حسن البنا الى جماعته حرصه على تثبيت الاعتقاد على منهج السلف ، ولا يغض من ذلك ايثاره الحكم على « الاستعانة بالمقبورين والنذر لهم وسترها واضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات » بانها « كبائر » وليست شركا أو كفرا ، فلعله راعى تفشى الأمية والجهالة بين الواقعين فى ذلك من بنى قومه وقتذاك بحيث أنهم لا يدركون المعنى الحقيقى والدلالة الصريحة الصحيحة لما يقولون او يفعلون ، وقد الحق بذلك ذكر معايير وضوابط دقيقة للتحرى والحكم ، حيث أعقب ذلك مباشرة بقوله « والعرف الخاطىء لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها والوقوف عندها كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل ناحية من نواحى الدنيا والدين فالعبرة

---

(١) مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا ــ مؤسسة الرسالة : بيروت ص ٧ ــ ١١

بالمسميات لا بالأسماء » ٠ كذلك لا يغضن من حرص الرجل على نهج السلف فى الاعتقاد انه ذكر أن « الدعاء اذا قرن بالتوسل الى الله بأحد من خلقه **خلاف فرعى فى كيفية الدعاء** وليس من مسائل العقيدة » ، فيبدو أنه قد آثر أخذ الأمر على ايسر وجوهه وما يجمع الناس ولا ينفرهم من القول بالتكفير ، ولا سيما أن ظلمات الجهل والتقليد كانت تخيم على العقول والقلوب ، حتى غابت دلالات العقل ومعانى الألفاظ وحقائق آيات الكتاب التى تتلى بين الناس بكرة وعشيا ٠

ولحسن البنا رسالة مفردة فى « العقائد » لم تتم فصولها ونلاحظ فيها انه عرض عرضا مجملا صفات الله فى القرآن ، واعتمد على ذكر آيات الكتاب الكريم التى وصف الله بها نفسه ، مع تعقيب بذكر ما ورد من صفات اصطلاحية عند الأشاعرة وغيرهم من المتكلمين ، فهو يورد مثلا قوله تعالى « **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** » (الحديد/٣) وقوله تعالى « **كل شىء هالك الا وجهه** » (القصص/٨٨) ثم يقول « **وفى هذه الآيات الكريمة اشارة الى صفتى القدم والبقاء لله تعالى** » ، ويورد قوله تعالى « **يايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد** » (فاطر/١٥) وقوله تعالى « **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا** » (الكهف/٥١) ثم يقول « وفى ذلك اشارة الى قيامه تعالى بنفسه واستغنائه عن خلقه ٠٠٠ » ٠ وقد أورد الكاتب فى رسالته مذهبى السلف والخلف فى آيات الصفات وأحاديثها فقال عن مذهب السلف « اما السلف رضوان الله عليهم فقالوا نؤمن بهذه الآيات والأحاديث كما وردت ونترك بيان المقصود منها لله تبارك وتعالى ، فهم يثبتون اليد والعين والأعين والاستواء والضحك والتعجب ٠٠٠ الخ ، وكل ذلك بمعان لا ندركها ونترك لله تبارك وتعالى الاحاطة بعلمها » ثم يقول بعد ايراد اراء الخلف « **ونحن نعتقد ان رأى السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعانى الى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع حسما لمادة التأويل والتعطيل ، فان كنت ممن أسعده الله بطمانينة الايمان وأثلج صدره ببرد اليقين فلا تعدل به بديلا** » ونعتقد الى جانب هذا أن تأويلات الخلف لا توجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق ولا تستدعى هذا النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم قديما وحديثا ، وصدر الاسلام أوسع من هذا كله ٠ وقد لجأ أشد الناس تمسكا برأى السلف رضوان الله عليهم الى التأويل فى عدة مواطن ، وهو الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه من ذلك تأويله لحديث (الحجر الأسود

يمين الله فى أرضه) وقوله صلى الله عليه وسلم (قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن) ٠٠٠ وقد بانت للامام النووى رضى الله عنـــه ما يفيد قرب مسافة الخلاف بين الرأيين ٠٠٠٠ وخلاصة البحث أن السلف والخلف قد اتفقا أن المراد غير الظاهر المتعارف بين الخلق وهذا تأويل فى الجملة ، واتفقا كذلك على أن كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعية غير جائز فانحصر الخـــلاف فى تأويل الألفاظ بما يجوز فى الشرع ٠٠٠ وأهم ما يجب أن تتوجه اليـــه همم المسلمين الآن توحيد الصفوف وجمع الكلمة ما استطعنا الى ذلك سبيلا ٠ على أن حسن البنا يورد فى هذه الرسالة عقب نقل أقوال السلف فى آيات الصـفات وأحاديثها « اعــلم رحمك الله أن العصمة فى الـدين أن تنتهى حيث انتهى بك ولا تجاوز ما قد حد لك ، فان من قوام الدين معرفة المعروف وانكار المنكر ، فما بسطت عليه المعرفة وسكنت اليه الأفئدة وذكر أصله فى الكتاب والسنة وتوارث علمه الأمة فلا تخافن فى ذكره وصفته من ربك ما وصف من نفســـه عينا ولا تكلفن بما وصف من ذلك قدرا ، وما أنكرته نفسك ولم تجد ذكره فى كتاب ربـك ولا فى الحديث عن نبيك من ذكر صفة ربك فلا تتكلفن علمه بعقلك ولا تصـفه بلسانك واصمت كما صمت الرب عنه من نفسه ، فان تكلفك معرفة ما لم يصف به نفسه مثل انكارك ما وصف منها ، فكما أعظمت ما جمع الجاحدون ممـــا وصف من نفســـه فكذلك أعظم تكلف ما وصف الواصـــفون مما لم يصف منها ٠٠٠٠ » (١) ٠

وبعد ، فالحق أن اهتمام حسن البنا بتصحيح الاعتقاد ، ووجوب انتهاج نهج السلف فيه ، وعدم الانشغال عن ذلك بالدعوة العامة للاسلام دون تفصيل وبيان أو بتنظيم الجماعة والاستكثار من فروعها وأنصارها أو بجهاد الاستعمار ومواجهة الأحداث السياسية فى مصر والعالم الاسلامى ، يومىء الى فطنـــة الرجل وحسن معرفته بالاسلام واهمية العقيدة فيه واهميتها لكل اصلاح يدعى اليه بين المسلمين ، كما يومىء الى دوى الدعوة السلفية للشـيخ محمـــد بن عبد الوهاب الذى ولا يزال يتردد ويتجدد عبر السنين والأجيال ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٤٥٦ ـ ٤٥٨ ، ٤٧٩ ـ ٥٠٠

كذلك فان دعــوة ابى الأعلى المودودى (١٣٢١ ـ ١٣٩٩ هـ / ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م) فى شبه القارة الهندية علىشمول مقاصدها فى اصلاح جوانبالحياة جميعا بهدى الاسلام التمامل الكامل كما ورد فى كتاب الله الكريم وسنة نبيــه المبعوث رحمة للعالمين ، قد أسست بناءها على العقيدة الصـــحيحة ، وأقامت عليها « الجماعة الاسلامية » التى تكونت فى لاهور ســنة ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م وما زالت قائمة حتى الآن فى دول شبه القارة الهندية ٠٠٠٠ يقـــول المودودى فى مستهل رسالته « مبادىء الاسلام » : « الكفر جهل ، بل الجهل الحقيقى هو الكفر ! أى جهل أكبر وأدهى من جهل ما لا يعرف ربه ، يشاهد هذا الكون دائبا على عمله ليل نهار ثم لا يعرف من خلقه وأوحى اليه الدأب على عمله ؟ ٠٠٠٠ الكفر ظلم ، بل أعظم الظلم وأشنؤه هو الكفـــر ٠٠٠ وقد عرفت أن كل ما فى السموات والأرض من شىء مذعن لأمر الله ، والذى يكفر بالله انما يتصرف فى أعضاء جسده على وجه لا يوافق فطرتها ٠٠٠ ليس الكفر بظلم فحسب بل هـــو بغى وعدوان وجحود وكنود أيضا ، أو ترى الانسان مالكا لشىء مما يجده بين يديه ؟ من ذا الذى خلق عقله ودماغه ؟ ٠٠٠٠ فقل لى بالله : هل هناك كفـــر أفظع من كفر من لا يؤمن بالله ويأبى أن يقر له بالألوهية والربوبية ويعرض عن طاعته وامتثال أمره ؟ ٠٠ » ثم يقول الكاتب فى الفصل التالى « ان أول ما يجب على الانسان بهذا الصدد أن يكون موقنا من قلبه بوجود الله تعالى ٠٠٠ وكذلك يجب عليه أن يعرف صــفات الله تعـــالى ، فانه اذا لم يعـــرف أن الله واحــد لا شريك له فى ألوهيته ، فكيف يرتدع عن طأطأة رأســـــه ومد يده أمام غير الله ؟ ٠٠٠ فكل من عرف توحيد الله وصفاته الحقيقية وقانونه ومجـــــازاته لعباده على أعمالهم يوم القيامة ثم كان موقنا بكل ذلك من قرارة نفســـه هـــو المؤمن ، ومن نتائج الايمان أن يكون الانسان مسلما أى مطيعا لله ومتبعـــــا لقانونه » ٠ ويوضح المودودىأهمية العقيدة الصحيحة فى تمييز المؤمنين فيذكر أن « الذين لا يؤمنون بالله ولكنك تراهم ظاهرا يأتون بأعمال تشـــابه أعمال المسلمين فهم البغاة فى حقيقة الأمر ، وأما أعمالهم التى تراها صالحـــــة فى الظاهر فليست بطاعة لله ولا باتباع لقانونه فلا عبرة بهــــا » ، فى حين أن أصحاب العقيدة الصحيحة « الذين يؤمنون بالله ولكن لا يجعلهم ايمانهم مطيعين له متبعين لأحكامه اتباعا كاملا ، فهؤلاء وان كان ايمانهم لم يبلغ درجة الكمال لكنهم مسلمون على كل حال يعاقبون بقدر معصيتهم » ٠ ثم يعـــود الكاتب فى فصل لاحق لذكر الايمان مفصلا « فلما لم يكن هناك من سبيل الى معرفة ذات

الله تعالى وصفاته والطريق الذى يرضاه من عباده لقضاء حياتهم والكيفية الصحيحة لما يحصل لهم فى الآخرة من ثواب أو عقاب على أعمالهم الا بالنبى المبعوث من عند الله تعالى كان التعريف الصحيح لدين الاسلام أن **تؤمن بتعاليم النبى ونعبد الله وفقا لهدايته** ۰۰۰۰ وأول وأهم ما أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن نؤمن به هو لا اله الا الله ،.وهذه الكلمة هى التى يقوم عليها بناء الأسس وهى التى تميز المسلم من الكافر والمشرك والملحد وهى التى تحدث الفرق العظيم بين الانسان المؤمن بها والانسان المعرض عنها ۰۰۰ ولا يأتى هذا هذا الفرق العظيم بين الرجلين بمجرد نطق أحدهما بكلمة ۰۰۰ الحق أن الفرق الحقيقى لا يحصى الا اذا نزل معنى هذه الكلمة فى سويداء قلبك وأيقنت بصدقها كل الايقان ۰۰۰ وعليك أن تعرف الآن ما هو (الاله) ، فمعناه لغة المستحق للعبادة أى من كان من حيث كبريائه وجلالة شأنه وعلو منزلته جديرا بأن يعبده الناس ويطأطئوا له رءوسهم فى العبادة ، وكذلك يشمل معنى الاله أنه القوى قوة جبارة يتحير العقل الانسانى فى ادراك مداها ، وكذلك يتضمن من كان غير محتاج الى أحد وكان الجميع محتاجين اليه مضطرين الى الاستعانة به فى جميع شئون حياتهم ۰۰۰۰ فمعنى لا اله الا الله انه ليس فى هذا الكون أحد جدير بأن يعبده الناس ويسجدوا له بالطاعة والعبادة الا الله ۰۰۰ وتعال نبين لك كيف يؤثر الاقرار بالتوحيد فى حياة الانسان ولماذا يكتب الاخفاق والخسران لمن لا يؤمن بهذه الكلمة ۰ لا يمكن أن يكون المؤمن بهذه الكلمة ضيق النظر فانه يؤمن بالذى خلق السموات والأرض ويملك مشارق الأرض ومغاربها وهو رب العالمين يرزقهم ويربيهم ۰ فهو لا يستغرب شيئا فى هذا الكون بعد هذا الايمان ۰۰۰ وليس فى هذا الكون شىء يقوم فى وجهه ويحد عليه عاطفة الحب والمواساة وخدمة الناس ، بل هو واسع النظر لا يضيقه شىء كما لا يضيق شىء ملك الله تعالى ۰۰۰ والايمان بهذه الكلمة ينشىء فى الانسان من الألفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شىء ۰۰۰ فهذا العلم اليقينى يغنيه عن غير الله وينزع من قلبه خوف سواه فلا يطأطىء رأسه أمام أحد من الخلق ولا يتضرع اليه ولا يرتعب منه ۰۰۰ وفى الوقت نفسه ينشىء الايمان بهذه الكلمة التواضع فى الانسان ، فالذى يقول بأن لا اله الا الله لا يمكن أن يكون بطرا متكبرا » ۰ ثم يذكر المودودى فى فصل عن « العبادات » : « العبادة هى العبودية معنى وحقيقة ، فكل ما يأتى به العبد فى طاعة معبوده هو العبادة ۰۰۰ ان خوفك الله تعالى فى كل شأن من شئون

حياتك وفى كل حين وجعلك مرضاة الله نصب عينيك واتباعك لقانونه ورفضك لكل منفعة تنالها او يمكن ان ينالها بمعصيته وصبرك على كل مضرة تصيبك أو يمكن ان تصيبك بطاعته ذلك كله من عبادتك لله تعالى . وحياتك بهذا الطريق من أولها الى آخرها عبادة ... وقد افترض الاسلام على الانسان مجموعة من العبادات تهيئه لهذه العبادة الكبيرة (الشاملة) » . ثم يعرض الكاتب لانحرافات التصوف ويقول « لا يحل لصوفى ان يتحلل من الصلاة والحج والزكاة ، ولا يحق له أن يخالف حكما بينه الله ورسوله الكريم فى شأن من شئون الاقتصاد والاجتماع والمعاشرة والأخلاق والمعاملات والحقوق والواجبات وحدود الحلال والحرام ... انما التصوف فى حقيقة الأمر حب صادق لله ورسوله وولوع بهما وتفان فى سبيلهما والذى يقتضيه ذلك كله ألا ينحرف المسلم قيد شعرة عن اتباع أحكام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وانما القيام بأحكامها بغاية من الاخلاص وصفاء النية وطهارة القلب » . ويعدد المودودى حقوق الله عز وجل « أولها أن يؤمن به ولا يشرك به ولا يتخذ غيره الها ولا ربا ، والثانى ان يذعن اذعانا تاما لما جاء به سبحانه من عنده من الحق والهداية ويؤدى هذا الحق بالايمان بمحمد رسول الله صلوات الله عليه ، والثالث ان يطاع عز وجل ويؤدى هذا الحق باتباع شريعته كما بينها كتاب الله المجيد وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والرابع أن يعبد بأداء الفرائض والواجبات ... » وينكر الكاتب على من زعم « أنه لابد عند الله من شفاعة الشافعين من الأولياء والأرواح المقدسة واتخاذهم اليه وسيلة فهكذا يبقى فى الذهن كثير من الأوهام الواهية على الرغم من اعتقاد التوحيد ولأجلها يتورط فى أوحال الشرك والكفر . وذلك من نتائج الجهالة » (١)

وقد أجملت « الجماعة الاسلامية » دعوتها فى خطاب ألقاه المودودى فى اجتماع لها بقرية دار الاسلام فى الهند فى شهر ابريل سنة ١٩٤٥ م وكان عنوانه « الدعوة الاسلامية فكرة ومنهجا » ، وجاء فى بيان أصول هذه الدعوة « دعوتنا للبشر كافة والمسلمين خاصة أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا ولا يتخذوا الها ولا ربا غيره . ودعوتنا لكل من أظهر الرضا بالاسلام

---

(١) المودودى : مبادىء الاسلام ـ طبعة الاتحاد الاسلامى العالمى للمنظمات وطلابية سنة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ص ١٠ ـ ١٣ ، ٦٥ ـ ٢٦ ، ٢٨ ـ ٣٠ ، ٧٨ ـ ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٢ ـ ٩٣ ، ١٢٨ ـ ١٣٠ ، ١٥٧ ـ ١٥٨ ، ١٦٥

دينا أن يخلصوا دينهم لله ويزكوا أنفسهم من شوائب النفاق وأعمالهم من التناقض » . ويذكر المودودى فى خطابه سالف الذكر « ان العبودية لله الواحد الأحد التى ندعو اليها ليس المراد بها أن يقر العبد بعبوديته لله تعالى شأنه ثم يبقى فى حياته العملية حرا طليقا كما كان من قبل فى حياته الجاهلية ، وكذلك ليس المقصود من عبودية العبد لله أن يعتقد كونه تعالى خالقا للكون رازقا لمن فى الأرض مستحقا للعبادة من جميع خلقه من غير ان يكون له سلطان فى هذه الحياة الدنيا ومسائلها وشئونها المتعددة المتشعبة .... والذى نراه ونجزم به ونعتقده وندعو الناس اليه أن العبودية التى دعا اليها رسل الله الكرام من لدن أبى البشر آدم عليه السلام إلى سيدنا وسيد المرسلين وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم المراد بها أن يقر العبد ويعتقد انه ما من اله الا الله الفرد الصمد الحاكم بين عباده السيد المطاع فى خلقه المالك لأمورهم المتصرف فى شئونهم المجازى على أعمالهم المشرع لهم وأن يسلم نفسه لله العزيز المقتدر ويخلص دينه له تعالى وحده ويذعن لعبوديته فى كل شأن من شئون حياته الفردية منها والجماعية ... » كما يقول فى خطاب آخر بالاجتماع السنوى للجماعة بكراتشى فى نوفمبر سنة ١٩٥١م « ليس لتوطيد العلاقة بالله الا طريق واحد هو أن يؤمن الانسان به وحده ربا والها لنفسه ولسائر المخلوقات فى السموات والأرض ، ولا يعتقد صفات الألوهية وحقوقها وصلاحها الا مختصة به سبحانه وأن يطهر قلبه من كل شائبة من شوائب الشرك » (١) .

ويذكر المودودى فى « موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه » : « ان الذين بلغهم تعليم الأنبياء وآمن أهلها بألوهية الواحد القهار قد زال عنهم الاعتقاد بسائر أنواع الآلهة ولكن بقيت ألوهية الأنبياء والأولياء والشهداء والصالحين والمجاذيب والأقطاب والأبدال والعلماء والمشايخ والملوك الملقبين بظل الله فى الأرض ــ بقيت ألوهية كل أولئك تجد سبيلها الى عقائدهم من هذا الطريق أو ذاك . واتخذت العقول الجاهلة عباد الله الصالحين الذين صرفوا أعمارهم فى ابطال ألوهية العباد واقرار ألوهية الله تعالى وحده آلهة لها عوضا عن آلهة المشركين . فمن جانب ابتدعوا مكان شعائر المشركين وتقاليدهم شريعة

---

(١) المودودى : تذكرة دعاة الاسلام ـ مطبوعات الجماعة الاسلامية بپاكستان ــ لاهور ــ ط ٢ سنة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

جديدة من أعمال الفاتحة وزيارات القبور وتقديم النذور والصدقات والاحتفال بذكريات الموتى ووضع الصندل والتحف على الأضرحة ورفع الرايات والأعلام على توابيت الشهداء ، ومن جانب آخر أنشأوا من غير بينة علم خرافات قائم براسه عن خوالد أولئك الصالحين ووفياتهم وظهـــورهم وغيابهم وكمالاتهم وخوارق عاداتهم وتصرفاتهم وتقريبهم الى الله تعالى ـ يضارع من جميـــع الوجوه خرافات المشركين ويناظرها ، ومنهم من جعلوا كل ما يكون بين الله وعباده من الأعمال منوطا أمرها بأولئك الصالحين بعد أن موهوها بطلاء من المصطلحات كالتوسل والمدد والتبرك ... فأصبحت الحال عند هؤلاء فى واقع الأمر كما هى عند أهل الشرك الذين يعتقدون أن الملك الأعلى أبعد جدا من أن يصل اليه الانسان ، ولا تتصل جميع شئون حياة الانسان الا بعماله التابعين له ، ولم يعد بينهما من فرق سوى أن أولئك يصرحون بتسمية أولئك العمـــال ألهة وأوثانا أو مظاهر للاله أو أبناء الله ، وهؤلاء يخفون مكانهـــم من وراء حجب المصطلحات الأغواث والأقطاب والأبدال والأولياء وأهل الله وما شاكلها من الألقاب .... وما زال هذا النوع من الجاهلية ـ جاهلية الشرك ـ يقـارن الجاهلية المحضة ويظاهرها فى عصور التاريخ ... » (١) .

ويبين المودودى « ان القرآن قد بين فى مواضـــع كثيرة أن الكفـــار والمشركين الذين كانوا فى نزاع مستمر مع الأنبياء لم يكونوا من المنـــكرين لوجود الله ، بلكانوا يعترفون له بخلق السموات والأرض وبخلق أنفسهم وبأنه هو الذى يدبر الأمور .. ويوضح لنا القرآن أن الرسل كانوا يقولون فى دعوتهـم لهم : ان الذى خلق السماء والأرض وخلقكم انما هو ربكم والهكم فلا تجعلوا لكم الها وربا من دونه ولا تجعلوا له أندادا ، ولكنهم لم يكونوا مســـتعدين لقبوله ... والعبادة ليست بمعنى الشعائر والمناسك فحسب بل العبـد الذى يعيش عيشة العبودية لله فحياته كلها عبادة ، سواء الصلاة والركوع والسجود والجد والسعى فى طاعته والقيام بكل ما يأمر وينهى والانقياد له والطاعة فى

---

(١) المودودى : موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه ، وواقع المســلمين وسبيل النهوض بهم فى مجلد واحد ـ دار الفكر ـ بيروت ط ٣ سنة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨ م ص ٢٢ ـ ٢٥ .

كل ما سن من شرع والمناصبة لكل ما يخالف أمره وتضحية النفس وبذل المهج في سبيل رضاه ـ هذه كلها عبادة وهذا هو المعنى الحقيقي للعبادة ···· وان نوعا من البشر يدعى الألوهية والربوبية بشرا من غير استخفاء ، وهناك نوع آخر لم يتهيأ له مثل تلك القوة والوسائل ، فهم يتسلحون بأسلحة من الشعوذة والدجل ···· ومنهم رجال يحترفون الكهانة والتنجيم واستخراج الفـــأل وكتابة التعاويذ والرقى ، ومنهم من يعترفون بأنهم عباد لله ولكنهم يرون أنـه لا يمكن الوصول اليه تباركت أسماؤهم مباشرة من دون وساطة ···· فقـد تبين لك أن ألوهية الناس على الناس انما هى أصل جميع ما منى به البشـــر اليوم من البؤس والشقاء ···· وليس لهذا بالألوهية والربوبية فهـــذا هو الطريق الوحيد لنجاة البشر من براثن ذئاب الانســـانية وقطاع ســـبيل البشرية » (١) ·

ولقد دأب المودودى على اطلاق وصف « الجاهلية » على كل مجتمـــع يسوده تأليه غير الله أو اشراك آلهة أخرى معه سبحانه ، ولـــو كان أفراده يتسمون بأسماء المسلمين ويتخذون مظاهر سلوكهم · ويشهد هذا بتأثير عميق للدعوة السلفية فى فكر هذه الجماعة القائمة فى الهند ـ الأرض التى تزخر من قديم بعقائد متباينة وتراث من أفكار ورياضات روحية تسرب الى عقـــائد المسلمين وشعرائهم فى بعض الأحيان ·

صور أخرى لتأثير الدعوة السلفية فى الجماعات الاسلامية المعاصرة :

وثمة صور أخرى لتأثير الدعوة السلفية التى اضطلع بها الشيخ محمد ابن عبد الوهاب فى الجماعات الاسلامية المعاصرة وأولى هذه الصور قيـــام **جمعيات انصار السنة** بوجه خاص والجمعيات السلفية بوجه عام فى أنحـــاء العالم الاسلامى ، تدعو الى التمسك بالكتاب والسنة وتحارب ما طرأ عـــلى العقيدة الاسلامية من انحرافات تصل الى الشرك أحيانا ، وما طرأ على شعائر العبادة من بدع ، وتوجه الى التزام السنة فى القول والمظهر والسلوك ، وتكاد أن تحصر نشاطها فى هذا المجال فلا تشغل نفسها بغير ذلك من المشـــكلات

---

(١) رسالة « نظرية الاسلام السياسية » للمودودى ، وانظر رســـالته « الدين القيم » ·

الاجتماعية والسياسية العامة للمسلمين بل تركز جهودها على تصحيح العقيدة والعبادة وتؤمن بأن هذا سوف يكون أساسا لاصلاح آخر · ومن ذلك جماعة انصار السنة بمصر التى أسسها محمد حامد الفقى رحمه الله ، كما قامت جماعة أنصار السنة بالسودان سنة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م تدعو الى التوحيد الخالص المطهر من جميع أنواع الشرك والتزام صريح الكتاب وصحيح السنة ومجانبة البدع ومحدثات الأمور والقضاء على الخرافات والتقاليد المخالفة لهدى الاسلام (١) ·



بل أن تأثير الدعوة السلفية قد **وصل الى الطرق الصوفية نفسها** ، فقامت محاولات لاصلاح الطرق الصوفية من داخلها ، يقول الشيخ محمد رشيد رضا « لما هاجرت الى مصر سنة ١٣١٥ هـ / ١٨٩١ م كان أول اصلاح سعيت اليه أن حاولت اقناع مشايخ الطرق الصوفية (**الشيخ البكرى**) بالقيام بهذا الاصلاح ، كلمته بذلك قبل اصدارى (المنار) ثم ما زلت الح عليه فى ذلك وهو يسوف مع الاستحسان ، حتى عمد الى وضع **لائحة رسمية ولائحة داخلية ثم وضع كتابا فى الأخلاق والآداب** · ثم انه سألنى عن رأيى فقلت : **أن الاصلاح لا يقوم الا برجال** من أهل العلم الصحيح والأخلاق والغيرة يناط بهم أمر هذه الطرق كلها ، ثم علمت بعد طول السعى **أن ما حاولت من الاستعانة بهذه السلطة الرسمية على هذا الاصلاح الروحى يكاد يكون من محالات العادات !** » (٢) ·

والشيخ محمد توفيق البكرى كان نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية بمصر وكان شاعرا اديبا (١٢٨٧ ـ ١٣٥١ هـ / ١٨٧٠ ـ ١٩٣٢ م)

ولم تكن الطرق الصوفية مهيئة لأى اصلاح بحكم أصول قيامها وكيانها ، وتصور قابليتها للاصلاح بحيث تكون الطرق الصوفية سلفية هو تصور لاجتماع

---

(١) عبد المجيد عابدين : الثقافة العربية فى السودان ص ١٧١ ·

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام ـ دار المنار بالقاهرة ـ ج ١ ص ١٢٩ ·

المتناقضات أو لمحاولات العادات ـ كما عبر الشيخ محمد رشيد رضا بعد تجربة ! وانما موضع الملاحظة والدلاله أن الطرق الصوفية ذاتها ومشيختها قد شعرت بحاجتها الى الاصلاح تحت وطأة النقد الذى أثارته الدعوة السلفية ۰۰۰۰ وما زال شيوخ مشايخ الطرق الصوفية المتعاقبين فى مصر يبحثون فى اصلاح الطرق أو تحقيق المحال حتى اليوم !!



وثمة نزوع عند البعض الى اقامة **جماعات صوفية سلفية مستحدثة** النشأة ، وأصحاب هذه النزعة آمنوا باستحالة اصلاح الطرق وهم يميلون الى التربية الصوفية ، لكن تأثير الدعوة السلفية على عقولهم وقلوبهم قد دفعهم الى محاولة اقامة جماعات صوفية جديدة على غير قواعد الطرق ، تركز على اصلاح النفوس بالتربية الصوفية بشرط أن يمحص كل ما يبذل من محاولات لتزكية النفس بالصلاة أو الصوم أو الدعاء أو غير ذلك فيأتى موافقا للكتاب والسنة وتزكى العلاقة بين المريد والشيخ أو بين المربى والمربى ، اذا تجنبنا المصطلحات الصوفية المتعارف عليها وكذلك العلاقات بين أعضاء الجماعة بحيث تقوم على أخلاق الاسلام وآدابه ، وبالنسبة للثقافة الصوفية أو كتب الوعظ والتذكير يعتمد هؤلاء على ما ينسب للحسن البصرى ، وكتاب عبد الله بن محمد بن على الهروى الأنصارى (ت ٤٨٢ هـ) « منازل السلف » وشرحه « مدارج السالكين » لابن القيم وبعض كتابات عبد الرحمن بن الجوزى (ت ٥٩٦ هـ) وبعض كتابات ابن القيم (٧٥٠ هـ) مثل « الروح » أو « حادى الأرواح الى بلاد الأفراح » ۰

ومن أمثلة هذه الجماعات : **العشيرة المحمدية فى مصر** التى انشأها أحد علماء الأزهر الذى كان من أوائل الذين حصلوا من الجامع الأزهر على درجة العالمية من درجة أستاذ هو الشيخ محمد زكى ابراهيم ، وللجماعة صحيفة تسير على منهجها فى التوجيه هى مجلة المسلم ، كما تنظم المحاضرات العامة (١) ۰

---

(١) لعل أبرز مثال لهذه الجماعات « **جماعة التبليغ** » التى قامت أول أمرها فى شبه القارة الهندية ثم انتشر نشاطها خارجها ووصلت بلدانا عربية ، ولكن

ولا تزال الكتب تخرج تدعو الى الاهتمام بالعنصر الشخصى فى التوجيه والارشاد ـ وهو الأساس فى التربية الصوفية ، ومن احدثها كتاب يقول صاحبه فى فصل عنوانه (تجديد الدين) كثيرا ما يتحدث مفكرو الاسلام المعاصرون عن (المنهج) الاسلامى فى تربية الفرد واقامة الجماعة ، ولعل اكثرهم ولوعا بذلك سيد قطب رحمه الله ، وهو رجل عاش (فى ظلال القرآن)

كما قال بضعا وعشرين وسنة وتجد فيما كتب بركة ذلك ونور كتاب الله ، بيد أنه رحمه الله لا يذكر نقطة البدء فى حركة الاسلام الأولى على كثرة ما كتب ... الا وهى لقاء الانسان بنور الهداية فى شخص حامل الهداية ، ويبدو الأمر وكأن مفكروا الاسلام نسوا هذه الظاهرة التى فتنت معاصرى الرسول الكريم : ظاهرة الاهتداء المفاجىء والتحول الغريب الذى يطرأ على المفكر بمجرد اتصاله بحامل الرسالة الالهية .... والطاقة التى تحول الناس بهذا المقدار وبهذه السرعة وتلفت كل همهم من قيمهم الموروثة الى قيم جديدة لا تكمن فى فصاحة الداعى الى الله المرسل من عنده ولا فى رغبة المدعو وحنينه الى تغيير ما كان فيه من عقائد واحوال ، انما تكمن فى شخص الداعى الى الله باذنه الذى انزل معه نور . وهذه الطاقة هذا النور ، هذا المغناطيس للروحى للداعى الى الله الاكبر عليه صلوات الله وسلامه كانت المحرك الأول للاسلام وهى نفسها التى تعيد الى الاسلام حيويته كلما برز الى الناس رجل صادق يدعو الى الله وهو على بصيرة من امره ورضا من ربه . هذه الطاقة هى مناط الوراثة النبوية فى قول الرسول الكريم (العلماء ورثة الأنبياء)

ليس عندى الكثير من المعلومات عنها ، يقول عنها الشيخ على الطنطاوى فى مقال بمجلة (المسلمون) فى عددها العاشر من سنة ١٩٥٦ م (أما دعوة رجال التبليغ فقد اسسها الشيخ الياس والزم فيها تلامذته أن يبذلوا لها قليلا من اوقاتهم يسيحون فيها فى البلاد على نفقة انفسهم لا يسالون أحدا معونة بل لا يقبلون المعونة من أحد ، يدعون الى الله ويبلغون المسلمين رسالة الاسلام) ويقول عنهم أحد الكتاب ، يعمل رجال التبليغ عملا جماعيا فيصحب المتطوع الجديد من لهم القدم فى الدعوة وتتخذ المبايعة عندهم شكل النذر المتجدد للخروج فى سبيل الله ولهم اذكار مرتبة وهم أشد الناس تعلقا بالسنة وبأعمال الرسول (ص) واحواله وقد ألف لهم الشيخ محمد يوسف كتاب (حياة الصحابة) ومن مبادئهم الأساسية ترك مالا يعنى » ـ عبد السلام ياسين : الاسلام بين الدعوة والدولة ـ الدار البيضاء ١٣٩٢ هـ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

باقية فى هذه الأمة تفعل فعلها متى تمت شروط وجود الداعى الى الله الوارث الصادق ٠٠٠٠ ان الذى يبحث عنه مفكرو الاسلام ليس (منهجا) قوامه دعوة وجهاد وصبر فقط ، لكنه (منهاج) قوامه الدعوة المؤيدة من الغيب المركزة فى شخص الداعي المشرع المرسل أو المتبع على بصيرة ، ثم يأتى جهد المدعو وصبره وجهاده ٠٠٠٠ انبعاث الأمة اذن رهن ببروز المجدد رجل الدعوة الصادق » ٠ كما يقول الكاتب فى موضع آخر عن فكر سيد قطب « ولعل رحمه الله حسب أن الفكر يغنى عن الصحبة السنية التى سموها متوفية » « الاسلام كما هو فى حقيقته تجربة انسانية يتعرض لها الفرد ثم يسرى مفعولها من الأفراد الى الجماعة » ويصف الاسلام أيضا على أنه « لقاء بين الانسان وعالم الغيب ، بين العقل وما فوق العقل ، بين ارادة الانسان وارادة الله » ٠ على أن المؤلف واع بالسلبيات القائمة للفكر الصوفى والسلوك الصوفى فى صدد تعريف الولى وفى صدد العلاقة التى تربط المريد بشيخه حيا وميتا ، وهنا يظهر أثر الدعوة السلفية فى محاولته تصحيح تلك العلاقة التى يؤمن بها أساسا للتغيير سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة ، استمع اليه يقول « الأولياء والصالحون هم زبدة الأمة ، وهم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهم الذين أحبهم الله تعالى ، كافأهم بأن أصبح لهم عينا ويدا وعونا ومؤيدا ٠ ولكن المسلمين فى تدهورهم العقدى والتاريخى اتخذوا قبور الأولياء الأموات أوثانا ، ونسوا طريق السعى الى تحقيق قابلياتهم للكمال كما حقق رجال الله العاملون » ٠٠ ويقول الكاتب « والذكر باللسان والقلب يجدد الولاء لله وارادة التقرب منه ٠٠٠٠ ومن بين الحرفين من ينكر أن يكون فى القرآن أمر بالذكر باللسان واتخاذ ورد عندهم كفر ٠ ولسنا نحب أن نعود الى جدل مزق أوصال الاسلام ، لأن الورد أو اللا ورد واتخاذ الشيخ والاستغناء عنه أمور احسانية ، فمتى كانت همة من يجادلك لا تتجاوز النطق الاسلامى الى العمل الاسلامى ثم الى التزكية الروحية التى هى طريق الفلاح قال بهواه ورأيه ٠ ولا نسمع الا لمن قال عن تجربة ومعاناة ٠٠٠٠ وفى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم حث على صحبة الأخيار ومجالسة الذاكرين والصبر معهم ٠٠٠٠ ابتداء من المسلم الغائر أو المسلم الجغرافى أو المرتد تبدأ عملية تربية أساسها الصحبة وقوامها ذكر الله ، ومجالها وقت المريد تستغرقه كله بالعبادات والأوراد ، وأخص مجال هذه التربية مجالس الذكر لأن بذكر الله تطمئن القلوب ٠٠٠٠ العملية عملية تربية بمعنى المعالجة الدائمة ، بمعنى التزكية » ٠ ويرى المؤلف ـ وهو مغربى ـ

ان « جماعة الاخوان السنوسيين على عهد الامام محمد بن على الشيخ المؤسس حامل السر كانت أقوى بنية وأكثر تمكنا فى ميادين التربية العملية والسلوك الصوفى السائر بالمريد لكماله الروحى ، وكانت بنية الجماعة تعتمد على تصنيف صوفى : فهناك العامة والخاصة وخاصة الخاصة ، أو قل بلسان نبوى : مسلمون ومؤمنون ومحسنون » · وهو يقول « على رجال الدعوة أن يشرحوا للمسلمين أن لله أولياء جعلهم رحمة فى خلقه ويدلوهم على الصحبة ويدلوهم على المحبة الالهية ···· فى دنيا العنف والكراهية ينبغى لرجال الدعوة أن يدلوا على المحبة وعلى المودة والرفق ، قيمة الانسان لا يعثر عليها الا فى المحبة ولن تقنعه القيم الاقتصادية والاستراواحية التى تقوم عليها الحضارة المادية · ان طلبة الانسانية فى الاسلام عند المسلمين ، وان أول خطوة للتأكد من ذلك أن تصحب وليا لله عارفا بالله يسلك بك الى المنهاج النبوى طريق معرفة الله والايمان اليقينى بغيبه وآخرته ورضوانه » · وللكاتب آراء يذهب فيها مع صوفيته الى ما يصدم السلفى الذى تربى شعوره وفكره على الدعوة السلفية ، لكن تأثر الكاتب بالدعوة السلفية يبدو فى تأكيده أن الولى العارف بالله انما يسلك بالمريد « على المنهاج النبوى » ، كما يبدو تأثره جليا فيما يكتبه عن الدعوة السلفية التى اضطلع بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب والحركة التى آزره عليها الامام محمد بن سعود · يقول : « ان الحركة السعودية الوهابية كانت فى هذا القرن أروع صفحة فى التجديد والجهاد الاسلاميين ···· وتحرك الموحدين السعوديين وأسندوا ظهرهم لله بينما كان غيرهم يستند الى دعوة الكافرين ، ونصرهم الله وكاد بهم لأعداء الاسلام ··· ان لقاء الدعوة الموحدة الوهابية بالأسرة السعودية كان واحدا من هذه اللقاءات المباركة التى جمعت صدق رجال الدعوة بصدق القيادة الجهادية ، ولما أزهر هذا اللقاء بعد قرنين خرج نتاجه طيبا · وكانت الدعوة الوهابية رد فعل ضد انحدار الاسلام الصوفى الذى أصبح عبادة للقبور ، فلما بلغت الدعوة مداها أصبحت فعلا ومبادرة فى بناء دولة مسلمة هى اليوم معقل من معاقل الاسلام تعقد عليه الآمال وينصب له أعداء الاسلام العداء ويطوقونه » (١)

---

(١) عبد السلام ياسين : الاسلام بين الدعوة والدولة ، المنهاج النبوى لتغيير الانسان ــ الدار البيضاء سنة ١٣٩٢ هـ ص ١٨ ــ ٢٣ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٦ ــ ٦٩ ، ٣١٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠ ، ٤٥٦ ــ ٤٥٧ ، ٤٧١

ولست بصدد تقويم هذه المحاولات لايجاد « صوفية سلفية » فى هـــذا المقام على كل حال لا أرى امكانا للخلاص من الركام التاريخى للصوفية لمـــن سلك مسلكهم وولج الى متاهتهم ، وأرى المحاولة قائمة على تناقض أصـــيل وأمل واهم موهوم ·



وثمة تأثر سلبى بالدعوة السلفية هى منه براء ، ولكن لا تخلو دعـــوة أيا كانت من اعتساف المتعسفين فى فهمها والتوائهم بمعانيها وحقائقها ، ولقد قال عز وجل عن كتابه العزيز « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين · الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون (البقرة/٢٦ـ٢٧) ، وقال عز من قائل عن أنبيائه الأكرمين صلوات الله عليهم « وكذلك جعلنا لكل نبى عـدوا شياطين الانسان والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ، ولـو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنـــون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون » (الأنعام / ١١٢ ـ ١١٣) ·

ان بعض المسلمين من مختلف البلدان لم يفهم من الدعوة الســـلفية الا أنها « رفض » مستمر « للواقع المعاصر » أيا كان ، « وتصلب على القديم » أيا كان ، وانطلاق فى وصف الأفراد والمجتمعات القائمـــــة بالــــكفر والشرك والجاهلية ·

ولم يفهم الرجوع الى الكتاب والسنة الا على أنه اهدار لكل فئة ولو كان لا يقوم الا على الكتاب والسنة ، واقتناص لأحاديث متفرقة ، دون تكلف مشقة متابعة الأحاديث الواردة فى موضوع ما وتحقيق مدى قوتها والجمع بينهـــا للاستنباط منها جميعها دون مخالفة شىء منها اذا أمكن ، أو الترجيح بينهـــا اذا تعذر الجمع وفقا للمناهج والقواعد المتبعة فى ذلك ·

و « الرفض » المطلق يسير ٠٠٠٠ و « الانكار » الدائم يسير ٠٠٠٠
و « الشكوى » المطردة من فساد الزمان وعصيان المسلمين يسيرة ٠٠٠٠ وانما العبء الذى لا ينهض به الا اولو الألباب والبصائر والعزائم هو فى النظرة الفاحصة المحصة للواقع والجديد ، والتمييز البصير الرشيد لما يتفق مع الاسلام وما يخالفه ، والاستفادة من الحكمة ضالة المؤمن واتباع احسن القول والعمل ٠٠٠ وقد فرق ديننا بين ما لا يكون فيه الا الاتباع المحض من أمور العقيدة والعبادة والشريعة ، وما يكون محل الاجتهاد والاباحة وليس يشترط فيه أن يكون كل قديم افضل من أى جديد ٠

يقول كاتب مغربى مثلا « ٠٠٠ الذاتية الاسلامية والاستقلال فى الرأى والرجولة فى الميدان ، لا تقاس بأعراض التفتح الثقافى الذى يفتقده المثقفون عند فقهاء نجد فيسخرون من ضيق نظرة المشايخ البادين ٠ ولو تأمل المثقفون لعرفوا أصالة الذى يلعن شيطان المخترعات ولتراءى لهم ما كان يمكن أن تعطيه هذه الأصالة من فاعلية امام عدو غاز مكفر لهم فهل ترى لابد أن تكون « الاصالة » فى « لعن شيطان المخترعات » ؟؟ ٠٠٠٠ وهب كان ذلك مقبولا عندما يظهر فى صورة انفعال طارىء ورد فعل موقوت ، فهل يكون هو الأصل الثابت والقاعدة المطردة ؟؟

الم يقبل رسول الاسلام صلوات الله عليه مشورة حفر « الخندق » يوم الأحزاب من سلمان الفارسى ٠٠٠٠ واستعمل « المنجنيق » فى حصار الطائف ؟؟

جاء فى « الطبقات » : « فكان جميع القوم الذين وافوا الخندق ممن ذكر من القبائل عشرة آلاف وهم الأحزاب وكانوا ثلاثة عساكر وعناج الأمر الى ابى سفيان بن حرب ٠ فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فصولهم من مكة ندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم فى أمرهم ، **فأشار عليه سلمان الفارسى بالخندق فاعجب ذلك المسلمين** ، وعسكر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سفح سلع وجعل سلعا خلف ظهره ٠٠٠ وعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم بيده لينشط المسلمين ووكل بكل جانب منه قوما » (١) ٠

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ـ دار صادر بيروت ـ ج ٢ ص ٦٦

وفى حصار الطائف جاء فى « الطبقات » « **ونصب ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم المنجنيق ونثر الحسك سقبين من عيدان حول الحصن ٠٠٠٠** » « عن مكحول : أن النبى صلى الله عليه وسلم نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوما (١) وروى ابن هشام : « ورماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنجنيق » حدثنى من أثق به : **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اول من رمى فى الاسلام بالمنجنيق** ـ رمى به أهل الطائف ، قال ابن اسحاق : حتى اذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت دبابة ثم زحفوا بها الى جدار الطائف ليخرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل » (٢)

وروى القاضى أبو يوسف فى كتاب « الخراج » عن أبى هريرة ٠ « قال : قدمت من البحرين بخمسمائة الف درهم فاتيت عمر بن الخطاب ممسيا فقلت : يا امير المؤمنين اقبض هذا المال ، قال : وكم هو ؟ قلت : خمسمائة الف درهم ٠٠٠٠ قال : انت ناعس ، اذهب فبت الليلة حتى تصبح ، فلما اصبحت اتيته فقلت : اقبض منى هذا المال ، قال : وكم هو ؟ قلت : خمسمائة الف درهم ، قال أمن طيب هو ؟ قلت : لا أعلم الا ذاك ، فقال عمر : ايها الناس انه قد جاء مال كثير فان شئتم أن نكيله لكم كلنا وان شئتم أن نعد لكم عددنا وان شئتم أن نزن لكم وزنا لكم ، **فقال رجل من القوم : يا امير المؤمنين دون للناس دواوين يعطون عليها فاشتهى عمر ذلك** ، فعرض للمهاجرين خمسة آلاف خمسة آلاف وللأنصار ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ولأزواج النبى صلى الله عليه وسلم اثنى عشر ألفا ٠٠٠٠ وجعل عمر الى زيد بن ثابت عطاء الأنصار فبدأ بأهل العوالى فبدأ ببنى عبد الأشهل ثم الأوس لبعد منازلهم ثم الخزرج حتى كان هو آخر الناس وهم بنو مالك بن النجار وهم حول المسجد ٠٠٠٠ عن السائب بن يزيد عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : والله الذى لا اله الا هو ما أحد الا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك وما أنا فيه الا كأحدكم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٨ ـ ١٥٩

(٢) سيرة ابن هشام : تحقيق مصطفى السقا وزملائه ـ ط ٢ القاهرة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م ـ القسم الثانى ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالرجل وتلاؤه فى الاسلام (وفى رواية : وبلاؤه) والرجل وقدمه فى الاسلام والرجل وغناؤه فى الاسلام والرجل وحاجته فى الاسلام ، والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه يعنى فى طلبه ٠٠٠٠ وكان يفرض لأمراء الجيوش والقرى فى العطاء ما بين تسعة آلاف وثمانية آلاف وسبعة آلاف على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الأمور ٠ قالوا : وكان للمنفوس اذا طرحته أمه مائة درهم فاذا ترعرع بلغ به مائتين فاذا بلغ زاده ، قال ولما رأى المال قد كثر قال : لئن عشت الى هذه الليلة من قابل لألحقتهم آخر الناس بأولادهم حتى يكونوا فى العطاء سواء ٠٠٠ فتوفى رحمه الله قبل ذلك » (١) ٠

وهكذا انتقل الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من كيل المال وتفريقه على المسلمين الى فرض الرواتب المقدرة وحفظ السجلات المنظمة فى الدواوين بمشورة واحد من المسلمين ، ومن المعروف أن كلمة ديوان أصلها فارسى ، والتنظيم كله جديد على العرب المسلمين « قال على بن أبى طالب لعمر : تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئا ، وقال عثمان: أرى مالا كثيرا يسع الناس وان لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ حسبت ان ينتشر الأمر ، فقال الوليد هشام بن المغيرة : قد جئت الشام فرأيت ملوكها (أى ملوك الروم) قد دونوا ديوانا وجندوا جندا فدون ديوانا وجند جندا فأخذ بقوله ٠٠ (٢) » فلما وضع عمر الديوان قال أبو سفيان بن حرب : أديوان مثل ديوان بنى الأصفر ؟ انك ان فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة ، فقال عمر : لابد من هذا فقد كثر فىء المسلمين » (٣)

« ٠٠٠ عن عقبه بن نافع عن ابن عمر أن عمر كان لا يفرض للمولود حتى

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ــ المطبعة السلفية بالقاهرة ــ ط ٤ سنة ١٣٩٢ هـ ص ٤٨ ــ ٥٠

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان مراجعة رضوان محمد رضوان ــ القاهرة ص ٤٣٥ ــ ٤٣٦ (رواية محمد بن سعد عن الواقدى) ٠

(٣) المصدر السابق ص ٤٤٤ (رواية الشعبى) ٠

يفطم ، ثم نادى مناديه : لا تعجلوا أولادكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولـود فى الاسلام » (١) ٠

يقول ابن خلدون : « ٠٠٠ **واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشـارع مطية للآخرة ، ومن فقد المطية فقد الوصول ، وليس مراده فيـما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب الى تركه اهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصـله وتعطيل القوى التى تنشأ عنها بالكلية ، انما قصده تصريفها فى أغراض الحق جهد الاستطاعة** حتى تصير المقاصد كلها حقا وتتحد الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم (من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه) ٠ **فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الانسان** ، فانه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله ، وانما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الذميمـة ، **فاذا كان الغضب لذلك كان مذموما واذا كان الغضب فى الله ولله كان ممدوحا** ــ وهو من شمائله صلى الله عليه وسلم ٠٠ وكذلك ذم الشهوات أيضا ليس المراد ابطالها بالكلية ، فان من بطلت شـهوته كان نقصا فى حقه ، **وانما المراد تصريفها فيما ابيح له باشتماله على المصالح ليكون الانسان عبدا متصرفا طوع الأوامر الالهية** ٠ وكذا العصبية حيث ذمهـا الشارع وقال (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) فانمـا مراده حيث تكون العصبية على الباطل وأحواله كما كانت فى الجاهلية وأن يكون لأحد فخر بهـا أو حق على أحد ، لأن ذلك مجانة فى أفعال العقلاء وغير نافع فى الآخرة التى هى دار القرار ٠ **فأما اذا كانت العصبية فى الحق واقامة أمر الله فأمر مطلوب** ولو بطل لبطلت الشرائع اذ لا يتم قوامها الا بالعصبية كما قلناه من قبـل ٠ **وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهـر الكافة على الدين ومراعاة المصالح** ، وانما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتصرف الآدميين طوع الأغراض والشهوات كما قلناه ، **فلو كان الملك مخلصا فى غلبة للناس أنه لله ولحملهم على عبادة الله وجهاد العدو لم يكن ذلك مذموما** ٠ وقد قال سليمـان صلوات الله عليه (رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل فى النبوة والملك ٠ ولما لقى معاوية عمر بن الخطاب عنـد قدومه الى الشام **فى أبهة الملك وزيه من العديد والعـدة استنكر ذلك وقال :**

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤٥

اكسروية يا معاوية ؟ فقال : يا أمير المؤمنين انا فى ثغر تجاه العدو وبنا الى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة ، فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه عبرة من مقاصد الحق والدين . فلو كان القصد رفض الملك من اصله لم يقنعه هـذا الجواب فى تلك الكسروية وانتحالها بل كان يحرض على خروجه عنها بالجملة وانما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس فى ملكهـــم من ارتكاب الباطل والظلم والبغى وسلوك سبله والغفلة عن الله ، وأجابه معاوية بان القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم وانما قصده بها وجه الله ، فسكت . وهكذا كان شان الصحابة فى رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده حذرا من التباسها بالباطل ... وأكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الاسلام وبداوة العرب فقد كانوا أبعد الأمم عن احوال الدنيا وترفها ، لا من حيث دينهم (فقط) الذى يدعوهم الى الزهد فى النعيم ، (بل) من حيث بداوتهم ومواطنهم (أيضــــا) وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه الذى ألفوه . فلم تكن أمة أســـغب عيشا من مضر لما كانوا بالحجاز فى أرض غير ذات زرع ولا ضرع ... حتى اذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد صـــلى الله عليه وسلم زحفوا الى أمم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الأرض بوعد الصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم ، فزخرت بحار الرفه لديهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له فى بعض الغــــزوات ثلاثون ألفا من الذهب أو نحوها ، فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم ... وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وانما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها ومكاسبهم مع هذا أتم ما كانت لأحد من أهل العالم ، قال المســـعودى : فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان له يوم قتـــل عند خازنه خمسون ومائة الف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة . وبلغ الثمـــن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة ، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك ، وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا ، وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفئوس غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة الف دينار ، وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والاسكندرية وكذلك بنى طلحه داره بالكوفة وشيد داره بالمدينـــــة وبناها بالجص والآجر

والساج ، وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقبة ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات ، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظهر والباطن ... انتهى كلام المسعودى . **فكانت مكاسب القوم كما تراه لم يكن ذلك منعيا عليهم فى دينهم اذ هى أموال حلال وغنائم وفيوء ، ولم يكن تصرفهم فيها باسراف** اذ كانوا على قصد فى أحوالهم كما قلناه ، فلم يكن ذلك بقادح فيهم : **وان كان الاستكثار من الدنيا مذموما فانما يرجع الى ما اشرنا اليه من الاسراف والخروج به عن القصد ، واذا كان حالهم قصدا ونفقاتهم فى سبيل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار عونا لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة** فلما تدرجت البداوة والغضاضة الى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التى هى مقتضى العصبية كما قلناه وحصر التغلب والقهر ، **كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرفه والاستكثار من الأحوال ، فلم يصرفوا ذلك التغلب فى باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق » (١) .**

وتحليل دقيق عميق للواقع مثل تحليل ابن خلدون رحمه الله أعسر كثيرا على العقول الساذجة من « الرفض » المطلق ... والمسلمون محتاجون الى التحليل والتمييز والسبر العميق لفهم الواقع وتلبية الحاجات المشروعة بالوسائل المشروعة ، والانتفاع من مباحات الله وما اتاحه للناس من علم وحكمة وقوة واستثمار الطيبات لصالح المسلمين « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » (الأعراف / ٣١ ـ ٣٣) ، « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم » (النحل / ١١٦ ـ ١١٧) « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم

---

(١) ابن خلدون : المقدمة وهى المجلد الأول من تاريخه ـ ط ٣ ـ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى ـ بيروت سنة ١٩٦٧ م ص ٣٥٨ ـ ٣٦٤

الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » (المائدة ٨٧ ـ ٨٨) ، « وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين » (القصص/٧٧) ٠

وأولى من الاسترخاء والسلبية فى مواجهة الواقع وترك الأمور تجـرى فى أعنتها دون توجيه أو ترشيد ، وأولى من الانطلاق وراء الوصف بالكفـر والشرك والجاهلية والفسوق والمروق لكل وضع معاصر ، أولى من هذا وذاك الاجتهاد فى تمييز المقبول وغيره ، واقتراح البديل المحدد الملائم الموافق لمقاصد الشريعة وأحكامها اذا دعت الحاجة ، بدلا من الدعوة الى ترك الواقع المبـاح الذى قد يستلزم بذل الجهد لتحقيق بعض الضبط والتقويم ـ باسم الرجـوع الى ما كان عليه السلف ، فانما الرجوع الى ما كان عليه السلف لازم فى أمور العقيدة والعبادة وأحكام الشريعة الثابتة الواجبة والمندوبة ، اما ما كانوا عليه من الأمور الجائزة او المباحة فلا يلزم التأسى فيه ، ولكل ظروفه وأحـوالـه وحاجاته ، والأولى الاجتهاد كذلك فى اقتراح وسائل استثمار نعم الله لتحقيق نفع عباده افرادا وأمة ودولة بحيث ترشيد الانفاق وفق أوامر الله ومقاصـد شريعته ، وتتحقق العدالة للافراد والقوة للمجمـوع ، وان هذا التمييـز والاستيعاب للواقع الحضارى القائم ، هو مقدمة ضرورية للإسهام الايجـابى فى الحضارة العالمية وتقديم ما هو افضل ٠

ان الاسلام يتطلب جهودا فكرية وعملية ، ايجابية جادة ، وانها لتستلزم عناء ودأبا واصرارا ، فى وقت تواجه فيه امة الاسلام بدينهـا وبمواردها ومواقعها العواصف الهوج العاتية من مطامع الخارج ، وتواجه رياح التغيير والتطور فى الداخل ٠٠٠٠ وطوبى لأولى الألباب والبصائر والعزائم اذا كدوا لالتماس سبيل الرشد والتوجيه القصدى لكل طاقاتنا اليه فلا تنفلت أو تتسرب أو تتبدد ٠٠٠ وطوبى لمن جعل صلابة ايمانه واستقامة عقيدته قوة « موجبـة » تضاعف طاقات أمته وتسارع خطوها وتثبتها على الحق والهدى حتى تكـون امة الاسلام فى هذا العصر دعوة حية لدين الاسلام ورحمـة الله المهـداة للعالمين ٠

« ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك قال عذابى أصيب به من أشـــــاء ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون • الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبـــــائث ،

ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولك هم المفلحـون » (الأعـــــراف / ١٥٥ ــ ١٥٧) •

« ••• قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين • يهدى به الله من اتبـــع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » (المائدة / ١٥ ــ ١٦) •



(**يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم** ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) الأنفال / ٢٩

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين ومن رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم ، والله غفور رحيم) الحديد / ٢٨

(ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا) الكهف / ١٠

(••• ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير • ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم) الممتحنة / ٤ ــ ٥

رحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثابه جزاء ما قدم من خير لدينه وأمته ، وكتب له أجر دعوته الى الحق والهدى وأجر من انتفع بها من المسلمين أفرادا وجماعات ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ــ ان شــــاء الله ــ وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين •

د • محمد فتحى عثمان

الفهـــــرس

صفحة